شرح كشف الشبهات

للإمام محمد بن عبد الوهاب

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/٢٠١٧م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه أستعين

المقدِّمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧١].

وبعد:

فإن المشركين الضالين أجلبوا علىٰ المسلمين بشبهاتهم ليفسدوا عليهم دينهم، وليزيّنوا لهم الشرك فيوقعوهم فيه، ثم يجعلوهم من جندهم الذين يقاتلون علىٰ الشرك والكفر.

وشبهات المشركين ضلال وهباء يتيقن ذلك من أخذ دينه عن القرآن وصحيح ما يُروىٰ عن رسول الله ﷺ بفهم السلف، فالقرآن كله في بيان معنىٰ التوحيد.

شبهات المشركين استزلت ضعفاء العقول ومن لا بصيرة له بمعاني القرآن وحقيقة الشرك، وهي كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُثبِّت الشِّرك وتحارب التَّوحيد».

وقد كتب شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وجزاه عن الإسلام خيرًا مصنفًا خاصًّا في الردِّ عليها «كشف الشبهات»، مع تناوله في أكثر مصنَّفاته لشبهات المعارضين لدعوة التَّوحيد المناصرين لعبادة غير الله ودعائه والاستغاثة به بالرد.

ومتن «كشف الشبهات» العناية به فهمًا وتفقُّهًا وتعلمًا وتعليمًا هو من أوجب الواجبات المتحتِّمات علىٰ المسلمين في كل حين؛ وهو من الأخذ بأسباب حفظ توحيد المسلمين، وقد أخذ الله الميثاق علىٰ العلماء ببيان الحقِّ، والحقّ له معارضون من دعاة الباطل والشِّرك، لا يزالون يدعون إلىٰ ضلالهم وشركهم وبدعهم وخرافاتهم وأكاذيبهم، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١]، وقد أوجب الله علىٰ العلماء رد شرك المبطلين والمضللين.

وقد قام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد علىٰ أحسن ما يكون في بيان حقيقة التَّوحيد ومعناه في دروسه وكتبه، ومن أعظم وأفضل ما كتب في ذلك كتاب «التَّوحيد»، وهذا الكتاب أبوابه ومسائله كلُّها في بيان حقيقة كلمة التَّوحيد وركنيها، والتَّحذير ممَّا يضادّها، فمن فهمه فإنّ قراءته لكتاب «كشف الشبهات» تزيده فهمًا لمعاني كتاب التَّوحيد، ويستفيد منه ويتعلَّم كيفية المحاجَّة عن التَّوحيد وإبطال الشِّرك والردّ عليه.

ودعاة التَّوحيد نفوسهم زكيَّة لزكاء اعتقادهم، دعوا إلىٰ كلمة التَّقوىٰ كلمة التَّوحيد «لا إله إلا الله»، لتزكو أرواح ونفوس وقلوب المؤمنين فتزكو أقوالهم وأعمالهم، وتُثمر كل خير، وتزكو ديارهم وبلادهم بالتَّوحيد؛ فيرضىٰ الله عنهم ويزيدهم هدًىٰ وتقوىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وهم في دعوتهم ناصحون للمسلمين مشفقون عليهم، رُغم ما ينالهم من أذاهم واستطالتهم، ذلك أنَّ كثيرًا منهم كبر عليه أن تقول له: دعاء غير الله شرك. لأنَّهم في اعتقادهم مؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ ويصلُّون ويصومون، وهذا من جهلهم بمعنىٰ التَّوحيد.

وعلماء التَّوحيد آتاهم الله ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]؛ لأنَّهم تلقَّوا علومهم عن الأنبياء، وقاموا بميراثهم رحمة للنَّاس، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ علىٰ المشركين عبَّاد المخلوقين.

والشِّرك من ثمرات الجهل، والنَّاس أعداء ما جهلوا؛ فلا غرابة أن يقوم

دعاة الشِّرك بالجدال بالباطل عن شركهم ومحاربة التَّوحيد.

للمشركين شبهات يزلزلون بها توحيد المسلمين، ويُفسدون بها عقائدهم، يسعون بها ليصدوا عن سبيل الله، إفسادًا للدِّين والدُّنيا، وسعيًا في خراب الدُّنيا بظلمات الشِّرك، وإركاسًا للمسلمين بما يجعلهم من أصحاب النَّار، فلا يقبل الله منهم عدلًا ولا صرفًا؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

شبهات المشركين تحريف لمعاني القرآن، وتقديم لأقوال شيوخهم المضلين علىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وعلىٰ قول الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أجمعين، وتقليد لمن حولهم من الضَّالين المشركين، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

فجزىٰ الله شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب خيرًا لنصيحته لله عَزَّوَجَلَّ ولكتابه، ولرسوله ﷺ وسنّته، ولأئمَّة المسلمين، وعامَّتهم، ولكشفه ضلال شبهات المشركين، ولبيانه حقيقة التَّوحيد.

❁ ❁ ❁

أهمية كشف الشبهات

كشف شبهات المشركين هو من تحقيق التَّوحيد؛ فإنَّ «لا إله إلا الله» لها ركنان: ركن الإثبات «إلا الله»، وهو إثبات الألوهيَّة الحقَّة لله وحده لا شريك له، وركن النَّفي «لا إله»، وهو الكفر بكل ما يُعبد من دون الله والبراءة منه.

فالدِّين الخالص والإسلام الحقّ وحقيقة التَّوحيد هو التألُّه لله وحده لا شريك له، والكفر بكل ما يُعبد من دون الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولا يتحقق التوحيد بدون الكفر بما يُعبد من دون الله؛ ولذلك فإنَّ من أوجب الواجبات إنكار الشِّرك ورد باطله وإبطال شبهاته.

وكشف شبهات المشركين يزيد اعتقاد الموحدين يقينًا بمعاني التوحيد، ويظهر لهم ضلال وباطل الشرك؛ فيكون العلم بفساد شبهات الشرك زيادةً في العلم بالتوحيد.

وكشف شبهات المشركين يكون بأخذ أسباب القوَّة العلمية التي تزيد علم الموحدين بالعقيدة الصحيحة، وذلك بطلب العلم النافع من الكتاب والسنَّة

بفهم السلف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا يستريب عاقل أنَّ العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبهة المعارضة لذلك، وبيان بطلان حجَّة المحتج عليها؛ ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبهة المعارضة له؛ فإنَّ الشيء كلما قويت أسبابه وتعدَّدت، وانقطعت موانعه واضمحلت؛ كان أوجب لكماله وقوته وتمامه».

والقرآن كُلُّه في التوحيد، والدنيا كلها بما فيها دالة علىٰ الواحد الأحد الصمد الذي لا ندَّ ولا شريك له؛ فبيان حقيقة التوحيد وإزالة شبة الأئمة المضلين من دعاة الشرك هو إقامة للحجة علىٰ المشركين، ومعذرة إلىٰ الله، وبذل لبعض أسباب هداية الضالين عن أوضح العلوم وأوجبها معرفة.

وشبهات الشرك إذا لم يقم الموحدون بإبطالها أفسدت أديان الناس ودنياهم، فالشبهات إذا رسخت في قلوب الناس لعدم قيام من يُظهر زيفها ويكشف ضلالها؛ صارت اعتقادًا راسخًا في نفوسهم يسوقهم إلىٰ النار، ويكونوا بذلك دعاةً إلىٰ الشرك بنصرة الشرك والدعوة إليه والمحاربة لمن يُنكره.

ويقوىٰ الشرك بالسكوت عنه؛ حتىٰ ينشأ عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، فلا يعرف من نشأ فيه إلا الشرك، وتصير أهواء المشركين وأعمالهم واعتقاداتهم الشركية هو الدين المفترىٰ علىٰ الله وعلىٰ الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٦٢).

فالمشركون دعاة على أبواب جهنم، يفسدون الدين والدنيا، ويضلون عن سبيل الله، بأقوالهم وأعمالهم؛ قال تعالىٰ عن ضلال المشرك: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الآية فيها قراءتان: (لِيَضِلَّ)، و﴿لِّيُضِلَّ﴾، فـ(يَضل) تعود إلىٰ نفسه، و(يُضِل) تعود إلىٰ غيره، وهاتان القراءتان كلتاهما صحيحة».

وقال[٢]: «إنَّه ضَلَّ أوَّلًا، ثم أضَلَّ ثانيًا».

وكشف شبهات المشركين ضرورة لتصحيح عقائد المسلمين الذين ضلوا في أنواع من الشرك بسبب تلبيس الأئمة المضلين وتقليد الآباء والأهلين، وفيه حفظ لتوحيد المؤمنين؛ فتحصين المسلمين بالعلم النافع يحفظ للمسلمين توحيدهم وإسلامهم، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

ومن رُزق علمًا وأوتي فهمًا، وأخذ بأسباب نصرة الحق؛ من الاستعانة بالله والافتقار إلىٰ هدايته، والإخلاص له في نصرة الحق، وتلقي العلم عن أئمة الهدىٰ الموحِّدين، وبقراءة مصنَّفات العلماء الناصحين في شرح التوحيد، وكشف زيف وضلال وشبه الشرك؛ فهذا من أولياء الله المجاهدين الذين يسدِّد الله رميهم في بيان التوحيد وإبطال الشرك.

وطالب العلم والعالم يزداد بالاعتصام بالكتاب والسنَّة بفهم السلف طمأنينة

(١، ٢) تفسير سورة الزمر (ص ٨٥).

في ظهور الحق وإزهاق الباطل، وبمدارسته للقرآن يظهر له وهاء شبه المشركين.

وخطاب الله للمشركين في القرآن؛ هو حجة الموحدين في مناظرة المشركين، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٧].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، فإنهم لا جواب لهم سواه».

ولا ريب أن الموحدين هم المهتدون وأن المشركين هم الضالون، وأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ [سبأ: ٢٧]؛ تبكيت للمشركين لو كانوا يعقلون.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يقايس علىٰ أعينهم بينه وبين أصنامهم؛ ليطلعهم علىٰ إحالة القياس إليه».

ولا يكفي المسلم أن يكون مجتنبًا للشرك في خاصة نفسه، ممسكًا عن إنكاره والتحذير منه، ورد شبهاته، بل لا يتحقَّق توحيده حتىٰ يُنكر الشرك ويبطل

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٢٤٤).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٢٤٥).

شبهاته ويدعو إلىٰ التوحيد.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمَر: ١٧، ١٨].

وأتباع النبي ﷺ دعاة توحيد يدعون إلىٰ شهادة «أن لا إله إلا الله» بركنيها، فيذكرون ربوبية الله ونعوته الموجبة لعبوديته وحده، وينكرون ما يُعبد من دونه ويردون علىٰ دعاة الشرك شبهاتهم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّه لا يكون من اتِّباعه حقًّا إلَّا من دعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة، كما كان متبوعه ﷺ».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لابدَّ مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلَّا كان ناقصًا، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرىٰ أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده، فلا بدَّ أن يكون داعيًا إليه، والدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتمُّ التوحيد إلا به».

وكشف شبهات الشرك ضرورة لحفظ قلوب وأعمال الموحدين من الشرك،

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢١٦).

(٢) شرح كتاب التوحيد، باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، (ص ١١٧)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.

وإزالة هذه الشبه عن نفوس المسلمين هو من النصيحة لهم، وهو من أسباب زكاء قلوبهم وجوارحهم بالتوحيد، ومعلوم أنَّ الشُّبه إذا لم تزل عن القلوب انطلقت الجوارح بالشرك، وإذا أزال الله شبه الشرك عن القلوب واقتُلعت بالعلم النافع؛ صار القلب محلًّا قابلًا للزكاء بنور الوحي وعقيدة التوحيد.

قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ [الرعد: ١٧]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، هذا مثل ضربه الله تعالىٰ للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنَّه يُستخرج منها زَبَدَ الشُّبهات الباطلة، فيطفو علىٰ وجه القلب، كما يستَخرجُ السَّيلُ من الوادي زبدًا يعلو فوق الماء. وأخبر سبحانه أنَّه رابٍ، أي: يطفو ويعلو علىٰ الماء، لا يستقرُّ في أرض الوادي ، كذلك الشُّبهات الباطلة إذا أخرجها العلمُ رَبَتْ فوق القلب وطَفَتْ، فلا تستقرُّ فيه، بل تُجفىٰ وتُرمىٰ، ويستقرُّ في القلب ما ينفع صاحبه والناسَ من الهدىٰ ودين الحقِّ، كما يستقرُّ في الوادي الماء الصِّافي، ويذهب الزَّبدُ جفاءً، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون».

فالقلوب تزكوا إذا أضاء نور الوحي بحقائق التَّوحيد في أرجائها، وزالت شوائب الشِّرك وشبهاته من نواحيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة،

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٦٥).

(٢) عُدَّةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ١١٠، ١١١).

وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع؛ فمتىٰ لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلًّا فارغًا قابلًا ينزل فيه، وإن فرَّغه حتىٰ أصابه غيث الرحمة لكنه لم يُنَقِّه من الدغل لم يكن الزرع زرعًا كاملًا، بل ربَّما غلب الدغل علىٰ الزرع وكان الحكم له.

وهذا كالَّذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع، ويودع فيها البذور، وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبد قلبه وفرَّغه من إرادات السوء وخواطره؛ وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه؛ كان جديرًا بحصول المُغَلّ - الحصاد -».

فالقلب كالوعاء، إذا امتلأ بشبهات الشرك أظلم في ضلال التألُّه لغير الله وعبوديته، وشفاؤه يكون بامتلائه من معاني القرآن؛ فهو شفاء القلوب من شكوك وشبهات الشرك وضلال البدع.

فالواجب أن يسعىٰ المسلم في أن يمتلئ قلبه من نور الوحي ومعانيه؛ فيستنير بهداه، ويمتلئ بمادَّة حياة القلب وقوته، ويدفع عنه شبهات الشرك؛ فيكون القلب ممتلئًا من الحق متألِّهًا لله وحده لا شريك له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومعاني القرآن تزيد القلب طمأنينة بالتأله لله والالتجاء إليه، وكلما ازداد المسلم هداية من معانيه، وأقبل علىٰ الله مخلصًا له الدين؛ تجرَّد القلب عن شوائب الشرك وأدرانه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وتنقية القلب من دغل الشِّرك وشبهاته، وملؤه بحقائق التَّوحيد ومعانيه؛ هو

التَّزكية التي أمر الله بتغذية القلوب بها؛ قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلىٰ: ١٤، ١٥]، وقال تعالىٰ عن موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال أكثر المفسرين من السلف ومَن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنَّه يتضمَّن نفي إلهيَّة ما سوىٰ الحق من القلب – وذلك طهارته –، وإثبات إلهيته – سبحانه – وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنه إنَّما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكِّي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد.

والتزكية: جعل الشيء زكيًّا؛ إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه».

كشف الشبهات هو ما يقوم به ورثة الأنبياء من العلماء في نصرة الحق وبيان التوحيد وإبطال شبهات المشركين الداعية إلىٰ تثبيت الشرك والمحاجة عنه، وهو ما ورثه العلماء الموحدون من ملَّة إبراهيم في المحاجة عن التوحيد ومجادلة المشركين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣].

والأنبياء جميعًا جادلوا أقوامهم في تحذيرهم من الشرك ودعوتهم للتوحيد، وكذلك فعل خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ، وحثَّ أصحابه علىٰ ذلك؛

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٠٧، ١٠٨).

فقد بَعث النبيُّ ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن، وقال له: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**» متفق عليه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّه ينبغي أن نعرف ما عند هؤلاء من العلوم والشبهات من أجل أن نردَّ عليهم بسلاحهم، وهذا من هدي النبي ﷺ، ولهذا لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب**»، وذلك من أجل أن يستعد لهم ويعرف ما عندهم من الكتاب حتىٰ يرد عليهم بما جاءوا به».

وحثَّ النبيُّ ﷺ أمته علىٰ الجهاد بأنواعه لنصرة الحقِّ، ولتكون كلمة الله هي العليا، ومن ذلك الجهاد العلمي، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»، رواه أحمد والنسائي وأبو داود[٢].

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أوجب المناظرة للمشركين كما أوجب النفقة والجهاد في سبيل الله».

كشف الشبهات هو جدال الموحدين للمشركين بحسن القصد وبالعلم النافع، فإنَّ الشرك لا ينصره إلا مشرك جاهل أو سيئ القصد عن الحق مائل، وجدال الموحِّدين لنصرة التوحيد حججه نور الوحي وصحيح الفطرة وصريح المعقول، وشبهات المشركين وساوس الشياطين ونصوص صحيحة من

---

(١) شرح كشف الشبهات (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده علىٰ شرط مسلم»، المحرر في الحديث (٢/ ٤٣٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٣٣).

الوحي لا تستلزم ما استدلوا عليه ومرويات مكذوبة كثيرة، ومعقول ضال من أقيسة باطلة فاسدة ومعقولات غير صريحة.

والذي أركس المشركين في شبهات ضلالهم ورودها عليهم من وساوس الشياطين وتلبيسات الأئمة المضلين، وأفئدتهم ضعيفة أو خواء من العلم النافع الذي يدفع الشرك وشبهاته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الشبهة وَارِد يرد علىٰ الْقلب يحول بَينه وَبَين انكشاف الْحقِّ لَهُ، فَمَتَىٰ بَاشر الْقلبُ حَقِيقَة الْعلم لم تُؤثِّر تِلْكَ الشُّبْهَة فِيهِ، بل يقوىٰ علمه ويقينه بردِّهَا وَمَعْرِفَة بُطْلَانهَا، وَمَتىٰ لم يُبَاشر حَقِيقَة الْعلم بِالْحَقِّ قلبه قدحَتْ فِيهِ الشَّكَّ بِأول وهلة، فإن تداركها وإلا تَتَابعَت علىٰ قلبه أمثالها حَتَّىٰ يصير شاكًّا مُرْتَابًا.

وَالْقلب يتوارده جيشان من الْبَاطِل: جَيش شهوات الغيِّ، وجيش شُبُهَات الْبَاطِل، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشرَّبها وامتلأ بِهَا فينضح لِسَانه وجوارحه بموجبها، فَإِن أُشْربَ شُبُهَات الْبَاطِل تَفَجَّرَتْ علىٰ لِسَانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظنُّ الْجَاهِلُ أنَّ ذَلِك لسعة علمه، وَإِنَّمَا ذَلِك من عدم علمه ويقينه!».

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩٤، ٣٩٥).

تشابهت شبهاتهم

من العجائب أنَّ المشركين المعاصرين اقتسموا ضلال وجدال وشبهات المشركين الأولين، وذلك أنَّ مادة الضلال هي من وساوس الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأعظم ما يوسوس به الشيطان إلىٰ عباد الله الشرك؛ لأنه الذي يجعل مصير أوليائه كمصيره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هَذَا رَدٌّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله فِي الْعِبَادَةِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ.

فإن قيل: فكيف عُبدت الجنُّ، مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنَّهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجنِّ وأمرهم إياهم بذلك، كما

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٣٣).

قال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠]، وكقوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] الآية.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، أي: وقد خلقهم، فَهُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَيْفَ يُعبد معه غيره؟!».

ومن أنواع ما اشترك فيه المشركون الأولون مع المشركين المعاصرين تحريضهم علىٰ الموحدين بدعوىٰ انتقاص الأنبياء والصالحين وعدم توقيرهم.

هاجر جعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الصحابة إلىٰ الحبشة، فسارع مشركو قريش إلىٰ النجاشي للوشاية بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا للنجاشي: أصحاب محمد ﷺ ينتقصون المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فقال النجاشي للصحابة الذين كانوا في الحبشة: ما تقولون في ابن مريم وأمه؟

قال جعفر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نقول كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ

مريم العذراء البتول التي لم يمسها بشر.

فرفع النجاشي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عودًا من الأرض، فقال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان! ما تزيدون علىٰ ما يقولون، أشهدُ أنَّه رسول الله ﷺ، وأنه الذي بشَّر به عيسىٰ في الإنجيل.

❁ ❁ ❁

تصحيح العقيدة بإبطال الشبهات

كشف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ شبهات المشركين والمبتدعين الضالين المبطلين، وإبطالها هو اتباع للنبيِّ ﷺ في إبطال عقائد الجاهلية بالرد علىٰ شبهاتها، وهو من النصيحة للمسلمين بتبيين الحق لهم وإبطال ما يفسد أديانهم وعقائدهم من الشبهات المضلة.

فالنبيُّ ﷺ قال: «لا عدوىٰ ولا طيرة»، فقال أعرابي: ما لنا نرىٰ الإبل تجرب، فقال له النبي ﷺ: «**فمن أجرب الأول؟!**»، متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالنبي ﷺ أبطل اعتقاد الباطل بأنَّ عدوىٰ الجرب فاعل مؤثر بنفسه، وأزال الشبهة عمَّن توهم ذلك، وذلك في قوله ﷺ: «**فمن أجرب الأول؟!**»، يعني: أنَّ المرض أصابه بلا عدوىٰ وإنما بمشيئة الله وتقديره.

ففي إبطال شبهات الضلال تصحيح لعقائد المسلمين، وهو بعض أسباب الهداية للحق.

وحاجة الناس إلىٰ الهداية للحق متجدِّدة، لا يقال فيها: إنَّه تمت الهداية من قبل فنكتفي بذلك عن طلبها كل لحظة؛ فإنَّ القلوب ضعيفة والشُّبَه خطافة، فلا يزال المسلم في كل لحظة يأخذ بأسباب الهداية، ومن أعظم ذلك الالتجاء إلىٰ

الله واستهداؤه، وطلب العلم النافع والعمل به، ولذلك فرض الله علينا في كل ركعة في كل صلاة أن نقرأ سورة الفاتحة التي نتلو فيها: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وذلك لضرورتنا للهداية المتجدِّدة التي تهدي إلىٰ الحق.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من أحاط علمًا بحقيقة الْهِدَايَة، وحاجة العَبْد إليها؛ عَلِمَ أنَّ الَّذِي لم يحصل لَهُ مِنْهَا أضعاف مَا حصَل لَهُ، وأنَّه كلَّ وَقت مُحْتَاج إِلَىٰ هِدَايَة متجدِّدة، لا سيَّما وَالله تَعَالَىٰ خَالق أفعال الْقُلُوب والجوارح؛ فَهُوَ كل وَقتٍ مُحْتَاج أنْ يخلق الله لَهُ هِدَايَةً خَاصَّة، ثمَّ إن لم تُصْرَف عَنهُ الْمَوَانِع والصَّوارف الَّتِي تمنع مُوجب الْهِدَايَة وتَصْرِفُها؛ لم ينْتَفع بالهداية وَلم يتمَّ مقصودُها لَهُ، فَإِنَّ الحكمَ لَا يَكْفِي فِيهِ وجود مقتضيه، بل لَا بُد مَعَ ذَلِك من عدم مانعه ومُنافيه.

وَمَعْلُوم أنَّ وساوس العَبْد وخواطرَه وشهوات الغيِّ فِي قلبه، كلٌّ مِنْهَا مَانع من وُصُول أثر الْهِدَايَة إليه، فَإِن لم يصرفهَا الله عَنهُ لم يهتدِ هدًىٰ تَامًّا، فحاجته إِلَىٰ هِدَايَة الله لَهُ مقرونة بأنفاسه، وَهِي أعظم حَاجَة للْعَبد».

والنبيُّون جميعًا - عليهم الصلاة والسلام - قاموا بالدَّعوة للتَّوحيد وإبطال شبهات الشِّرك بما يهدي إلىٰ صحيح الاعتقاد.

ومن أخصِّ ما قام به النبيُّون - عليهم الصَّلاة والسَّلام -؛ بيان أدلَّة التَّوحيد وإبطال شُبَه المشركين، حتىٰ عرف ذلك عنهم العام والخاصُّ، خصوصًا المشركين حيث قالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، فلم يفتر النبيُّون - عليهم السلام - عن إبطال الشِّرك، ولم يألوا جهدًا في بيان التَّوحيد.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٢).

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - محتجًّا علىٰ صحَّة التوحيد وإبطال الشرك -: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠] فأبطل الشرك، وصوَّر قبحه - عقلًا ونقلًا -، وأنَّ ما يُدعىٰ من دون الله آلهة متفرقة، كلٌّ فريق يزعم صحَّة قوله وإبطاله قول الآخر، والحال أنَّه لا فرق بينهما، وأنَّ المشرك فيه شركاء متشاكسون، وأن هذه المعبودات من دون الله ليس فيها شيء من خصائص الإلهيَّة؛ فليس فيها كمالٌ يوجب أن تُعبد لأجله، ولا فِعال بحيث تَنفع وتَضر فتُخاف وتُرجىٰ، إنما هي أسماء لا حقائق لها، ومع ذلك ما أنزل الله بها من سلطان علىٰ عبادتها؛ فليس في جميع الحجج الصحيحة ما يدلُّ علىٰ صحَّة عبادتها، بل اتفقت الحجج والبراهين كلُّها علىٰ إبطالها وفسادها، وعلىٰ إثبات العبادة الخالصة لله الواحد الذي انفرد بالوحدانية، والكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ ولا مقارب، وهو القهَّار لكلِّ شيء، فكل شيء تحت قهر الله، وناصيتُه بيد الله، فالواحد القهَّار هو الذي يستحقُّ الحبَّ والخضوعَ، والانكسارَ لعظمته، والذلَّ لكبريائه».

وإبطال شبهات المشركين والمبتدعين هو من الإصلاح الذي أمر الله به، وقام به المصلحون من النبيِّين - عليهم الصلاة والسلام -، فأعظم ما يكون من

(١) «المواهب الربَّانيَّة من الآيات القرآنيَّة» (ص٧٢).

الصَّلاح هو توحيد الله، وأنفع ما يكون للخلق من الإصلاح هو إبطال شبهات وضلال المشركين والمبتدعين.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإصلاح يشمل إصلاح القلوب بالعقائد الصحيحة والأخلاق الطيبة الجميلة، وإصلاح الأعمال؛ وهي جميع الأعمال الصالحة والأقوال الصالحة من واجب ومستحبٍّ من حقوق الله وحقوق عباده، وإصلاح ما يعود إلىٰ الفرد وما يعود إلىٰ الجماعة، وما يعود إلىٰ الدِّين، وما يعود إلىٰ الدنيا؛ فإنَّ إصلاح الأحوال الدنيوية الإصلاح الصحيح داخل في إصلاح الدِّين، فكما أمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ بالقيام بالعبادات؛ فقد أباح الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ كلَّ طيِّب حلال نافع، وأباح كلَّ طريق يوصل إليه من الأسباب الدنيوية؛ من تجارات وصناعات، وأصناف المكاسب علىٰ اختلاف أنواعها وأصنافها.

وكما أمر الشارع بإصلاح ما يعود إلىٰ نفس الإنسان؛ فقد أمر بإصلاح ما يعود إلىٰ الخلق، فالصالح حقيقة هو المصلح، ووصف الله جميع طرق الخيرات أنها من الصالحات؛ لأنها إصلاح للأمور، وهذه طريقة الأنبياء - عليهم السلام - وأتباعهم، قال تعالىٰ عن شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]».

ومقامات علماء الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في تبيين التَّوحيد ودفع شبهات الشِّرك عظيمة، فإنَّهم قد بذلوا الغاية في النَّصيحة من ذلك للأمَّة الإسلاميَّة، حفظًا لتوحيد المسلمين قبل أن تَرِدَ خطرات الباطل والضَّلال علىٰ قلوب المؤمنين، كل ذلك

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٢١٦، ٢١٧).

لتحقيق التَّوحيد؛ عبوديَّة ودعوةً وهدايةً، وقيامًا بالواجب في حفظ الإسلام.

من تلك المقامات العظيمة: قيام أبي بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بموعظة الصَّحابة بالتَّوحيد بعد وفاة النَّبي ﷺ حيث قال: «من كان يعبد محمَّدًا، فإنَّ محمَّدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإنَّ الله حيٌّ لا يموت».

وكان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يتحاورون في معاني التَّوحيد ببيان الحقِّ في بعض مسائله التي يتشاورون فيها، من ذلك مشاورة الفاروق للصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في القدوم علىٰ الشَّام عندما بلغه وقوع الطَّاعون بها، فعزم الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ الرُّجوع، فقال له أبو عبيدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أفرارًا من قدر الله؟ فقال الفاروق: «بل نفرُّ من قدر الله إلىٰ قدر الله»، رواه البخاري ومسلم.

ونصح علماء الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الأمَّة من أسباب ورود الشُّبهات المبطلة للدِّين والمفسدة لعقائده وأحكامه، ومنها الرأي؛ الذي إذا ركنوا إليه زلزل عقائدهم وأفسد عليهم دينهم وأهلكهم، وحثُّوهم علىٰ الاعتصام بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو كان الدِّين بالرَّأي؛ لكان أسفل الخفِّ أولىٰ بالمسح من أعلاه». وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا».

وتعليم الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لنا التَّوحيد ودفع شبهات الشِّرك، هو حثٌّ للعلماء علىٰ تعليم العلم الصَّحيح عمومًا وعلم التَّوحيد خصوصًا، وتوجيه لدفع الشُّبهات عن معاني التَّوحيد، فإنَّ الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ استلم الحجر الأسود من الكعبة وقال: «أما إنِّي أعلم أنَّك حجر، لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنِّي

رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك، ما قبَّلتك». رواه البخاري ومسلم.

فبيَّن الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن استلام الحجر عملٌ تعبُّديٌّ؛ اتِّباعًا للنَّبيِّ ﷺ، ودفعًا لتوهُّم شبهة التبرُّك بالحجارة.

ووجَّه الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الولاة والعلماء إلىٰ كيفية معاملة الضَّالِّين المثيرين للشُّبهات الساعين في إفساد عقائد المسلمين؛ فضرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالدِّرَّة صبيغ بن عسل لمجادلته في متشابه القرآن، وفي هذا توجيه للولاة بقمع المبتدعين. وحثَّ الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العلماء علىٰ تحصيل العلم وإتقانه لإبطال شبهات الضَّالِّين المفسدين للأديان، حيث قال: «سيأتي أقوام يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإنَّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ».

وهذا تأصيل في طلب معاني نصوص القرآن بالسُّنَّة المبيِّنة له، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ودعاة التَّوحيد يستمدُّون هدايتهم باتِّباع الوحي والاهتداء به، ويحاجُّون عن التَّوحيد بما أدركوه من دلائله.

ودعاة الشِّرك حججهم ضلالات ووساوس الشَّياطين الذين أقاموا جندهم من الإنس لإضلال النَّاس في ظلمات الشِّرك وجهالات الكفر، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشَّياطين، الذين يريدون أن يضلُّوا الخلق عن دينهم،

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢٧٥).

ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السَّعير».

ومن اهتدىٰ بالله هداه، ومن لزم الفطرة وكمَّلها وأتمَّها وأسَّسها علىٰ بيِّنة الشَّرع وصريح المعقول؛ فذلك نور علىٰ نور، ومن استزلَّه الشَّيطان في جهالات الشِّرك وضلالاته، فلا أنفع له من الاعتصام بالله وموالاته؛ ليخرج من ظلمات الباطل إلىٰ نور التَّوحيد والحقِّ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا باعتبار الفطرة، فإنَّ كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فكانوا علىٰ الفطرة السَّليمة والإيمان، ثم أخرجوهم».

وقال شيخنا في فوائد الآية[2]: «سوء ثمرات الكفر، وأنَّه يهدي إلىٰ الضَّلال - والعياذ بالله -؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وهذا الإخراج يشمل ما كان إخراجًا بعد الوقوع في الظُّلمات، وما كان صدًّا عن النور، وعلىٰ الثَّاني يكون المراد بإخراجهم من الظُّلمات: استمرارهم علىٰ الظُّلمات».

وواجب العلماء نصرة التَّوحيد وإبطال الشِّرك؛ فإنَّ الشِّرك أعظم الفساد، وهو الذَّنب الذي لا يغفره الله لمن لم يَتُبْ منه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٧٣).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٧٥).

وحقُّ الله الخالص كما يقوم به المسلمون عبوديَّة وتألهًا لله، فإنَّهم يقومون به دعوةً وتعليمًا وهدايةً ونصرةً.

والعالم وطالب العلم والدَّاعية إلىٰ التَّوحيد في إبطاله لشبهات المشركين؛ هو في أعظم أنواع العبوديَّة لله، عبوديَّة الموالاة لله ونصرة دينه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلماء رجوم لشياطين الإنس الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرفَ القول غرورًا، فالعلماء رجوم لهذا الصِّنف من الشَّياطين، ولولاهم لطُمست معالمُ الدِّين بتلبيس المضلِّين، ولكنَّ الله سبحانه أقامهم حُرَّاسًا وحفظةً لدينه، ورجومًا لأعدائه وأعداء رسله».

وداعية التَّوحيد النَّاصح للإسلام والمسلمين لا يمكن أن يترك الشُّبهات تُفسد عقائد المسلمين، فالنَّاس في أغلبهم كما نعتهم أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «همجٌ رعاع أتباع كل ناعق»، رواه عنه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقِّه»[2]، فهؤلاء إذا دعاهم المشركون والمبتدعون إلىٰ ضلالهم بشبهاتهم التي يُلقونها عليهم؛ وجب نصيحتهم بإبطال شبهات الضلال حتىٰ لا تُفسد دينهم.

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**الهَمَجُ**: البعوض، وبه يُشَبَّهُ دناة الناس وأراذلهم، **والرعاع**: المتبدِّدُ المتفرِّقُ، **والنَّاعِقُ**: الصَّائِحُ، وهو في هذا الموضع:

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٧٨).

(٢) «الفقيه والمتفقِّه» (١/ ١٨٢، ١٨٣)، وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديث من أحسن الأحاديث مَعْنًىٰ، وأشرفها»، «الفقيه والمتفقِّه» (١/ ١٨٤). وقال الحافظ ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو حديث مشهور عند أهل العلم، يستغنىٰ عن الإسناد لشهرته عندهم»، «جامع بيان العلم وفضله» (ص٤٤٣).

(٣) الفقيه والمتفقِّه (١/ ١٨٦).

الرَّاعِي، يُقال: نعَقَ الراعي بالغنم يَنْعِق: إذا صاحَ بها، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: «أتباع كل ناعق»، أي: مَنْ صاحَ بهم ودعاهم تبعوه، سواء دعاهم إلىٰ هدًىٰ أو إلىٰ ضلال؛ فإنهم لا علم لهم بالذي يُدْعَونَ إليه؛ أحقٌّ هو أم باطل؛ فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء من أضرِّ الخلق علىٰ الأديان؛ فإنهم الأكثرون عددًا، الأقلون عند الله قدرًا، وهم حطبُ كلِّ فتنة، بهم تُوقدُ ويُشبُّ ضِرَامُها؛ فإنَّما يعتزلها أولو الدين، ويتولاها الهَمَج الرعاع».

وقال ابن القيِّم أيضًا[(٢)]: «عقول هؤلاء تميلُ مع كلِّ هوًىٰ، وكلِّ داعٍ».

وطبقات النَّاس باعتبار ورود الشُّبهات عليهم تكون بحسب ما أوتوه من العلم، ومن أوتي علم القرآن واهتدىٰ بنوره؛ كان له فرقانًا يُميِّز به بين الحقِّ والباطل.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الشُّبَه الباطلة والمقالات الفاسدة تختلف نتائجها وثمراتها باختلاف الناس؛ فتُحدث لأناس الجهل والضلال، ولأناس الشكَّ والارتياب، ولأناس زيادة العلم واليقين.

أمَّا الذين تلتبس عليهم ويعتقدونها علىٰ عِلَّاتها، أو يقلِّدون فيها غيرهم من غير معرفة بها، بل يأخذونها مسلَّمةً؛ فهؤلاء يضِلُّون ويبقون في جهلهم يعمهون،

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٣٥٩).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٣٦٠).

(٣) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٢٢٩).

وهم يظنون أنهم يعلمون ويتبعون الحقَّ، وما أكثر هذا الصنف! فدهماء أهل الباطل كلُّهم من هذا الباب؛ ضُلَّال مقلِّدون.

وأمَّا الذين تُحدث لهم الشكَّ؛ فهم الحذاق ممن عرف الشُّبَه، وميَّز ما هي عليه من التناقض والفساد، ولم يكن عنده من البصيرة في الحقِّ ما يرجع إليه؛ فإنهم يبقون في شكٍّ واضطراب، يرون فسادها وتناقضها ولا يدرون أين يُوجهون.

وأمَّا الذين عندهم بصيرة وعلم بالحقِّ؛ فهؤلاء يزدادون علمًا ويقينًا وبصيرةً؛ إذا رأوا ما عارض الحقَّ من الشُّبَه، واتضح لهم فسادها، ورأوا الحقَّ محكمًا منتظمًا، فإن الضِّدَّ يظهر حسنه بضده؛ ولهذا كانت معارضات أعداء الرسل للرسل وأتباعهم من أهل العلم والبصيرة لا تزيد أهل الحق إلا يقينًا وبصيرة».

❁ ❁ ❁

فرض كفاية

رد الباطل وكشف شبهات الضلال خصوصًا ما كان في الشرك والبدع هو من الجهاد العلمي وهو فرض كفاية.

ومن شكر الله الواجب عليك أيُّها المسلم في حق التوحيد الذي أنعم الله به عليك وضلَّ عنه كثير من الخلق؛ تعليم هذا التوحيد والدعوة والهداية إليه.

وما أعظم معرفة السلف لقدر هذه النعمة، وقيامهم بالتحدث بها وشكرها، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ما أنعم الله علىٰ العباد نعمة أفضل من أَنْ عرَّفهم «لا إله إلا الله»».

والمسلم يجب عليه أن يتواصىٰ مع المسلمين بالحقِّ، يُعلِّمهم إياه، ويدعو إليه، وينصره، ويدفع عنه من قصد إبطاله، هذا من دفع الفساد عن دين الله وشرعه، وعن المسلمين وديارهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الله تعالىٰ أخبر فيها أنَّ جميع الناس خاسرون، إلَّا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا، ومع غيره موصيًا بالحق

(١) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

موصيًا بالصبر».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّه سبحانه قسَّم نوع الإنسان فيها قسمين؛ خاسًرا ورابحًا، فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضًا، فتضمنت السورة النصيحتين، والتكميلين، وغاية كمال القوتين، بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه، وأحسنه ديباجةً، وألطفه موقعًا.

أمَّا النصيحتان: فنصيحة العبد نفسه، ونصيحته أخاه، بالوصية بالحق والصبر عليه.

وأمَّا التكميلان: فهو لتكميله نفسه، وتكميله أخاه.

وأمَّا كمال القوتين: فإن النفس لها قوتان: قوة العلم والنظر، وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب، وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر.

فصار هاهنا ستة أمور: ثلاثة يفعلها في نفسه، ويأمر بها غيره: تكميل قوته العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام علىٰ ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره بهذه الثلاثة، فيكون مؤتمرًا بها آمرًا بها متَّصفًا بها، معلِّمًا لها، داعيًا إليها؛ فهذا هو الرابح كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه وحصل له نوع من الخسران، والله المستعان وعليه التُّكلان».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

---

(١) بدائع التفسير (٥/ ٣٢٧، ٣٢٨).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من جادل الخصم بحجج صحيحة دلَّ عليها النصُّ أو الإجماع؛ فهو محسن إن صلحت نيَّته، وذلك من فروض الكفايات».

فتعلم العلم وتعليمه فرض كفاية، وهو من أفضل الطاعات، وتعلم التوحيد وتعليمه أوجب الواجبات، وهو أفضل العلوم وأحقها بالفهم والتعليم، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ندب تعالىٰ المؤمنين إلىٰ التفقه في الدين، وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم، وهو التعليم».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «العلماء رجوم لشياطين الإنس الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرفَ القول غرورًا، فالعلماء رجوم لهذا الصِّنف من الشَّياطين ولولاهم لطُمست معالمُ الدِّين بتلبيس المضلِّين ولكنَّ الله سبحانه أقامهم حُرَّاسًا وحفظةً لدينه، ورجومًا لأعدائه وأعداء رسله».

وشهادة المسلم أن «لا إله إلا الله» توجب عليه أن يشهد بها أمام الخلق بما تدل عليه من توحيد الله ونفي الشرك عنه، قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «هذا يدل علىٰ شدة ارتباط شهادتهم بشهادته،

---

(١) جزء في التمسُّك بالسُّنن (ص٣٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٨).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩).

فكأنَّه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد علىٰ ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

إنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به، فثبت الحق المشهود به».

فالعلماء شهداء علىٰ كتاب الله، ودعاة إليه، وأئمة في حفظه من التغيير والتبديل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: بسبب أنَّ الله استحفظهم علىٰ كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم؛ أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه.

وهم شهداء عليه بحيث إنَّهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه علىٰ الناس منه».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢١١).

القرآن كُلُّه في التوحيد لا تُبطل معانيه الشبهات

المحاجُّ عن الشرك ساعٍ في إبطال معاني القرآن، وأنَّىٰ له ذلك، فقد تكفل الله بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهذا عام لألفاظه ومعانيه.

والله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، والتوحيد دين الله الخالص، وهو الحق الذي يُظهره الله، فنور الوحي وكلمات الله تبطل شبهات المشركين التي هي من وساوس الشَّياطين وضلالات المبطلين.

فالشأن في تدبر القرآن، والاهتداء به، ووزن كل كلام ومن ذلك شبهات المشركين بميزان العدل والحق والفرقان، فيظهر بالقرآن بطلان كل قول ضال، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فمن تدبَّر القرآن وجعله إمامًا له يهتدي به عرف ضلال كل مخالف له.

وحجج الله في القرآن أقوم الحجج وأوضحها، وبلاغة القرآن بألفاظه ومعانيه لا يوازيها أي كلام آخر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

ودعوة المرسلين التي بُعثوا بها، ووحي الله الذي أوحاه إليهم هو في التوحيد، وبيان حق الله الخالص، والقرآن كله في هذا المعنىٰ، فمن ضل عنه فلضلاله عن الاهتداء به، ولجعله شبهات المشركين حاكمة علىٰ كتاب الله، ومن جعل كتاب الله حاكمًا علىٰ ما سواه هُدي لمعانيه خصوصًا أهمَّها وزبدتها توحيد الله.

وما ضل من ضل عن معاني القرآن إلا لجعله هواه حاكمًا عليه، يُحرِّفه عن دلالاته ومعانيه، ويُسلِّط عليه آراء المبتدعين وشبهات المشركين فيزيغ عن معانيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ المعاني المفهومة من الكتاب والسنَّة لا تُردُّ بالشبهات، فيكون ردُّها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولا يُترك تدبّرها ومعرفتها، فيكون ذلك مشابهةً للذين إذا ذُكروا بآيات ربِّهم خروا عليها صمًّا وعميانًا.

ولا يُقال: هي ألفاظ لا تُعقل معانيها ولا يُعرف المراد منها؛ فيكون ذلك مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل هي آيات بيِّنات دالة علىٰ أشرف المعاني وأجلِّها».

ولو لم يكن من الدلائل علىٰ توحيد الله إلا التفكر في معاني أسماء الله الحسنىٰ وآثار صفاته؛ لكفىٰ بذلك سببًا لنفي الأنداد عنه، كيف وكل شيء يدل علىٰ أنه واحد، وكان من أول ما أوحىٰ الله إلىٰ رسوله محمد ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٩).

قال العلامة أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «في ابتدائه بإنزال هؤلاء الآيات عليه تنبيه علىٰ النظر والفكر المؤديين إلىٰ علم التوحيد».

وتفكُّر الإنسان في خلقه فضلًا عن خلق السَّموات والأرض من أعظم ما يدلُّ علىٰ توحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أقرب شيء إلىٰ الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة علىٰ عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف علىٰ بعضه، وهو غافل عنه، معرضٌ عن التفكُّر فيه، ولو فكَّر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خَلْقِها عن كُفْرِه، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]».

وحسبنا هنا أن نتذاكر بعضًا من كمال علم الله وقدرته وكمال خلقه في خلق الإنسان الدال علىٰ ربوبيته الموجبة لألوهيته وعبوديته وحده لا شريك له، مضغة القلب من الإنسان فيها دلالة علىٰ كمال ربنا، كيف اغتذىٰ الموحدون بعلم الشريعة الذي زاد من فطرتهم توحيدًا، فامتلأت قلوبهم من التأله لله وعبوديته وظهر أثر ذلك علىٰ جوارحهم كلها.

وقلب المشرك الكافر امتلأ من شبهات الشرك فأفسدت فطرته، فتألهت وجوارحه لغير الله، تعالىٰ الله عمَّا يشركون.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الْقلب فَهُوَ الْملك الْمُسْتَعْمل لجَمِيع آلَات

(١) شرح الحديث المقتفىٰ في مبعث النبي المصطفىٰ (ص ١٢٧، ١٢٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٥٢).

الْبدن، المستخدمُ لَهَا، فَهُوَ محفوف بِهَا محشود مخدوم مُسْتَقَرٌّ فِي الْوسط، وَهُوَ أشرف أعضاء الْبدن، وَبِه قِوامُ الْحَيَاة، وَهُوَ منبع الرُّوح الحيوانِيِّ والحرارة الغريزيَّة، وَهُوَ مَعْدنُ الْعقل وَالْعلم والحلم، والشجاعة وَالْكَرم وَالصَّبْر وَالِاحْتِمَال، وَالْحبِّ والإرادة، وَالرِّضَا وَالْغَضَب، وَسَائِر صِفَات الْكَمَال. فَجَمِيع الأعضاء الظَّاهِرَة والباطنة وقُواها إنَّما هِيَ جندٌ من أجناد الْقلب؛ فَإِن الْعين طليعته ورائده الَّذِي يكْشف لَهُ المرئيَّات، فَإِن رَأَتْ شَيْئًا أَدَّتهُ إليه، ولشدة الارتباط الَّذِي بَينهَا وَبَينه إِذا اسْتَقرَّ فِيهِ شَيْء ظهر فِيهَا؛ فَهِيَ مرآته المترجمة للنَّاظِر مَا فِيهِ، كَمَا أن اللِّسَان ترْجمانه الْمُؤَدِّي للسَّمع مَا فِيهِ».

وقال فرعون محاجًّا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، فأجابه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالجواب الباهر الدال علىٰ كمال الله الموجب لتوحيده وحده: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فالله عَزَّ وَجَلَّ هَدَىٰ كلَّ مخلوق من حيوان وإنسان إلىٰ معرفة ما ينفعه وما يضره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سُبْحَانَهُ، والإقرارَ بِهِ، وَيسَّر عَلَيْهِ طرق هَذِه الْمعرفَة، فَلَيْسَ فِي الْعُلُوم مَا هُوَ أجلُّ مِنْهَا، وَلَا أظهر عِنْد الْعقل والفطرة، وَلَيْسَ فِي طرق الْعُلُوم الَّتِي تُنَال بهَا أَكثر من طرقها، وَلَا أدلُّ وَلَا أبين وَلَا أوضح، فَكلُّ ما تَرَاهُ بِعَيْنِك أَوْ تسمعُه بأذنك أو تعْقِله بقلبك، وَكلُّ ما يخْطر ببالك، وَكلُّ ما نالته حاسَّةٌ من حواسِّك؛ فَهُوَ دَلِيل علىٰ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٧٩٦).

فطرق الْعلم بالصَّانع فطريَّةٌ ضَرُورِيَّة، لَيْسَ فِي الْعُلُوم أجلُّ مِنْهَا، وكلُّ مَا اسْتُدِلَّ بِهِ علىٰ الصَّانِع فالعلم بِوُجُودِهِ أظهرُ مِن دلَالَته، وَلِهَذَا قَالَت الرُّسُل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فخاطبوهم مُخَاطبَة من لَا يَنْبَغِي أن يخْطر لَهُ شكٌّ مَا فِي وجود الله سُبْحَانَهُ».

ومن أعظم ما يدلُّ علىٰ توحيد الله افتقار كل مخلوق إلىٰ هداية الله، هداية البيان للحقّ وذلك وحيه، وهداية التَّوفيق للحقّ وذلك بصرف القلوب إليه، فالله هو الهادي وحده للحقّ، وكل مخلوق مفتقر إلىٰ هدايته سبحانه.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ [يونس: ٣٥].

ودين الإسلام حقيقته إخلاص الوجه لله وحده لا شريك له، والإقبال علىٰ الله وحده قصدًا وإرادة وخضوعًا وعبوديةً، والإعراض عما سواه.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ [النساء: ١٢٥].

وأعظم ما أمر الله بالخضوع له وإسلام الوجه إليه هو دعاؤه، وحقيقة الإسلام والتوحيد الذي دعا إليه النبيون عليهم السلام وسيدهم محمد ﷺ دعاء الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: ٦٦]، فمن أسلم وجهه لغير الله وخضع له ودعاه فقد أشرك بالله الشرك الأكبر، ومن جهل هذا فمن

جهله بمعنىٰ التَّوحيد.

ومعرفة التوحيد تدفع الشرك وشبهاته وضلالاته وتلبيساته، قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا ريب أنَّ اتخاذ الشفعاء والتوجُّه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده».

فالذي فطرنا وخلقنا وتولانا هدايةً وحفظًا ونصرًا ورزقًا وتدبيرًا ويُحسن ثوابنا في دار كرامته؛ هو الواجب علينا عبادته وحده لا شريك له، ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ كَونه سُبْحَانَهُ فاطرًا لِعِبَادِهِ يَقْتَضِي عِبَادَتهم لَهُ، وَأَنَّ من كَانَ مفطورًا مخلوقًا فحقيق بِهِ أَن يعبُد فاطره وخالقه، وَلَا سِيَّمَا إِذا كَانَ مرُّده إِلَيْهِ، فمبدؤه مِنْهُ ومصيرُه إِلَيْهِ، وَهَذَا يُوجب عَلَيْهِ التفرُّغ لعبادته».

وقد هدىٰ الله عباده الموحِّدين فعبدوه مخلصين له الدين، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ما أبقت هذه الآية في قلب العبد نصيبًا لغير الله في كل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ من عبده ويرضاه».

فمن له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وإليه المعاد والحساب، ورزق كل مخلوق إليه، آخذ بناصيته؛ هو الذي يجب أن يُعبد.

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن برجيس (ص ١٦١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٧٩).

(٣) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن برجيس (ص ١٦١).

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

ومعاني القرآن كله في سورة الفاتحة التي انتظمت أنواع التوحيد كلِّه: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، ومن أعظم ما دلَّت عليه من وجوب إفراد الله بالعبودية تفرُّده بالملك، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٤، ٥]، فكيف صرف المشركون حق الله الخالص من عبادته إلىٰ مخلوق مملوك لله؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، يقول تعالىٰ ذكره: لا ينبغي أن يكون معبود سواه، ولا تصلح العبادة إلا له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، يقول تعالىٰ ذكره: فأنَّىٰ تصرفون أيُّها الناس فتذهبون عن عبادة ربكم، الذي هذه صفته، إلىٰ عبادة من لا ضر عنده ولا نفع؟!!».

وبيَّن العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما في الاستشفاع بالموتىٰ من الشرك المضاد لحقيقة التوحيد لله وإسلام الوجه والقصد له، فقال[(٢)]: «لا ذنب أعظم من أن يعتقد أحد أنَّه إذا دعا ميتًا أو غائبًا أو استشفع به أنه يشفع له، وقد أبطل الله هذا الزعم الكاذب في الآيات المحكمات وفي الآيات التي ذكر فيها الشفاعة، وبيَّن تعالىٰ الشفاعة المثبتة، ونفىٰ كل شفاعة فيها شرك تُطلب من غيره، كما تقدم من أنه شرك ينافي الإخلاص، والإخلاص هو دينه

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٦٧).

(٢) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن برجيس (ص ١٦٧).

الذي لا يرضىٰ من أحد دينًا سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: ٢، ٣]، ولا ريب أن الاستشفاع بالأموات يتضمن أنواعًا من العبادة: سؤال غير الله، وإنزال الحوائج به من دون الله، ورجاءه، والرغبة إليه، والإقبال عليه بالقلب والوجه والجوارح واللسان، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله».

ومن أعظم أسماء الله الحسنىٰ «الحليم»، ومن صفاته العلىٰ الدالة علىٰ كمال «الحلم»، والتي لابُدَّ من ذكرها في محاجة المشركين؛ حلم الله عن إزالة السموات والأرض بمن فيهن لكفر بني آدم وشركهم وسبِّهم الله، تعالىٰ عمَّا يُشركون، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾ [مريم: ٨٨-٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر سبحانه أنَّ حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فبالحلم أمسكهما، وإمساكهما أن تزولا بكفر بني آدم هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأنَّ السموات والأرض تهمُّ وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة

(١) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص ٥٣٦).

صبره تعالىٰ».

كل مخلوق مولود علىٰ الفطرة يرىٰ في نفسه وفي خلقه، وفي الأرض والسَّماء، ما يدلُّه علىٰ توحيد الله، تتعاضد فطرته وعقله الصريح مع نور الوحي في معرفة التوحيد وتحقيقه، إلَّا مَنِ اجتالته الشياطين فأفسدت مداركه وعلومه، فصار يعبد ويدعو من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع ولا ينصرُ، فما ضلَّ عن فرق ما بين الخالق والمخلوق إلَّا من عدل عن موالاة الله الرَّحمن، والاهتداء بنور وحيه، إلىٰ موالاة الشياطين من الإنس والجنِّ دعاة الشرك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

فالمشركون أضلَّهم الشَّيطان عن واضح المحجَّة من توحيد الله إلىٰ الشرك بالشبهات الضالَّةِ، وغرَّهم حيث زيَّن لهم شركهم وما كانوا يفترون.

هذا وعيد الشيطان ﴿لَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، فكونوا أيُّها المسلمون من أولياء الرحمن، ولا تكونوا من أولياء الشيطان.

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: عن الصِّراط المستقيم؛ ضلالًا في العلم، وضلالًا في العمل.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: مع الإضلال، لأمنينَّهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر علىٰ مجرد إضلالهم حتىٰ زيَّن لهم ما هم فيه من الضلال.

وهذا زيادة شرٍّ إلىٰ شرِّهم؛ حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنَّها موجبة للجنَّة، واعتبر ذلك باليهود والنصارىٰ ونحوهم؛ فإنَّهم كما

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٠٢).

حكىٰ الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]».

أنت أيُّها المخلوق خُلقت لعبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وخلق الله ما في الكون وسخَّره لك لتعرف باريك فتعبده وتستعمل ما خلق الله في عبادته وما يرضيه، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السموات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب، والثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معدٌّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٣].

وجملة ذلك: أنَّ خلقها وتدبيرها وتسخيرها دالٌّ علىٰ نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دالٌّ علىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٢٤).

كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دالٌّ علىٰ سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل علىٰ أنه الفعَّال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل علىٰ سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال علىٰ أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأنَّ رسله صادقون فيما جاءوا به؛ فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًّا».

فمن خلق لنا ما في السماء والأرض، ويورثنا الجنة؛ حقُّه شكره بعبادته وتوحيده، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قال ابن القيم[١]: «ذكر سبحانه أمرهم بعبادته، وذكر اسمَ الربِّ مضافًا إليهم لمقتضىٰ عبوديَّتهم لربهم ومالكهم، ثمَّ ذكر ضروب إنعامه عليهم: بإيجادهم وبإيجاد من قبلهم، وجعل الأرض فراشًا لهم يمكنُهم الاستقرار عليها، والبناء والسُّكنىٰ، وجعل السَّماء بناءً وسقفًا، فذكر أرض العالم وسقفه، ثم ذكر إنزال مادَّة أقواتهم ولباسهم وثمارهم، منبِّهًا بهذا علىٰ استقرار حُسْن عبادة من هذا شأنه وتشكره الفطرُ والعقول، وقبح الإشراك به وعبادة غيره».

وانظر إلىٰ عظمة مخلوقات الله التي تدل علىٰ عظمة خالقها، والمنافع التي جعلها فيها لمصلحة العباد، فانظر إلىٰ الشمس كيف تجري بأمر الله وهي مخلوق

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٧٩).

عظيم، وتذهب إلىٰ ربها فتسجد له في كل يوم، فمن يستنكف عن عبادة الله إلا شقي.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشَّمس، فقال ﷺ: «**يا أبا ذرٍّ! أتدري أين تغرب الشمس؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنَّها تذهبُ حتىٰ تَسْجُدَ تحت العرش، فذلك قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]»، رواه البخاري ومسلم.

وبغروب الشمس وطلوعها يتعاقب الليل والنهار، وفي ذلك منافع عظيمة للخلق كلهم، وقد ذكّرنا الله بهذه النعمة سبحانه فقال: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مِن آياته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: اللَّيْل وَالنَّهار، وهما من أعْجَبِ آياته، وبدائع مصنوعاته؛ وَلِهَذَا يُعِيد ذكرهمَا فِي الْقُرْآن ويبديه؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وَقَوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾ [الفرقان: ٤٧]، وَقَوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وَقَوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [غافر: ٦١]. وَهَذَا كثير

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٧٨، ٥٧٩).

فِي الْقُرْآن، فَانْظُر إِلىٰ هَاتين الآيتين وَمَا تضمَّنتاه من العبرة والدَّلالة علىٰ ربوبيَّة الله وحكمته: كَيفَ جعل اللَّيْل سكنًا ولِبَاسًا، يغشىٰ الْعَالم فتسكن فِيهِ الحركات وتأوي الْحَيَوَانَات إِلىٰ بيوتها، وَالطَّيْرُ إِلىٰ أوكارها، وتستجمُّ فِيهِ النُّفُوس وتستريح من كدِّ السَّعْي والتَّعب، حَتَّىٰ إِذا أخذت مِنْهُ النُّفُوس راحتها وسُباتها، وتطلَّعت إِلىٰ معايشها وتصرُّفها؛ جَاءَ فالق الإصباح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالنَّهَارِ يقدُمُ جَيْشه بشير الصَّباح، فَهزمَ تِلْكَ الظلمَة ومزَّقها كلَّ ممزَّق، وأزالها وكشفها عَن الْعَالم فَإِذا هم مبصرون، فانتشر الْحَيَوَان وَتصرَّف فِي معاشه ومصالحه وَخرجت الطُّيُور من أوكارها».

وتعاقب الليل والنهار في اليوم والليلة، وطلوع الشمس في كل يوم من المشرق في نظام محكم؛ من آيات الله الدالة علىٰ ربوبيته الموجبة لألوهيته وعبوديته وحده، قال الخليل إبراهيم للنمرود: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفي آيات الليل والنهار ما يوجب عبادة الله وشكره علىٰ نعمه، ولذلك أوجب الله علينا الصلاة في خمسة أوقات في اليوم والليلة حيث يتعاقب الليل والنهار، ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، فهذه الآية فيها حثٌّ علىٰ تدبر آيات الله العظيمة لشكره بالتوحيد والعبادة له.

ومن أعظم وأكثر أنواع الشرك الذي ابتُلي به الناس في عصرنا هذا؛ هو دعاء

المخلوقين والاستغاثة بهم وسؤالهم ما لا يقدر عليه إلا الله من الرزق والنصر والعافية والذرية، وقد حثَّ الله عباده علىٰ سؤاله وحده ووعدهم بالإجابة، ونهاهم عن دعاء غيره والالتجاء إليه.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

قال العلامة محمد بن عليٍّ الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله سبحانه قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحقُّ، وما يبدَّل القول لديه، ولا يخلف الميعاد.

ثمَّ صرَّح سبحانه بأنَّ هذا الدُّعاء باعتبار معناه الحقيقيِّ وهو الطَّلب هو من عبادته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ذليلين صاغرين، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطفٌ بعباده عظيمٌ وإحسانٌ إليهم جليلٌ، حيث توعَّد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشَّرِّ به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة.

فيا عباد الله، وجِّهوا رغباتكم وعوِّلوا في كلِّ طلباتكم علىٰ من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلىٰ التَّعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطِّلبة، فهو الكريم المطلق الَّذي يجيب دعوة الدَّاعي إذا دعاه، ويغضب علىٰ من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدُّنيا والدِّين».

❁ ❁ ❁

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٩٨).

الشرك والباطل
لا يقوم عليه دليل صحيح

الشرك أغلظ الباطل، وأعظمه منافاة للعلم الصحيح، ولا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وما شبهات المشركين إلا جدال بغير علم، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج: ٨]، وإنَّما راجت هذه الشبهات علىٰ بعض الجهال لنقص علمهم بمعاني القرآن والسنة، وتقليدًا للآباء، وتحسينًا للظن بالأئمة المضلين دعاة الشرك.

وقد قام دعاة الشرك بزخرفة شركهم في قالب موالاة الصالحين وتوقيرهم، فراج هذا الزخرف وراجت هذه البهرجة علىٰ من لم يتأمل ما فيها من الباطل، قال تعالىٰ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لَا رَيْبَ أَنَّ الْبَاطِلَ لَا يَقُومُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ لَا عَقْلِيٌّ وَلَا شَرْعِيٌّ؛ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْخَبَرِيَّاتِ أَوِ الطَّلَبِيَّاتِ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ الصَّحِيحَ يَسْتَلْزِمُ صِحَّةَ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ.

فَلَوْ قَامَ عَلَىٰ الْبَاطِلِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ حَقًّا مَعَ كَوْنِهِ بَاطِلًا، وَذَلِكَ جَمْعٌ

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٣/ ٢٦٠).

بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ؛ مِثْلَ كَوْنِ الشَّيْءِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا».

والمحاجة إن لم تستند إلىٰ دليل صحيح يستلزم المدلول، وإلا كانت مغالطة وسفسطة وجهل ومراء، وشغب، وهذا هو شأن شبهات المشركين.

قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يمكن أن يأتوا ببرهان».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره، بلا بيِّنة من أمره ولا برهان يدلُّ علىٰ ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان علىٰ ذلك، بل دلَّت البراهين علىٰ بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلمًا وعنادًا؛ فهذا سيقدم علىٰ ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئًا؛ لأنَّه كافر، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فكفرهم منعهم من الفلاح».

وجدال المشركين عن شركهم سفسطة ومكابرة ومغالطة في الحق، فالنمرود جعل نفسه ربًّا مع الله فناظره الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقطعه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ

---

(١) تفسير سورة النمل (ص ٣٨١).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص ٥٩٠).

ﭐلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا أحد يستطيع بدء الخلق وإعادته أبدًا إلَّا الله، والذي قال لإبراهيم: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] جوابه أنَّ هذا يفعل السَّبَب، وأما أن يُحْيي فيجعل الحياة في ميِّت فلا يستطيع، أو يميت فيُخرج النفس من البدن فلا يستطيع».

والنمرود نفسه خلقه الله من عدم وأماته، والله هو الذي جعل له أسباب أفعاله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فكل من جادل عن الشرك فهو مسفسط مكابر.

قال العلامة أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي (ت٤٩٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لو فتشت كتب المبتدعة، ومن خالف ما كان عليه الأئمة المهديون، وما درج عليه السلف الصالح والمؤمنون؛ لم تجد فيها آيةً من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ تدل علىٰ ما ابتدعوه، ولا سنة عن رسول الله ﷺ تشهد بما انتحلوه، وإن أصبت ذلك نادرًا فبتحريف عن الحقِّ وضعوه، وتأويل فاسد اعتمدوه، تغطيةً علىٰ أتباعهم وتزيينًا لأهوائهم».

وتوضيحًا لزيف شبهات المشركين من الاستدلال بغير الصَّحيح، والاستدلال بما لا يدلّ عليه النصّ الصَّحيح، والمحاجَّة بأقوال الأئمَّة المضلِّين، أذكر لكل

---

(١) تفسير سورة النمل (ص ٣٨١).

(٢) مختصر الحُجَّة علىٰ تارك المحجَّة (٢/ ١٠٢٥).

نوع منه مثالًا يتضح به المقال:

النوع الأول: المرويات المكذوبة علىٰ النبي ﷺ، كالذي يستدلون به من الموضوع المفترىٰ علىٰ النبي ﷺ: «لو أحسن أحدكم ظنَّه بحجر لنفعه».

النوع الثاني: الأخذ بأكاذيب الأئمة المضلين كقول الشعراني: «إنَّ الله وكل بقبر كل ولي ملكًا يقضي حاجة من سأل ذلك الوليَّ».

ومثال النوع الثالث: استدلال المستغيثين بالنبيّ ﷺ بعد وفاته بحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**ما من رجلٍ يُسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أَرُدَّ عليه السلام**»، رواه أبو داود.

فالحديث لا يدلُّ إلا علىٰ حياة النبيِّ ﷺ البرزخية التي تجعله يرد السلام، وليس في شيء من ألفاظ هذا الحديث ولا سائر الأحاديث ولا نصوص القرآن أنه ﷺ يقضي حاجات الخلق وهو في البرزخ، فقضاء الحاجات من خصائص الربوبية، ومن دعا مخلوقًا في برزخه ليقضي حاجاته فقد أشرك في الربوبية والألوهية.

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «رد الروح إلىٰ البدن، وعودها إلىٰ الجسد بعد الموت لا يقتضي استمرارها فيه، ولا يستلزم حياة أخرىٰ قبل يوم النشور، نظير الحياة المعهودة، بل إعادة الروح إلىٰ الجسد في البرزخ إعادة برزخية لا تزيل عن الميِّت اسم الموت».

ومن أمثلة النوع الثالث: استدلال من يشدُّ الرحال إلىٰ القبور بقول النبيِّ ﷺ: «**لا تشدُّ الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد**»، وهذا لا يدل علىٰ شد الرحال

(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص٦٢١، ٦٢٢).

للقبور حيث تخلف الدليل عن المدلول، وإنَّما علىٰ جواز شدِّ الرِّحال للمساجد الثَّلاثة فقط.

وبهذا يتبيَّن أن شرك المستغيثين بالموتىٰ مبنيٌّ علىٰ الكذب والافتراء وأقوال الأئمَّة المضلِّين.

وعقيدة المسلم تتأسَّس علىٰ معنىٰ ما في القرآن، وصحيح ما يُروىٰ عن النَّبيِّ ﷺ، هذا منهج النَّاصح لنفسه.

والشِّرك والبدع مبناها علىٰ الكذب وعلىٰ ما لا يصحُّ من الرِّوايات، وعلىٰ الأفهام المغلوطة للرِّوايات الصَّحيحة التي لا تدلُّ علىٰ الشِّرك ولا البدع ولا تهدي إليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مرويَّات شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور ودعاء الموتىٰ[١]: «عمدتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمَّن لا يُحتجُّ بقوله؛ إمَّا أن يكون كذبًا عليه، وإمَّا أن يكون غلطًا منه؛ إذ هي نقل غير مصدَّق عن قائل غير معصوم.

وإن اعتصموا بشيء ممَّا ثبت عن الرسول ﷺ؛ حَرَّفوا الكلم عن مواضعه، وتمسكوا بمتشابهه، وتركوا محكمه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن المرويَّات في زيارة قبر النَّبي ﷺ خاصَّة[٢]: «كل حديث روي في زيارة قبره ﷺ فإنَّه ضعيف، بل كذب موضوع».

---

(١) الرَّدُّ علىٰ البكري (٢/ ٥٨٧).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٨١).

ولا يخفىٰ علىٰ طلبة العلم إجماع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عهد الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ إخفاء قبر النَّبي أو الصَّالح دانيال، وهذا كُلُّه يفيدك أنَّ شدَّ الرِّحال إلىٰ قبور الأنبياء والصَّالحين ليس من عقيدة السَّابقين الأوَّلين، الذين أخذوا العقيدة والفقه عن رسول الله ﷺ مباشرةً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إن معرفة هذه القبور لم تكن من الدِّين؛ فإن أصحابها يُترحَّم عليهم، ويدعىٰ لهم إذا ذُكروا، وإن لم تُعرف قبورهم، والذين يقصدون قبورهم إنما يقصدونها للشرك واتخاذها مساجد، وأوثانًا؛ فلا يقصدونها لما أمر الله به ورسوله ﷺ، بل لما نُهي عنه؛ فلذلك عمَّىٰ الله أخبارها، فلا يكاد يصحُّ منها إلا ما شاء الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «لم يثبت عن النبي ﷺ حديث واحد في زيارة قبر مخصوص، ولا روىٰ في ذلك شيئًا لا أهل الصحاح، ولا أهل السنن، ولا الأئمَّة المصنِّفون في المسند؛ كالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره، وإنما روىٰ ذلك من جمع الموضوع وغيره.

وأجلُّ حديث روي في ذلك ما رواه الدارقطني وهو ضعيف باتفاق أهل العلم، بل الأحاديث المروية في زيارة قبره؛ كقوله: «من زارني وزار أبي إبراهيم الخليل في عام واحد؛ ضمنت له علىٰ الله الجنة»، و«من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»، و«من حج ولم يزرني فقد جفاني»، ونحو هذه الأحاديث؛ كلها

---

(١) قاعدة عظيمة (ص١٠٦).

(٢) بواسطة الصَّارم المنكي في الردِّ علىٰ السبكي (ص٧٣٤، ٧٣٥).

مكذوبة موضوعة».

وما ميل المشركين عن الأخذ بالأحاديث الصَّحيحة الكثيرة في النَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد إلىٰ المرويَّات المكذوبة والموضوعة في ذلك؛ إلَّا كميلهم عن دعاء الله إلىٰ دعاء المخلوقين، صرفوا قلوبهم عن الاعتقاد الصَّحيح والأحاديث الصَّحيحة إلىٰ الشِّرك والكذب؛ ذلك بأنَّهم قوم لا يفقهون.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ففي «صحيح مسلم» عن جُندَب بن عبد الله البَجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إنِّي أبرأُ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإنَّ الله تعالىٰ قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت مُتخذًا من أُمَّتي خليلًا لاتَّخذتُ أبا بكر خليلًا، ألا وإن مَنْ كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإنِّي أنهاكم عن ذلك**».

وعن عائشة وعبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِقَ يَطرحُ خَمِيصةً له علىٰ وجهه، فإذا اغْتَمَّ كشفها، فقال - وهو كذلك -: «**لعنةُ الله علىٰ اليهود والنصارىٰ! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»؛ يُحذِّر ما صنعوا. متَّفق عليه. وفي «الصحيحين» أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتَل اللهُ اليهودَ! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

وفي رواية مسلم: «لعن الله اليهود والنصارىٰ! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

فقد نهىٰ عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنَّه لعن - وهو في السياق -

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٣٥٠-٣٥٣).

مَنْ فعل ذلك من أهل الكتاب؛ ليُحذِّر أمته أن يفعلوا ذلك.

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يَقُمْ منه: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، ولولا ذلك لأُبْرِزَ قبْرُهُ؛ غير أنه خُشي أن يُتَّخذَ مسجدًا. متفق عليه.

وقولها: «خُشِيَ» هو بضم الخاء؛ تعليلًا لمنع إبراز قبره.

وروىٰ الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد جيِّد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ مِن شِرار الناس مَنْ تُدرِكهم الساعة وهم أحياءٌ، والذين يتَّخذون القبور مساجد**».

وعن زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله اليهود! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». رواه الإمام أحمد.

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **قال**: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن.

وفي «صحيح البخاري»: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رأىٰ أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يصلِّي عند قبر، فقال: القبْرَ، القبْرَ.

وهذا يدلُّ علىٰ أنه كان من المُسْتَقرِّ عند الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: ما نهاهم عنه نبيُّهم من الصلاة عند القبور، وفعلُ أنس لا يدلُّ علىٰ اعتقاد جوازه؛ فإنه لعله لم يَرَهُ، أو لم يعلم أنه قبر، فلما نبَّهه عمر تنبَّه.

وقال أبو سعيد الخدري - رضي الله تعالىٰ عنه -: قال رسول الله ﷺ: «**الأرضُ كلُّها مسجد إلَّا المقبرة والحمَّام**». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن

الأربعة، وصحَّحه أبو حاتم بن حبان.

وأبلغ من هذا: أنه نهىٰ عن الصلاة إلىٰ القبر؛ فلا يكون القبر بين المصلِّي وبين القِبلة.

فروىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تجلسوا علىٰ القبور، ولا تصلُّوا إليها**».

وفي هذا إبطالُ قول مَن زعم أنَّ النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة؛ فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ، وهو باطل».

ومن تأمَّل مجموع الرِّوايات والأحاديث التي حشدها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، ومجموع نصوص القرآن والسُّنَّة الدالَّة علىٰ تجريد العبادة لله وحده لا شريك له، ومن أجلِّ ذلك دعاؤه، واستذكر نهي النَّبي ﷺ في أوَّل الأمر عن زيارة القبور، واستذكر نهي النَّبي ﷺ المحكم إلىٰ وفاته عن اتِّخاذ القبور مساجد؛ عَلم ضَلَال مَن ضادَّ أمر الله في توحيده وعبادته؛ كالذين شدُّوا الرِّحال إلىٰ القبور واتَّخذوها مساجد.

ومن علم سنَّة النَّبي ﷺ الفعليَّة، وسيرته في أسفاره هو وأصحابه؛ علم أنَّهم ما كانوا يسافرون إلىٰ القبور، ولا يشدُّون الرِّحال إليها، وإنَّما كانت أسفارهم في الحجِّ والعمرة والجهاد، علم ضلال من جعل نسكه شدَّ الرِّحال إلىٰ القبور.

والنبيُّ ﷺ عَلَّم أمَّته المشروع من العبادات والأعمال في دفن الموتىٰ وزيارة المقابر؛ فعلَّمهم الصَّلاة علىٰ الميِّت، والدُّعاء له بالتَّثبيت بعد دفنه، والدُّعاء للموتىٰ، والاستغفار لمن زار مقابرهم، من غير سفر؛ كما فعل ﷺ في دعائه

لموتىٰ البقيع وشهداء أحد؛ قال الحافظ محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «زيارة القبور للدُّعاء للميت من جنس الصَّلاة علىٰ الجنائز؛ يُقصد فيها الدُّعاء لهم، لا يُقصد فيها أن يدعو مخلوقًا من دون الله، ولا يجوز أن تتَّخذ مساجد، ولا تقصد لكون الدُّعاء عندها أو بها أفضل من الدُّعاء في المساجد والبيوت».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لم يكن علىٰ عهدهم في الإسلام قبر نبي يُسافَرُ إليه، ولا يُقصد للدعاء عنده، أو لطلب بركته، أو شفاعته، أو غير ذلك؛ بل أفضل الخلق خاتم الرسل محمَّد ﷺ، وقبره عندهم محجوب، لا يقصده أحد منهم لشيء من ذلك، وكذلك كان التابعون لهم بإحسان ومن بعدهم من أئمَّة المسلمين».

وشدُّ الرِّحال إلىٰ مسجد رسول الله ﷺ لعبادة الله وذكره، ليس شيء من ذلك يُشرع فعله عند قبر النبيِّ ﷺ، والسَّلام علىٰ النبيِّ ﷺ حاصل عند دخول المسجد والخروج منه، فيُكتفىٰ بذلك عن اتِّخاذ قبره ﷺ عيدًا ومسجدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أما إتيان القبر للسلام عليه؛ فقد استغنوا عنه بالسلام عليه في الصلاة وعند دخول المسجد والخروج منه. وفي إتيانه بعد الصلاة مرَّةً بعد مرَّةٍ ذريعةٌ إلىٰ أن يُتخذ عيدًا ووثنًا، وقد نهوا عن ذلك».

ومسجد قباء لم يُخصَّ من عموم قول النبي ﷺ: «لا تُشد الرِّحال إلَّا إلىٰ

---

(١) الصَّارم المنكي في الردِّ علىٰ السبكي (ص٨٢٢).

(٢) الإخنائيَّة (ص٢١٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤١٧، ٤١٨).

ثلاثة مساجد»، ولكن تُشرع زيارته لمن كان بالمدينة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مسجد قباء لم يُشرع السفر إليه، ولكن شُرع إتيانه من القرب، كما قال ﷺ: «**من تطهَّر في بيته ثم أتىٰ مسجد قباء لا يريد إلَّا الصَّلاة فيه؛ كان له كعمرة**»».

وقال شيخ الإسلام إيضًا[(٢)]: «إنَّما يُستحب إتيانه من قريب، مثل أن يكون بالمدينة فيذهب إليه، كما ثبت في الصَّحيح عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأتي قباءً كلَّ سبت راكبًا وماشيًا».

وإذا عرف المسلم المساجد الثَّلاثة التي تُشدُّ إليها الرِّحال؛ وجب عليه أن يعرف الأعمال والعبادات المشروعة في هذه المساجد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «السَّفر إلىٰ المسجد الحرام للحجِّ واجب، وإلىٰ كل واحد من الثَّلاثة سفر إلىٰ بيت الله الذي بناه نبيٌّ من أنبيائه لعبادته ودعائه».

فقوله ﷺ: «**لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد**» لابُدَّ أن يُفهم في ضوء المعنىٰ الذي أمر الله له ببناء المساجد، وهو عبادة الله ودعاؤه، لا دعاء المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «هذه المساجد شُرع السفر إليها

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٤٧).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٦٢).

(٣) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٧٤، ٧٥).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٣٢، ٣٣٣).

لعبادة الله فيها بالصلاة والقراءة والذكر والدعاء والاعتكاف، والمسجد الحرام مختصٌّ بالطواف لا يُطاف بغيره، وما سواه من المساجد إذا أتاها الإنسان وصلَّىٰ فيها من غير سفر؛ كان ذلك من أفضل الأعمال».

والنبيُّ ﷺ لم يُنشئ سفرًا لزيارة قبر أمه، بل كان في سفر عمرة، وفي رجوعه من العمرة إلىٰ المدينة استأذن ربَّه في زيارة قبرها؛ فأذن الله له في زيارة قبرها، ولم يأذن له في الاستغفار لها؛ لأنَّها ماتت علىٰ الشِّرك في الجاهليَّة، فلا يكون في ذلك دليل علىٰ شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور، فلا يصحُّ وضع الأدلَّة في غير مواضعها.

والنبيُّ ﷺ في زيارته لقبر أمِّه ذكر المعنىٰ الذي من أجله فعل ذلك، حيث قال: «**استأذنت ربِّي في أن أستغفر لها فلم يُؤْذَن لي، واستأذَنْته في أن أزور قبرها فأُذِنَ لي، فزوروا القبور؛ فإنَّها تُذَكِّرُ الموت**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالمعنىٰ الذي زار من أجله قبر أمِّه تذكُّر الآخرة، والاستغفار لها، ولم يؤذن له في ذلك، وهذا كما يدلُّ علىٰ ضلال من استدلَّ به علىٰ شدِّ الرِّحال للقبور؛ فإنَّه يدلُّ علىٰ فرق ما بين زيارة الموحِّدين للقبور لتذُّكر الآخرة والاستغفار للميِّت، وزيارة المشركين الذين يدعون الميِّت ويستغيثون به ويسألُونه قضاء الحوائج.

وزيارة قبر الكافر المعظَّم في قومه من أئمَّة الكفر لا تجوز، قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إذا خيف من زيارة قبر الكافر أن يكون في ذلك تعظيم له ولما هو عليه، ورفعة وعزَّة لأتباعه؛ فإنَّه لا يجوز، فلو أنَّ رئيسًا من رؤساء الكفرة أراد أحد من النَّاس أن يزوره اعتبارًا بحاله، كان بالأول مثلًا

---

(١) التَّعليق علىٰ صحيح مسلم (٤/ ٨٤١).

رئيسًا لدولة كبيرة، ويَعْتبر فلا بأس، لكن لو خيف أنّ ذلك يُتَّخذ دعايةً لما عليه هذا الرَّجُل من الكفر؛ فإنَّه لا يجوز».

والمقصود أن يفرِّق المسلم بين الأعمال التعبُّديَّة، والأماكن التي قصدها النبيُّ ﷺ بالتعبُّد؛ كمشاعر الحجِّ، والمواقع التي مرَّ بها سفرًا ومجاوزةً للطريق ولم يكن له قصد التعبُّد في فعله ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يتحرَّون متابعة النبي ﷺ والاقتداء به، فما فعله على وجه العبادة فعلوا كما فعل، وإذا خصَّ مكانًا أو زمانًا بالعبادة فيه خصُّوه هم أيضًا بالعبادة، كما كان يخصُّ مشاعر الحج - مثل عرفة ومزدلفة ومنًى - بما شُرع فيها من العبادة، وقد قال لهم: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» فكانوا يقصدون أن يفعلوا كفعله».

وقال شيخ الإسلام(٢): «وما فعله على وجه الاتفاق، مثل سيره في طريق، وصلاته فيه إذا نزل، وصبِّ ماء فضل معه في أصل تحت شجرة، وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يحبُّ أن يفعل كفعله، وأما أكثر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فلم يكونوا يقصدون ذلك؛ لأن المتابعة هي أن تفعل كما فعل على الوجه الذي فعل، فلا بد أن نشاركه في القصد والنيَّة، فإنما الأعمال بالنيَّات، فإذا قصد العبادة بالعمل، فقصدنا العبادة به؛ كنا مقتدين، متبعين، متأسين به، وأما إذا لم يقصد به العبادة، بل فعله على وجه الاتفاق لتيسُّره عليه، فإذا قصدنا العبادة به؛ لم نكن متَّبعين له».

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٤٧).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٤٨).

فالاتِّباع للنَّبيِّ ﷺ يكون في نوع القصد وصفة العمل التَّعبُّديِّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فما فعله علىٰ وجه التقرب كان عبادةً تُفعل علىٰ وجه التقرب، وما أعرض عنه ولم يفعله مع قيام السبب المقتضي لم يكن عبادةً ولا مستحبًّا، وما فعله علىٰ وجه الإباحة من غير قصد التعبد به كان مباحًا، ومن العلماء من يستحب مشابهته في هذا في الصورة كما كان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يفعل، وأكثرهم يقول: إنما تكون المتابعة إذا قصدنا ما قصد، وأما المشابهة في الصورة من غير مشاركة في القصد والنية؛ فلا تكون متابعة. فما فعله علىٰ غير العبادة فلا يُستحبُّ أن يُفعل علىٰ وجه العبادة؛ فإنَّ ذلك ليس بمتابعة، بل مخالفة».

وإذا انفرد صحابيٌّ عن عامَّة الصَّحابة، وأخطأ أو خالف الدَّليل من القرآن والسُّنَّة؛ كانت الحجَّة في نصوص القرآن والسُّنَّة التي وافقها واتَّبعها عامَّة الصَّحابة.

من ذلك أنَّ بعض الصَّحابة كان يجلس علىٰ القبر، وقد نهىٰ النبيُّ ﷺ عن الجلوس علىٰ القبر؛ عن عمرو بن حزم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: رآني رسول الله ﷺ متَّكئًا علىٰ قبر، فقال: «**لا تؤذِ صاحب هذا القبر**»، رواه أحمد[(٢)].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن المعلِّمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنَّنا متعبَّدون بظاهر ما بلغنا عن الشَّارع، لا نَدَعُهُ إلَّا إذا بلغنا عن الشَّارع ما يخالفه، وقول بعض الصَّحابة ليس قَوْلًا للشَّارع؛ فإنَّه قد يخفىٰ عليهم الدَّليل، فيجتهدون ويُخْطِئُون، مع أَنَّ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٢٢).

(٢) قال العلَّامة عبد الرَّحمن المعلِّمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بإسناد صحيح»، «عمارة القبور» (ص٢٧٠).

(٣) عمارة القبور (ص٢٧٢، ٢٧٣).

قَوْلَهُمْ معارض بقول غيرهم من الصَّحابة - كما مَرَّ -.

ولم يقل أحدٌ: إنَّ ذهاب بعض الصَّحابة إلىٰ حُكْم يوجب تأويل ما يخالفه ممَّا ثبتَ عن النبيِّ ﷺ».

وحجِّيَّة عمل الصَّحابي تكون فيما وافق فيه القرآن والسنَّة؛ لأنَّ قول الصَّحابيِّ متأخِّر الرُّتبة عن القرآن والسُّنَّة، واتِّفاق الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إجماع، والإجماع فرع عن دليل الكتاب والسنَّة، والأمَّة لا تجتمع علىٰ ضلالة، وحجِّيَّة إجماع الصَّحابة دلَّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وإذا تدبَّر المسلم معنىٰ قول النَّبي ﷺ: «**لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصىٰ**»، متَّفق عليه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مع استقراء سنَّة النَّبي ﷺ في أسفاره؛ فَهِم تحريم شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا بيان أنَّ السفر إلىٰ غير المساجد الثلاثة غير مشروع، كما اتفق علىٰ ذلك السلف والأئمَّة؛ فإنَّ قوله ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ**» استثناء مفرغ؛ فإما أن يكون التقدير: لا تشد إلىٰ مسجد إلا إلىٰ هذه الثلاثة، وإما أن يكون التقدير: لا تشد إلىٰ مكان مطلقًا من الأمكنة التي تُقصد، وتُعظَّم، ويُسافر لأجلها.

فأما السفر لتجارة، أو جهاد، أو طلب علم، أو زيارة أخ في الله، أو صلة

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٩٤).

رحم، أو نحو ذلك؛ فإنها لم تدخل في الحديث؛ لأن تلك لا يُقصد فيها مكان معين، بل المقصود ذلك المطلوب حيث كان صاحبه».

وفهم الصَّحابة يزيد تفسير الحديث وضوحًا؛ فإنَّ الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لم يكونوا يزورون الأماكن المعظَّمة ولا مواضع آثار الأنبياء، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «غار حراء الذي كان يتحنَّثُ فيه، وغار ثور الذي كان فيه هو ﷺ وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وغار المرسلات الذي نزلت عليه فيه «المرسلات»، ومثل منزله لما حاصر قريظة والنضير، ومثل طرقه في أسفاره؛ فلم يكن أحد من الصحابة يقصد زيارة هذه الأمكنة، ولا الصلاة فيها، والدُّعاء، وإذا لم يكونوا يفعلون هذا بالبقاع التي حلَّ بها أفضل الخلق؛ فهُمْ لغيرها أترك؛ فلم يكن أحد منهم يقصد شيئًا من البقاع لا بالشام ولا بغير الشام، إلا المساجد التي للصلاة، لا يقصدون بقعةً لكونها نزل بها إبراهيم، أو موسىٰ، أو عيسىٰ، لا بالبيت المقدس، ولا غيره، بل كانوا يسافرون لإتيان البيت المقدس».

وعمل الصَّحابة المعهود عن كافَّتهم عدمُ التعبُّد بشدِّ الرِّحال إلىٰ القبور، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «أمَّا السفر لأجل القبور فلا يُعرف عن أحد من الصحابة؛ بل ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كان يقدم إلىٰ بيت المقدس فلا يزور قبر الخليل. وكذلك أبوه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ومن معه من المهاجرين والأنصار قدموا إلىٰ بيت المقدس ولم يذهبوا إلىٰ قبر الخليل، وكذلك سائر الصحابة

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٤٩، ٥٠).

(٢) الإخنائيَّة (ص٢٨٢، ٢٨٣).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين كانوا ببيت المقدس وسائر الشام لم يُعرف عن أحد منهم أنَّه سافر إلىٰ قبر الخليل ولا غيره، كما لم يكونوا يسافرون إلىٰ المدينة لأجل القبر».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(١): «وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا ببيت المقدس وغيرها من أرض الشام؛ مثل معاذ بن جبل، وأبي عبيدة بن الجراح، وعبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، وغيرهم؛ لم يُعرف عن أحدٍ منهم أنَّه سافر لقبرٍ من القبور التي بالشام، لا قبر الخليل ولا غيره، كما لم يكونوا يسافرون إلىٰ المدينة لأجل القبر، وكذلك الصحابة الذين كانوا بالحجاز والعراق وسائر البلاد».

فالحاصل: أن سنَّة النَّبيِّ ﷺ القوليَّة والفعليَّة وإجماع الصَّحابة؛ دالَّان علىٰ عدم مشروعيَّة شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور، فضلًا عن المغارات والجبال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين سمعوا هذا الحديث - «**لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد**» - من الرسول ﷺ وغيرهم أدخلوا غير المساجد الثلاثة في النهي، ونهوا أن تُشدَّ الرحال إلىٰ الطور الذي كلَّم الله عليه موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع أن الله لم يعظِّم جبلًا في القرآن أعظم منه، وسماه الوادي المقدس والبقعة المباركة. فإذا كان مثل هذا الجبل لا تُشدُّ الرِّحال إليه فلأن لا تُشدُّ الرحال إلىٰ ما يعظم من الغيران، والجبال؛ مثل جبل لبنان وقاسيون ونحوهما بالشام، ومثل جبل الفتح ونحوه بصعيد مصر؛ بطريق الأولىٰ.

بل إذا كان الصحابة لم يكونوا يسافرون إلىٰ الطور ونحوه، بل ولا يزورون

---

(١) الإخنائيَّة (ص٢٨٤).

(٢) الإخنائيَّة (ص٣٤٦، ٣٤٧).

إذا قدموا مكة لا غار حراء الذي نزل فيه الوحي ابتداءً، ولا غار ثور المذكور في القرآن، الذي كان فيه النبيُّ ﷺ وصاحبه والله ثالثهما، وقال فيه النبيُّ ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والنبيُّ ﷺ بعد نزول الوحي عليه لم يقرب ذلك الغار ولا غيره مما بمكة إلا المسجد الحرام والمشاعر؛ فكذلك لما حجَّ إنما ذهب إلىٰ المسجد الحرام والمشاعر، وذلك لمَّا جاءه الوحي أمره الله بالصَّلاة في المساجد التي هي بيوته، ويذكره ويدعوه فيها».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(١): «لم يشرع الله تعالىٰ للمسلمين مكانًا يُقصد للصلاة إلَّا المسجد، ولا مكانًا يُقصد للعبادة إلا المشاعر، فمشاعر الحجِّ كعرفة ومزدلفة ومنًىٰ تُقصد بالذكر والدعاء والتكبير، لا الصلاة، بخلاف المساجد؛ فإنَّها هي التي تُقصد للصلاة، وما ثَمَّ مكان يُقصد بعينه إلا المساجد والمشاعر، وفيها الصلاة والنسك؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وما سوىٰ ذلك من البقاع فإنَّه لا يُستحبُّ قصد بقعة بعينها للصلاة، ولا الدعاء، ولا الذكر؛ إذ لم يأتِ في شرع الله ورسوله ﷺ قصدها لذلك، وإن كان مسكنًا لنبي أو منزلًا أو ممرًّا».

وهناك مرويَّات صحيحة في زيارة القبور لتذكُّر الآخرة، وللدُّعاء لموتىٰ المسلمين، ليس في شيء منها الرُّخصة في اتِّخاذ المقابر مساجد، بل ورد النَّهي عن ذلك في أحاديث في غاية الصحَّة، رواها البخاري ومسلم وغيرهما من

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٥٠٣، ٥٠٤).

أصحاب الصِّحاح.

قال العلَّامة محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية**(١): «النبيُّ ﷺ رخَّص في زيارة القبور مطلقًا بعد أن كان قد نهىٰ عنها، كما ثبت عنه في الصحيح أنَّه قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها**»، وفي الصحيح عنه أنَّه قال: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تُذكِّركُم الآخرة**»؛ فهذه زيارة لأجل تذكر الآخرة، ولهذا يجوز زيارة قبر الكافر لأجل ذلك. وكان النبي ﷺ يخرج إلىٰ البقيع فيُسلم علىٰ موتىٰ المسلمين ويدعو لهم؛ فهذه زيارة مختصَّة بالمسلمين، كما أن الصلاة علىٰ الجنازة تختصُّ بالمؤمنين».

فالالتفات عن نصوص القرآن والسنَّة الآمرة بإخلاص العبادة لله وحده - ومنها الدُّعاء - إلىٰ حديث: «**فزوروا القبور**» الذي لا يستلزم ولا يدلُّ علىٰ الشِّرك بالله بدعاء المخلوقين؛ تعطيلٌ لمعاني النُّصوص الصَّحيحة الصَّريحة المحكمة إلىٰ لا شيء ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النور: ٣٩].

قال الحافظ محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ النصوص التي صحَّت عنه ﷺ بالنهي عن تعظيم القبور بكلِّ نوع يؤدي إلىٰ الشرك ووسائله: من الصلاة عندها وإليها، واتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وشدِّ

---

(١) الصَّارم المنكي في الردِّ علىٰ السّبكي (ص٧٣٥، ٧٣٦).

(٢) الصارم المنكي (ص٨٥١).

الرحال إليها، وجعلها أعيادًا يُجتمَع لها كما يُجْتَمع للعيد، ونحو ذلك؛ صحيحة صريحة محكمة فيما دلَّت عليه، وقبور المعظَّمين مقصودة بذلك بالنصِّ والعلَّة، ولا ريب أن هذا من أعظم المحاذير، وهو أصل أسباب الشرك والفتنة به في العالم، فكيف يناقض هذا ويُعارض بإطلاق «**زوروا القبور**»، وبأحاديث لا يصحُّ شيء منها البتة في زيارة قبره، ولا يثبت منها خبر واحد».

والتَّعظيم لقبر النَّبي ﷺ يكون باتِّباعه في النَّهي عن اتِّخاذه وثنًا، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**اللَّهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضب الله علىٰ قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، رواه مالك؛ فتعظيم النبي ﷺ يكون باتِّباعه في ذلك. أمَّا التَّعظيم لقبر النبيِّ ﷺ الذي دعا إليه السّبكي؛ فهو الذي حذَّر منه رسول الله ﷺ أمَّته، ولعن فاعله، وأخبر بشدَّة غضب الله عليه؛ حيث قال: «**اشتدَّ غضب الله علىٰ قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقال: «**لعن الله اليهود والنَّصارىٰ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

قال الحافظ محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومعلوم قطعًا أنَّهم إنَّما فعلوا ذلك تعظيمًا لهم ولقبورهم؛ فعُلم أنَّ من التعظيم للقبور ما يلعن الله فاعله ويشتدُّ غضبه عليه».

وقال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن إيجاب زيارة قبره، أو استحبابها وشد الرحال إليه لأجل تعظيمه؛ يتضمَّن جعل القبر منسكًا

---

(١) الصَّارم المنكي في الردِّ علىٰ السّبكي (ص٨٤٣، ٨٤٤).

(٢) الصَّارم المنكي في الردِّ علىٰ السّبكي (ص٨٤١).

يحج إليه كما يحج إلىٰ البيت العتيق، كما يفعله عُبَّاد القبور، ولا سيما فإنهم يأتون عنده بنظير ما يأتي به الحاجُّ من الوقوف والدعاء والتضرُّع، وكثير منهم يطوف بالقبر ويستلمه ويُقبله ويتمسَّح به؛ فلم يبقَ عليه من أعمال المناسك إلا الحلق والنحر ورمي الجمار، فإيجاب الوسيلة إلىٰ هذا المحذور أو استحبابها؛ من أعظم الأمور منافاةً لما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ».

والتَّعظيم غير المشروع الذي دعا إليه السُّبكي؛ هو مخالف فيه لعلماء السَّلف أهل السُّنَّة والجماعة، وأولئك أعظم نصيحةً للأمَّة، وتعظيمًا للرَّسول ﷺ وحرصًا علىٰ اتِّباعه، وتجريدًا لتوحيد الله وقطع أسباب الشِّرك، من السُّبكي.

قال الحافظ محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن هذا الذي قصده عُبَّاد القبور من التعظيم؛ هو بعينه السبب الذي لأجله حرَّم رسول الله ﷺ اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، ولعن فاعل ذلك، ونهىٰ عن الصلاة إليها، وحرَّم اتخاذ قبره عيدًا، ودعا ربَّه أن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد، ولأجله نهىٰ فضلاء الأمَّة وساداتها عن ذلك، ولأجله أمر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بتعفية قبر دانيال عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لما ظهر في زمان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولأجله منع مالك رَحِمَهُٱللَّهُ مَن نذر إتيان المدينة وأراد القبر أن يوفي بنذره، ولأجله كره الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ أن يعظَّم قبر مخلوق حتىٰ يُجعل مسجدًا؛ كما قال: وأكره أن يعظَّم مخلوق حتىٰ يجعل قبره مسجدًا. ولأجله كره مالك أن يقول القائل: زرت قبر النبي ﷺ. لما يوهم هذا اللفظ من أنه قصد المدينة لأجل زيارة القبر.

(١) الصَّارم المنكي في الردِّ علىٰ السّبكي (ص٨٤١، ٨٤٢).

ولما فيه من تعظيم القبر بإضافة الزيارة إليه، مع كونه أعظم القبور علىٰ الإطلاق وأجلَّها، وأشرف قبر علىٰ وجه الأرض؛ فالفتنة بتعظيمه أقرب من الفتنة بتعظيم غيره من القبور؛ فحمىٰ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذريعة حتىٰ في اللفظ، ومنع الناذر من إتيانه، ولو كان إتيانه قربة عنده لأوجب الوفاء به، فإنَّ من أصله أنَّ كل طاعة تجب بالنذر، سواء كان من جنسها واجب بالشرع، أو لم يكن.

ولهذا يوجب إتيان مسجد المدينة علىٰ من نذر إتيانه، وقد منع ناذرَ إتيان القبر من الوفاء بنذره، فلو كان ذلك عنده قربة لألزمه الوفاء به».

والصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من أعظم الخلق تعظيمًا وتوقيرًا للنبيِّ ﷺ، وقيامًا بحقوقه، ومعرفةً للمشروع من الأعمال من زيارة قبره ﷺ، فلم يتَّخذوا من قبره ﷺ عيدًا ولا مستغاثًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «دُفن ﷺ في الحجرة، ومنع النَّاس - أصحابه، وغير أصحابه - من الدخول إلىٰ عند قبره، وإنَّما كان يدخل من يدخل إلىٰ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وكانت ناحية في الحجرة عن القبر، وربما طلب منها أحيانًا بعض التابعين أن تريه القبر، فتريه إياه؛ ليعرف السُّنَّة في القبور، وأنها تكون لاطية، لا مشرفة.

فلمَّا ماتت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ مُنع الناس منعًا عامًّا، وكان الدخول ممكنًا مع وجود الباب، فلما سُدَّت الحجرة، وبني الحائط البرَّاني؛ صار الدخول إلىٰ قبره، والزيارة له كما يزار قبر غيره، غير مقدور، ولا مأمور».

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٧٩).

وقال شيخ الإسلام متمِّمًا[١]: «فلمَّا اتفق الصَّحابة علىٰ أنَّهم يدفنونه في الحجرة، ولا يمكن النَّاس من الدخول عليه؛ فلم يمكن أصحابه ولا غير أصحابه من الدخول إلىٰ الحجرة إلَّا صاحبة الحجرة، ومن دخل إليها؛ عُلم أنَّ إتيان قبره لم يكن ممَّا سنَّه لهم وأمرهم به».

ومقصود حضور المقبرة هو نفع الميِّت بدعاء الله له والاستغفار له، وقد عكس المشركون هذا المقصود بدعاء الميِّت والاستشفاع به.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما مِنْ رجل مسلم يموت، فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلًا، لا يُشركون بالله شيئًا؛ إلا شفَّعهم الله فيه**». رواه مسلم.

فهذا مقصود الصلاة علىٰ الميِّت، وهو الدعاء له، والاستغفار، والشفاعة فيه.

ومعلوم أنه في قبره أشدّ حاجة منه علىٰ نَعْشِه؛ فإنه حينئذٍ مُعرَّض للسؤال وغيره.

وقد كان ﷺ يقف علىٰ القبر بعد الدفن، فيقول: «سلوا له التثبيت؛ فإنَّه الآن يُسأل».

فعُلم أنه أحوج إلىٰ الدعاء له بعد الدفن، فإذا كنَّا علىٰ جنازته ندعو له، لا نَدعو به، ونشفع له، لا نستشفع به، فبَعد الدفن أولىٰ وأَحْرىٰ.

فبدَّل أهل البدع والشرك قولًا غير الذي قيل لهم؛ بدَّلوا الدعاءَ له بدعائه نفسه، والشفاعةَ له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة – التي شرعها رسول الله ﷺ

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٨٠).

(٢) إغاثة اللَّهفان (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).

إحسانًا إلىٰ الميِّت، وإحسانًا إلىٰ الزائر، وتذكيرًا بالآخرة - سؤالَ الميت، والإقسام به علىٰ الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مُخُّ العبادة، وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد، وأوقات الأسحار».

وإذا تبيَّن أنَّ شدَّ الرِّحال للقبور لا يجوز؛ تبيَّنت ما في أعمال القاصدين لها من الشِّرك والبدع والضَّلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كثير من الناس لا يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين إلَّا مقاصد أهل الشرك، الذين يجعلونهم أوثانًا، وأندادًا لله، وهم شرٌّ من الذين اتخذوها مساجد؛ فإنَّ أولئك يقصدون أن يصلوا فيها لله، ويدعون الله، وهؤلاء إنَّما يقصدون دعاءهم، والحج إليهم؛ فيجعلون صلاتهم ونسكهم للمخلوق، لا للخالق. يقصد أحدهم في زيارة قبر من يعظِّمه ما يقصده الحاجُّ في الحجِّ إلىٰ بيت الله، وما يقصده المصلِّي الذي يقصد مساجد الله، فالحاج والمصلي مسلم حنيف متبع لملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

فالمسلم صلاته ونسكه لله، والمشرك يصلي لغير الله، وينسك لغير الله، ويدعو المخلوق، ويستغيث به، ويتضرَّعُ إليه، كما يفعل بالخالق، ويحجُّ إلىٰ قبره، كما يحجُّ إلىٰ بيت الخالق، ويسمون ذلك نسكًا، ويصنفون كتبًا يسمونها: مناسك حج المشاهد؛ كما صنَّف محمد بن النعمان الملقب بالمفيد، وغيره،

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٦٨، ٦٩).

مناسك حج المشاهد، ومنهم من يفضِّل الحج إلىٰ بيوت المخلوقين علىٰ الحجِّ إلىٰ بيت الخالق، ويقولون: هذا الحج الأكبر، وحج البيت هو الحج الأصغر. ومن الناس من يقول: وحق النبي الذي تحج المطايا إليه. فيجعلون الحج إلىٰ المخلوق».

والصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ **فهمهم لحديث: «لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد»** أفادنا تحريم شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور والأماكن المعظَّمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الصحابة الذين رووا هذا الحديث بينوا عمومه لغير المساجد، كما في «الموطَّأ» و«المسند» و«السُّنن» عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من أين أقبلت؟ قال: من الطُّور. فقال: لو أدركتك قبل أن تخرج لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُعمل المطيّ إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: إلىٰ المسجد الحرام، وإلىٰ مسجدي هذا، وإلىٰ مسجد إيليا**»، أو قال: «**بيت المقدس**»».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(٢): «وكذلك أبو سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو راويه – الحديث – ذُكر عنده الصَّلاة في الطُّور، فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي للمطيّ أن تشدَّ رحالها إلىٰ مسجد يبتغىٰ فيه غير المسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ ومسجدي هذا**»، فأبو سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جعل الطُّور ممَّا نُهي عن شد الرِّحال إليه».

---

(١) الإخنائية (ص٥٦).

(٢) الإخنائية (ص٣٢٩، ٣٣٠) باختصار.

وقال قزعة لابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إنِّي أُريد الطُّور؟ فقال: لا، إنَّما تُشدُّ الرِّحال إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصىٰ؛ فدع عنك الطُّور، ولا تأته[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا النَّهي من بصرة بن أبي بصرة وابن عمر، ثم موافقة أبي هريرة؛ يدلُّ علىٰ أنَّهم فهموا من حديث النَّبي ﷺ النَّهي».

فأبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يعارض بحجَّة من القرآن أو السُّنَّة، بل قبوله لنصيحة بصرة بن أبي بصرة يدلُّ علىٰ رجوعه إلىٰ الحقِّ، وربَّما كان سفره للطُّور عن غير قصد شدِّ الرِّحال، أو وقع منه ذهولًا عن الحكم ونسيانًا للدَّليل؛ كما نسي الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حكم التيمُّم للجنب، فذَّكره عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والعمل المعهود المعلوم عن الصَّحابة وسادات آل البيت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قصد مسجد الرَّسول ﷺ للصَّلاة لله ودعائه وذكره واستغفاره، لم يكن أحد منهم يتَّخذ قبر النَّبي ﷺ عيدًا للذِّكر والاستغفار والدُّعاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يأتون مسجده في اليوم والليلة خمس مرات، والحجرة إلىٰ جانب المسجد لم يدخلها أحد منهم؛ لأنهم قد علموا أنه نهاهم أن يتخذوا القبور مساجد، وأن يتخذوا قبره عيدًا أو وثنًا، وأنه قال لهم: «**صلوا عليَّ حيثما كنتم**»، وكذلك قد علموا أنَّ صلاتهم وسلامهم عليه في المسجد أولىٰ من عند قبره».

(١، ٢) الإخنائية (ص٣٢٩).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٠٩).

ومن الاستدلالات الضَّالَّة التي أجاز بها الإخنائي شدَّ الرِّحال إلىٰ القبور؛ قياسُه زيارة الميِّت علىٰ زيارة الحي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه جعل زيارة الميت كزيارته حيًّا، واستدل بحديث «الذي زار أخًا له في الحياة»، علىٰ أنه يُستحب زيارة الميت، وهذه التسوية والقياس ما عُرفت عن أحد من علماء المسلمين؛ فإنه من المعلوم أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين سافروا إلىٰ الرسول ﷺ فساعدوه، وسمعوا كلامه وخاطبوه وسألوه فأجابهم، وعلَّمهم وأدَّبهم، وحمَّلهم رسائل إلىٰ قومهم، وأمرهم بالتبليغ عنه؛ لا يكون مثلهم أحد بالأعمال الفاضلة كالجهاد والحج، فكيف يكون بمجرد رؤية ظاهر حجرته مثلهم؟! أو تقاس هذه الزيارة بهذه الزيارة؟!».

ودعاة الشِّرك والبدع مارسوا التَّضليل والتَّلبيس علىٰ عباد الله المسلمين، فأجازوا لهم شدَّ الرِّحال إلىٰ القبور بأحاديث ضعيفة ومكذوبة، زعموا أنَّها صحيحة، ووضعوا الأدلَّة الصَّحيحة في غير مواضعها؛ كاستدلالهم بزيارة شهداء أحد وقبور البقيع للمقيم بالمدينة لشد الرِّحال للقبور، ولم يذكروا للمسلمين نصيحة ولا بيانًا ما كان يفعله النبي ﷺ من الزِّيارة المشروعة لقبور الموتىٰ من الدُّعاء لهم بالمغفرة والرَّحمة من غير شد الرحال؛ فلم ينتهِ بهم الحال عن سكوتهم عن شرك من يستغيث بالموتىٰ، بل زادوا إضلال الخلق بتبرير الشِّرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ردِّه علىٰ الإخنائي[2]: «إنه قال: ورد

(١) مختصر الردّ علىٰ الإخنائي، «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ٢٣٦).

(٢) مختصر الردّ علىٰ الإخنائي، «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ٢٣٤، ٢٣٥).

في زيارة قبره أحاديث صحيحة، وغيرها مما لم يبلغ درجة الصحيح لكنها يجوز الاستدلال بها علىٰ الأحكام الشرعية. وهذا كلام من لا يعرف ما روي في هذا الباب، ولا ما قال فيه علماء المسلمين».

وقال متمِّمًا الردّ عليه(١): «وأئمَّة الحديث لم يحكموا بذلك، وهو وأمثاله لا يعرفون ذلك؛ فالقول بذلك من أعظم القول بلا علم في الدين، والجرأة علىٰ سنَّة رسول رب العالمين ﷺ، بأن يدخل فيها ما ليس منها بالجهل والضلال، فكيف إذا كان جميع ما روي في هذا الباب مما ضعَّفه أهل المعرفة بالحديث، بل حكموا بأنه كذب موضوع؛ كما قد بُسط الكلام علىٰ ما روي في هذا الباب في غير هذا الكتاب».

فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، والأمَّة الوسط هي التي أعطت كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلم تغلُ في رسل الله - عليهم الصَّلاة والسَّلام -، ولم تجعلهم أندادًا لله، ولم تصرف إليهم شيئًا من حقِّ الله الخالص، ولم تجفهم عن حقوقهم كصفوة المخلوقين من الثَّناء عليهم، وإظهار فضائلهم، ونشر دعوتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة؛ ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء، بل يثبتون أنَّهم وسائط في التبليغ عن الله، ويؤمنون بهم، ويحبُّونهم، ولا يحجُّون إلىٰ قبورهم، ولا يتَّخذون قبورهم مساجد، وذلك تحقيق شهادة «أن لا إله إلا الله، وأن

---

(١) مختصر الردّ علىٰ الإخنائي، «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) مختصر الردّ علىٰ الإخنائي، «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ٢٨٤).

محمدًا رسول الله»؛ فإظهار ذكرهم وما جاءوا به هو من الإيمان بهم، وإخفاء قبورهم لئلَّا يفتن بها الناس؛ هو من تمام التوحيد وعبادة الله وحده، والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأمة محمَّد ﷺ قاموا بهذا».

والاستغاثة بالموتىٰ هي أشدُّ الأمور مضادَّة لتعظيم الله بإخلاص التَّوحيد والعبادة له، وأبعدها عن تعظيم الرَّسول ﷺ باتِّباعه فيما بُعث به من الدَّعوة للتَّوحيد.

قال الحافظ محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «تجريد التوحيد، فإنه ﷺ كان أحرص الخلق علىٰ تجريده حتَّىٰ قطع أسباب الشِّرك ووسائله من جميع الجهات، ونهىٰ عن عبادة الله بالتقرُّب إليه بالنوافل من الصلوات في الأوقات التي يسجد فيها عباد الشمس لها، بل قبل ذلك الوقت بعد أن تصلي الصبح والعصر؛ لئلا يتشبَّه الموحدون بهم في وقت عبادتهم، ونهىٰ أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان. ونهىٰ أن يُحلف بغير الله، وأخبر أنَّ ذلك شرك، ونهىٰ أن يصلَّىٰ إلىٰ القبر، أو يتَّخذ مسجدًا، أو عيدًا، أو يُوقد عليه سراج، وذمَّ من شرك بين اسمه واسم ربِّه تعالىٰ في لفظ واحد، فقال له: «**بئس الخطيب أنت**»، بل مدار دينه علىٰ هذا الأصل الذي هو قطب رحىٰ النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره ﷺ بقوله وفعله وهديه، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه ﷺ بموافقته علىٰ ذلك، لا بمناقضته فيه».

❁ ❁ ❁

---

(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص٨٤٤).

وضوح البيان القرآني لا تقوم له شُبَهُ المشركين

أغلوطات المشركين تزيد الموحدين يقينًا بفساد الشرك وبطلانه، فهي أكاذيب وتحريفات لا يزداد الموحِّد بمدارستها وعرضها علىٰ القرآن إلا يقينًا بأنَّه لا إله إلا الله. ولا معبود سواه ولا ربّ يُدعىٰ ويُرجىٰ غيره. وبذلك يرىٰ الموحِّد ضعف بصيرة من أعرض عن معاني القرآن إلىٰ أباطيل المشركين، ويرىٰ أن ضلال المشركين من جهتهم بإعراضهم عن أسباب الهداية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥].

والمهتدون بالحق أخذوا بمعاني القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمن أراد النصيحة لنفسه والهداية للحق ائتم بمعاني القرآن واهتدىٰ به، ومن اعتصم بالكتاب والسنة بفهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ فقد أخذ بأسباب الهداية وحسن العاقبة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

والهداية لمعاني القرآن تكون بتلاوته تدبُّرًا، أمَّا قراءته هذًّا من غير تفهم لمعانيه فما أقل فائدة هذه القراءة.

والقرآن مملوء من ذكر معاني التَّوحيد وتبيين ما يضاده من الشرك وذكر أنواعه والتحذير منه، فمن لم يهتدِ به فما أبعده عن الحقِّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إذا تتبع المتتبع ما في كتاب الله مما حاج به عباده في: إقامة التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات الرسالة والنبوة، وإثبات المعاد وحشر الأجساد، وطرق إثبات علمه بكل خفي وظاهر، وعموم قدرته ومشيئته، وتفرده بالملك والتدبير، وأنه لا يستحق العبادة سواه؛ وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه من تصرف المخاطبة منه سبحانه في ذلك: على أجل وجوه الحجاج، وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها ملاءمة للعقول، وأبعدها من الشكوك والشبه، في أوجز لفظ وأبينه، وأعذبه وأحسنه وأرشقه، وأدله على المراد، وذلك مثل قوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد وبطلان الشرك وقطع أسبابه وحسم مواده كلها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فتأمَّل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بُدَّ أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكًا لمالكها أو ظهيرًا أو وزيرًا ومعاونًا له، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت؛ انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق، فنفى

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٤٦٠ - ٤٦٢).

شركتها له، فيقول المشرك: قد تكون ظهيرًا ووزيرًا ومعاونًا، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فلم يبقَ إلَّا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع؛ فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين؛ فإن المشفوع عنده يحتاج إلىٰ الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

وأما مَنْ كُلُّ ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟!».

وما أكثر آيات القرآن الدالة علىٰ حاجة المخلوقين إلىٰ الله في الهداية والرزق والنفع والضر والحفظ، وأنَّ ذلك إلىٰ الله وحده، فكيف يدعو مخلوق مخلوقًا مثله، هو مفتقر إلىٰ هداية الله ورحمته ونصره ورزقه كافتقار الداعي سواءً؟!

قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبيدي، كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، كما ترجون أنتم رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟!».

وحاجَّ الله المشركين بما يدل علىٰ أنَّ شركهم عن جهل، وعدم تفكُّر وتذكُّر، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٤٦٣).

جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٣].

فما أشرك من أشرك بالله وعدل به غيره إلا عن جهل وعدم تفكر، تعالىٰ الله عمَّا يشركون.

تدبَّر كل آية من هذه الآيات وما خُتمت به، مما يدلك علىٰ أنَّ المشركين ليسوا علىٰ شيء.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فإن هذا تحدٍّ عظيم ولا يستطيعون أن يثبتوا ذلك».

وقال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ نفي العلم قد يُراد به نفي حقيقة العلم؛ بحيث لا يكون الإنسان عالمًا، وقد يُراد به نفيُ الانتفاع به، فإنَّ من لا ينتفع بعلمه فهو كالجاهل، بل هو شرٌّ منه، وفي القرآن أمثلة كثيرة حيث يُراد بنفي الشيء نفي فائدته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، مع أنَّ نورهم قويٌّ وآذانهم قويَّة السمع، ولكنّهم من أجل عدم الانتفاع بهذه الأشياء

---

(١) تفسير سورة النمل (ص٣٥٠).

(٢) تفسير سورة النمل (ص٣٥٧).

صاروا كالفاقدين لها، فهنا نفي العلم إن كان المراد به نفي وجود العلم فالأمر ظاهر؛ لأنَّ بعض النَّاس جاهل لا يفكِّر بهذه الآيات ولا يستدل بها علىٰ حالته أو علىٰ من هو آية له، وإن كان المراد بذلك نفي فائدة العلم فهو أيضًا واقع، ودائمًا يُنفىٰ الشَّيء بانتفاء فائدته وثمراته».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

والعلم الذي بُعث به النبيُّون عليهم السلام هو توحيد الله، والنهي عن الشرك، وقد قام خاتم النبيِّين وإمام المرسلين محمد ﷺ بتحذير الناس من الغلو فيه، وأخبرهم أنَّه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أن يملكه للناس، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢٠-٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخرُف: ٤٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الأنبياء جميعهم وأممهم كانوا مسلمين مؤمنين موحدين، لم يكن قط دين يقبله الله غير الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٥/ ٥٢٦).

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي «الصحيحين» عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولىٰ الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبيٌّ».

قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ساق الآية في الإنكار علىٰ من اتَّخذ من دونه آلهةً لا تساويه، فسوَّاها به مع أعظم الْفرق.

فقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهيَّة، وإفراد له بالرُّبوبيَّة والإلهيَّة، وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ نفي لصلاح تلْك الآلهة المتَّخَذة للإلهيَّة؛ فإنها مسئولة مربوبة مدبرة، فكيف يسوَّىٰ بينها وبينه مع أعظم الْفرْقان؟!».

وملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما كله لله، هو وحده الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وشأن كل مخلوق إليه، فكيف يُجعل هذا المربوب المخلوق المقهور ربًّا وندًّا وإلهًا مع الله؟!

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٧٧٨).

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ابتدأ تعالىٰ هذه الآيات بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ [الزُّمَر: ٦]، يخبر الخبير أن الملك لله وحده، والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، فإنَّ من كانت هذه صفته لا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر إلىٰ أحد سواه تعالىٰ وتقدس، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة.

وأخبر تعالىٰ أنَّ ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئًا، وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم، ولو فُرض أنَّهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي: ينكرونه ويتبرءون ممن فعله معهم، فهذا الذي أخبر به الخبير الذي ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وأخبر أنَّ ذلك الدعاء شرك به، وأنَّه لا يغفره لمن لقيه به.

فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع، بل قالوا: إنَّ الميت يسمع، ومع سماعه ينفع. فتركوا الإسلام والإيمان رأسًا كما ترىٰ عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمَّة».

وحاج إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المشركين عبَّاد الأصنام بما يوجب عليهم الانتهاء عن شركهم، ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وهكذا نصح الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أمة الإسلام محذرًا لهم من عبادة الحجارة بالتبرك بها، فقال وهو يستلم الحجر الأسود: «أما إنِّي لأعلم أنك حجر

---

(١) قرّة عيون الموحدين (ص٩٥).

لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يستلمك ما استلمتك»، رواه البخاري ومسلم، قاله الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ معلِّمًا أمَّة الإسلام التوحيد، ومبينًا أن استلام الحجر الأسود في الطواف محض عبادة لله وخضوع له، ونسك، وليس تبركًا بحجر لا ينفع ولا يضر.

وأزال الله عن عقول المشركين أوهام الأنداد، وضرب لهم مثلًا من أنفسهم يزجرهم عن الشرك وينبِّههم إلىٰ كمال الله وتعاليه عن الند والكفؤ، وهو كراهة المشركين أن يكون مملوكهم نظيرًا لهم، فكيف يجعلون مملوكات الله شركاء له، وهم خلق من خلقه؟!

قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «يقول تعالىٰ: إذا كان أحدُكمْ لا يرْضىٰ أنْ يكون ممْلوكه شريكًا له مثْل نفْسه، فكَيْف تَجْعلون مَمْلوكي شريكًا لي؟! وكلُّ ما سوىٰ الله منَ الْمَلائكة والنَّبيِّين والصَّالحين وسائر الْمَخْلوقات هو ممْلوكٌ له، وهو سُبْحانه لا إله إلَّا هو، له الْمُلْك وله الْحمْد وهو علىٰ كلِّ شيْءٍ قديرٌ».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(٢): «تمْتنعون أنْ يكون الْمَمْلوك لكمْ نظيرًا، فكَيْف ترْضَوْن لي أنْ تجْعلوا ما هو مخْلوقي وممْلوكي شريكًا لي، يُدْعىٰ ويُعْبد كما أدْعىٰ وأعْبد، كما كانوا يقولون في تَلْبيتهمْ: «لبيك اللهم لبيك، لبَّيْك لا شريك

(١، ٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٥/ ١٢٤).

لك، إلَّا شريكًا هو لك تمْلكه وما ملك»».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

قال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «في الآية تنبيه علىٰ أن المدعوَّ لا بُدَّ أن يكون مالكًا للنفع والضر، حتىٰ يُعطي من دعاه أو يبطش بمن عصاه، وليس ذلك إلا لله وحده، فتعيَّن أن يكون هو المدعُوَّ دون ما سواه، والآية شاملة لنوعي الدعاء.

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] أي: المشركين، وهذا كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله في الأنعام: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. فإذا كان هذا الأمر لو يصدر من الأنبياء - وحاشاهم من ذلك - لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله، فما ظنُّك بغيرهم؟! فلم يبق شيء يقرِّب إلىٰ الله ويباعد من سخطه إلا توحيده والعمل بما يرضاه، لا الاعتماد علىٰ شخص أو قبر، أو صنم أو وثن أو مال أو غير ذلك من الأسباب، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، والآية نصٌّ في أن دعاء غير الله والاستغاثة به شرك أكبر، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٠٤ - ٥٠٦).

كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]؛ لأنه المتفرِّد بالملك والقهر والعطاء والمنع، ولازم ذلك إفراده بتوحيد الإلهية؛ لأنهما متلازمان، وإفراده بسؤال كشف الضر وجلب الخير؛ لأنَّه لا يكشف الضر إلا هو، ولا يجلب الخير إلا هو: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. فتعيَّن أنه لا يُدعىٰ لذلك إلا هو، وبطل دعاء من سواه ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فضلًا عن غيره، وهذا ضد ما عليه عبَّاد القبور».

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا إخْبارٌ من الله تعالىٰ عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إمام الحنفاء، أمر الله تعالىٰ رسوله محمَّدًا - صلوات الله وسلامه عليه - أنْ يتْلوه علىٰ أمَّته؛ ليقْتدوا به في الْإخْلاص والتَّوكُّل، وعبادة الله وحْده لا شريك له، والتبرِّي من الشِّرْك وأهْله، فإنَّ الله تعالىٰ آتىٰ إبْراهيم رُشْده منْ قبْل، أيْ: منْ صغره إلىٰ كِبَره، فإنَّه منْ وقْت نشأ وشبَّ أنْكر علىٰ قوْمه عبادة الْأصْنام مع الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٠]، أيْ: ما هذه التَّماثيل الَّتي أنْتمْ لها عاكفون؟ ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: ٧١] أيْ:

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩٧).

مقيمين علىٰ عبادتها ودعائها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤]، يعْني: اعْترفوا بأنَّ أصْنامهمْ لا تفْعل شيْئًا منْ ذلك، وإنَّما رَأوْا آباءهمْ كذلك يفْعلون، فَهُمْ علىٰ آثارهمْ يُهْرَعون، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] أيْ: إنْ كانتْ هذه الْأصْنام شيْئًا ولها تأْثيرٌ، فلْتخْلُصْ إليَّ بالْمساءة، فإنِّي عدوٌّ لها لا أباليها ولا أفكِّرُ فيها.

وهذا كما قال تعالىٰ مخْبرًا عنْ نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هودٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وهكذا تبرَّأ إبْراهيم منْ آلهتهم، وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] يعني: لا إله إلا الله».

فالحاصل أنَّ فرق ما بين الخالق والمخلوق معلوم، فمن جعل لله ندًّا أو

كفؤًا أو سميًّا فما أجهله وأظلمه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

والتفكُّر في صفات الله وتدبُّر القرآن تزيد الموحدين إيمانًا، وتدل الظالمين إلىٰ من يجب عبادته وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أمَّا الفكرة فِي صِفَات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب لَهُ التَّمْييز بَين الإيمان وَالْكفْر، والتوحيد والشرك، والإقرَار والتعطيل، وتنزيه الربِّ عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ، وَوَصفه بِمَا هُوَ أَهله من الْجلَال والإكْرام.

ومجاري هَذِه الفكرة: تدبُّرُ كَلَامه، وَمَا تعرَّف بِهِ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ عباده علىٰ ألسنة رسله من أسْمائه وَصِفَاته وأفعاله، وَمَا نزَّه نَفسه عَنهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَهُ وَلَا يَلِيق بِهِ سُبْحَانَهُ، وتدبُّر أفعاله وأيامه فِي أوليائه وأعدائه الَّتِي قَصَّها علىٰ عباده وأشهدهم إِيَّاها؛ ليستدلوا بِهَا علىٰ أَنَّه إلههم الْحقُّ الْمُبين الَّذِي لَا تنبغي الْعِبَادَة إلا لَهُ».

۞ ۞ ۞

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٣٢).

جدال بالباطل عن الباطل

فطر الله عباده على التوحيد ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الله سبحانه فطر عباده على شيئين: إقرار قلوبهم به علمًا، وعلى محبته والخضوع له عملًا وعبادةً واستعانةً، فهم مفطورون على العلم به والعمل له، وهو الإسلام».

واستزل الشيطان المشركين عن فطرة التوحيد بما ألقاه إليهم من الوساوس المفسدة له، فصاروا يقيسون المخلوق على الخالق، ويجعلون بسبب ذلك لله أندادًا، وأوقعتهم أقيستهم الفاسدة في أنواع من الشرك من أعظمها اتِّخاذ الوسائط في دعاء الله.

فالمشركون المعاصرون ضلالهم من نوع ضلال المشركين السابقين، قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قياس المشركين، الذين كانوا يقيسون الميتة على المذكى، ويقولون للمسلمين: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟! فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ

(١) الجامع لكلام ابن تيمية في التفسير (٥/ ١٢٩).

(٢) الصارم المنكي.

﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]».

وتواصىٰ المشركون بالباطل نصرةً لباطلهم وضلالهم اغترارًا بما ألقاه الشيطان إليهم من الشبهات، وهذا الغرور أورثهم التواصي بالشرك ونصرته والحرب علىٰ التوحيد ودعاته، قال تعالىٰ: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

وما جدال المشركين عن شركهم إلا جدال بالباطل عن الباطل، فالباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح، وكما أراد المشركون العلو والفساد في الأرض بشركهم ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، أرادوا كذلك العلو بالجدال بالباطل عن ضلالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وهيهات أن تغلب شبهات الشرك حقائق التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وما جعل المشركين يجادلون عن ضلالهم إلا جهلهم بمعاني التوحيد، وتزيين الشيطان لهم الشرك.

قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «التزيين يتناول ما تمسكوا به من الشُّبه والمتشابه واعتقاد حسنه، وأنه لا يُنكر ولا يلزم بسواه».

فهؤلاء المشركون استروحوا إلىٰ شبهات الأئمة المضلين وتركوا الاهتداء

---

(١) منهاج التأسيس (ص ٨٣).

بالوحي المبين، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فلم يطلبوا العلم النافع الذي يهديهم إلىٰ توحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وما جدال المبطلين بالباطل عن شركهم إلا بسبب ما أُشربت قلوبهم من حب الاستغاثة بغير الله ودعائه، قال تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وأنت إذا تأملت ضلال المشركين لم تجد لهم حجَّة من قرآن أو سنَّة أو فطرة صحيحة أو عقل صريح تدل لشركهم، شبههم ترجع إلىٰ سوء فهم آية أو آيتين، ومرجعهم أحاديث ضعيفة ومكذوبة ومنقولات عن الأئمة المضلين باطلة.

وأعظم ما يجادل به الأئمَّة المضلّون عن شركهم هو زعمهم أنَّ ما يفعلونه من دعاء غير الله أو اتِّخاذ الوسائط في دعاء الله أو الاستغاثة بالمخلوقين الموتىٰ ليس بشرك، وهذا الذي أركسهم فيه الشيطان، فجعلهم أولياءه في الدعوة إلىٰ الشرك والجدال عنه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وجدال المشركين بالباطل هو بعض شعب شركهم الذي تأسس من الالتجاء إلىٰ غير الله بالاستغاثة والنصر والرزق والهداية، فحُرموا الاهتداء للحق، وجادلوا بسبب ذلك عن شركهم.

قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

وشُبه المشركين وجدالهم بالباطل عن شركهم، وردهم لأوضح المعارف وآكد العلوم الفطرية الضرورية ونصوص القرآن والسنة في تبيين التوحيد؛ ما هو

إلا شعبة من شعب ظلمهم، فإن ﴿ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فانتصارهم للباطل وردِّهم للحق هو من شعب ظلمهم الذي اختاروه، فالظلم وضع الشيء في غير موضعه، فالمشركون جعلوا لله أندادًا وصرفوا حق الله الخالص لغيره، فجاروا وظلموا، اعتقادًا وقولًا وعملًا، وجاروا أيضًا في وضع النصوص من القرآن والسنة في غير مواضعها، وعطلوا دلالتها المنطوقة بشرك من دعا غير الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الظلم المطلق التام هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها».

وما جدال عباد القبور عن شركهم بالباطل إلا بسبب استرواحهم إلىٰ الإفك وإلفه، فمن أفك في الشرك فما أهون وأيسر الإفك عليه في المحاجة عنه، قال تعالىٰ: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦].

وسبب جدال المشركين عبَّاد القبور بالباطل هو فساد نياتهم، فمن لم يُخلص لله في عمله وتوحيده يصدر منه ما هو من فروع ذلك وهو الجدال بالباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فمن لم يُخلص لله في عبادته ودعا غير الله واستغاث به واستنصره يصير إلىٰ المجادلة بالباطل عن ضلاله الشركي؛ لأن القصد شركي.

وإنَّه لمن العجب في فقه القبوريِّين الحثّ علىٰ شدِّ الرِّحال إلىٰ قبر النَّبيِّ ﷺ؛ يقولون بما يضادُّ ما أمر به النَّبيُّ ﷺ؛ أن يُدفن في بيته، وألَّا يُبرَز قبره كما في الصَّحيحين من حديث عائشة وعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أفيمنع النبي ﷺ

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٥٧).

زيارة قبره من قريب خشية الغلو فيه، ويبيحه للمسافر إليه من بعيد؟! هذا محال!

وإذا لم تُخلص القلوب إراداتها في طلب الحق من الله الذي يهدي للحق، فما أبعدها عن الهدىٰ الذي دلَّ عليه القرآن من التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

والقبوريون ما أقبلوا علىٰ القرآن بصدق ولا تدبَّروه بحق ليتبعوه، سمعوا بعضه بأذن غير واعية وبقلوب لاهية غير مقبلة علىٰ الاهتداء به.

فمن لم يهتدِ بألفاظ القرآن الدالة علىٰ معانيه علىٰ مراد الله؛ هذا معرض عن الاهتداء به، وقد قطع نفسه عن الخير الذي وعد الله به مَن تفقه في دينه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حقيقة الفقه[١]: «ما التقىٰ فيه فهم السامع ومراد المتكلم، وهذا هو حقيقة الفقه الذي أثنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ علىٰ أهله».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا حقيقة الفقه عن الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ[٢]: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله ﷺ».

وسبب ضلال المشركين هو إعراضهم عن الله، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ومن لم يستعن بالله في هدايته وأموره كلها فهو الضالُّ حقًّا، وكما أنَّ المشركين قصدوا غيره وعبدوه، ودعوه التفاتًا عن الله الذي لا إله غيره، فكذلك

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٥٠١).

(٢) لمعة الاعتقاد (ص١٦٨).

التفتوا عن الاستعانة به في الهداية فضلوا في شعب الشرك.

فاللَّهمَّ إنَّا نعبدك ونستهديك ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ الإله هو الذي يؤله، فيُعبد محبة وإنابةً وإجلالًا وإكرامًا، والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلىٰ جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلىٰ اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه».

وسبب جدال المشركين بالباطل هو تلقيهم شبهاتهم من شيوخهم بالقبول من غير تفكر فيها ووزنها بميزان الكتاب والسنة بفهم السلف.

فالمشركون عدلوا عن ربِّهم قصدًا ورغبة ورهبةً ورجاءً والتجاءً إلىٰ موتىٰ لا يملكون لأنفسهم ﴿مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣]، وعدلوا أيضًا عن الاهتداء بالكتاب والسنة إلىٰ أكاذيب الأئمة المضلين فتلقوها بالقبول، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وانسلخوا من فطرة التوحيد وعطلوا عقولهم عن الاهتداء للحقِّ من موارده الدالَّة عليه، وصاروا إلىٰ إفك شيوخهم المضلين.

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «رأيت في حاشية الشيخ إبراهيم الباجوريّ علىٰ السنوسية نقلًا عن الدردير فيما أظن عن الشعراني: أن الله وكل بقبر كلِّ ولي ملكًا يقضي حاجة من سأل ذلك الولي.

فقف هنا وانظر ما آل إليه شركهم وإفكهم، فأين هذا من قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية، وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا

---

(١) طريق الهجرتين (ص٥٦).

(٢) منهاج التأسيس (ص٥٢).

وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح: ٧، ٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] الآية، وأيّ حجّة في هذا الذي قال الشعرانِيُّ لو كانوا يعلمون؟! ولكنَّ القوم أصابهم داء الأمم قبلهم؛ فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين».

وإصرار المشركين علىٰ شركهم وشبهاتهم الواهية هو من ثمرات كذبهم الذي هو أساس اعتقادهم، فإنَّ الشِّرك كذب علىٰ الله، والتَّوحيد هو صدق الاعتقاد والقول والعمل، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وما شبهات المشركين إلا تحريف لمعنىٰ آية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله ﷺ ووضعها في غير مواضعها، أو احتجاج بخبر مكذوب أو موضوع.

واستحكم علىٰ المشركين ضلالهم بسبب فساد توحيدهم وما في أنفسهم من تعظيم الشِّرك[1] وما كانوا فيه من العُجْب والكبر والرِّياء، فبطروا الحق الذي دلَّ عليه نور الوحي من القرآن والسُّنَّة الذي أظهر الحجَّة به أئمة الهدىٰ كشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أول ما يَسرِي الكذب من النفس إلىٰ اللسان فيُفسده، ثم يسري إلىٰ الجوارح فيُفسد عليها أعمالها كما أفسد علىٰ اللسان

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٥٧٨).

(٢) الفوائد (ص١٩٧، ١٩٨).

أقواله، فيَعُمُّ الكذبُ أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ويترامىٰ داؤه إلىٰ الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق بقلع المادَّة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلِّها الصدق، وأضدادها من الرِّياء والعُجْب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجُبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب، فكلُّ عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب».

وشبه المشركين تتهاوىٰ أمام نور الوحي ولا تقوم له، يجادل المشركون بالباطل ليدحضوا به الحقّ، وهيهات أن يبلغوا ذلك، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وما بلغ المشركون والمبطلون غرور الكبر الذي في نفوسهم الذي أركسهم في الإصرار علىٰ الشِّرك أنفةً أن يكون الحقُّ في غير قولهم، وغرور المتكبِّرين عن الحقّ يتعاظم في أنفسهم إلىٰ لا شيء، لأنَّه غرور عن باطل وضلال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

وأنت إذا تأمَّلت شبهات المشركين وجدتها أفهام مغلوطة لبعض نصوص الوحي، ومرويَّات مكذوبة وموضوعة، ومعقولات ضالَّة، وأقيسة باطلة، وأوهام مواجيد كسراب بقيعة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٠١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من عارض كتاب الله وجادل فيه

(١) الاستقامة (ص٤٧).

بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواقًا من غير أن يأتي ما يقوله بكتاب منزَّل؛ فقد جادل في آيات الله بغير سلطان».

وإذا أراد الضالُّون عن الحقِّ الدَّاعون للشِّرك المجادلون عنه بالباطل الهداية للحقِّ، فعليهم أولًا الإخلاص لله في طلب الحقِّ، والتوجُّه إلىٰ الله للهداية الحقِّ والتوفيق إليه، وتنقية القلب من دغل شبهات الشِّرك وضلال البدع التي حجبت قلوبهم عن نور الحقّ، والاهتداء بنور الوحي بفهمه علىٰ مراد الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ.

❁ ❁ ❁

إبطال الشبه لا إثارتها

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في كتابه «كشف الشُّبهات» ما هو متلقًّىٰ بالقبول من شبهات الضَّالِّين المضلِّين القبوريِّين لدىٰ كثير من الخلق، وقام بالردِّ عليها من باب النَّصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ ولعامَّة المسلمين، ولم يكن في ذلك مثيرًا لشبهة لا ذكر لها عند النَّاس، بل ذكر من الشُّبه ما أفسد علىٰ النَّاس أديانهم وأوقعهم في الشِّرك، فمصنَّفه هو من الجهاد العلمي في تصحيح عقائد المسلمين بإبطال شُبه المبطلين المضلِّين.

ودعاة الشِّرك أجلبوا علىٰ المسلمين بالشُّبهات الشِّركيَّة التي أوقعت النَّاس في التبرُّك بالشَّجر والحجر، وفي الاستغاثة بالموتىٰ، وسؤال المخلوق ما لا يقدر عليه إلَّا الله، فكان واجبًا علىٰ الموحِّدين ردّ باطل المشركين، وحفظ الدِّين من التَّحريف والتَّبديل، وتحذير المسلمين من شُبه المشركين لئلَّا يُفسد أديانهم من لم يرد بهم خيرًا.

فالشِّرك أعظم الظلم، وهو وضع حق الله الخالص لمخلوق من مخلوقات الخالق، وهو من أسباب الخلود في النَّار وحبوط الأعمال قال تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ونحن في مدارستنا لشبه المشركين نتعلَّم كيفيَّة إبطالها، ونزداد يقينًا بمعنىٰ

التَّوحيد وحقائقه، ومعرفةً بضلال الشِّرك ووهاء شبهاته، وندرأ بذلك عن المسلمين تلبيسات الأئمَّة المضلِّين من دعاة الشِّرك الذين يفسدون عقائد المسلمين بشبهاتهم.

شبه المشركين لا نثيرها لزلزلة عقائد المسلمين، وإنَّما نبطل ما يثيره المشركون من الشُّبه لإبطال الحق.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن المعلّمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإنَّما يحظر على العالم أن يثير شُبْهةً لا يزال أهل الكفر والضَّلال غافلين عنها، فأمَّا مثل هذه الشُّبْهَة ممَّا قد أثاروه وأضلُّوا به فلا بدَّ للعالِم من ذِكره وإقامة البرهان بما يزيله».

وعلىٰ ولاة الأمر من الأمراء والعلماء منع المبتدعين والمشركين من أسباب إفساد الدِّين وإضلال المسلمين، فيقوم الأمراء بمنعهم من إظهار شركهم وبدعهم التي يدعون إليها، وعلىٰ العلماء بيان ما في أقوالهم وشبهاتهم من الشِّرك والضَّلال.

وإن لم يكن لشبهات المشركين ذكر واغترار من عامة المسلمين فيكتفىٰ بمنع المشركين والمبتدعين من إظهار ضلالهم؛ لأنَّ ذلك أنفع في إخماده.

قال الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الإعراض عن القول المُطَّرح أحرىٰ لإماتته وإخمال ذكر قائله، وأجدر أن لا يكون ذلك تنبيهًا للجهَّال عليه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «النَّهي عن مجالسة أهل البدع، ومناظرتهم، ومخاطبتهم، والأمر بهجرانهم، وهذا لأنَّ ذلك قد يكون أنفع للمسلمين

---

(١) حقيقة التأويل (ص٦٨)، من مجموع مؤلفات المعلِّمي المجلد السَّادس.

(٢) مقدمة الصَّحيح (ص٢٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٧٢، ١٧٣).

من مخاطبتهم، فإن الحق إذا كان ظاهرًا قد عرفه المسلمون، وأراد بعض المبتدعة أن يدعو إلىٰ بدعته؛ فإنَّه يجب منعه من ذلك، فإذا هُجر وعُزر كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بصبيغ بن عسل التَّميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه، أو قُتل كما قتل المسلمون[١] الجعد بن درهم وغيلان القدري وغيرهما كان هو المصلحة، بخلاف ما إذا تُرك داعيًا، وهو لا يقبل الحق إمَّا لهواه وإمَّا لفساد إدراكه، فإنَّه ليس في مخاطبته إلا مفسدة وضرر عليه وعلىٰ المسلمين».

والذي يقوم بالرد علىٰ شُبه المشركين علماءُ المسلمين، ومن أخذ عنهم ممَّن تحقق بعلم التَّوحيد وأوتي ملكةً في نصرة الحقّ وإبطال الباطل، فهذا المتحصِّن بعلم الكتاب والسُّنَّة بفهم السَّلف، مدارسته لضلال شبه المشركين يزيده تحقُّقًا بصحَّة توحيد المرسلين والصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «قال لي شيخ الإسلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقد جعلتُ أورد عليه إيرادًا بعد إيراد: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفِنْجَة، فيتشرَّبها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزُّجاجة المُصْمَتة، تمرُّ الشُّبهات بظاهرها، ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلَّا فإذا أَشْرَبت قلبَك كلَّ شبهةٍ تمرُّ عليك صار مقرًّا للشبهات»، أو كما قال، فما أعلم أني انتفعت بوصيَّةٍ في دفع الشُّبهات كانتفاعي بذلك».

---

(١) الحدود والتعزيرات لدعاة البدعة المكفِّرة يقيمها وليّ الأمر.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩٥).

وجدال المشركين باطل؛ لأنَّه تأسس على الكذب على الله والقول عليه بغير علم، وما كان كذلك فإنه باطل لا تقوم له حجة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**أصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم** فإنَّ المشرك يزعم أنَّ من اتخذه معبودًا من دون الله يقربه إلى الله ويشفع له عنده ويقضي حاجته بواسطته كما تكون الوسائط عند الملوك.

فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس؛ إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله، فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبًا لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مُبَوَّأً وهو المنزل اللازم الذي لا يفارقه صاحبه؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم كصريح الكذب عليه؛ لأن ما انضاف إلى الرسول ﷺ فهو مضاف إلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾».

❁ ❁ ❁

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٣٠٣).

التوحيد

أول ما ابتدأ به شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى كتابه «كشف الشبهات» تعريف التَّوحيد، حيث قال(١): «اعلم - رحمك الله - أن التَّوحيد هو: إفرادُ الله سبحانه بالعبادة».

وهذا التعريف المجمل فصَّله الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك في الرسالة نفسها، وزاد ذلك تفصيلًا بإبطال الشبهات الشِّركيَّة، وهذا من تحقيق كلمة التَّوحيد أنْ يُوحَّد الله في أفعاله ونعوته وحقوقه، وأن يُكفر بكل ما يُعبد من دون الله، وأنْ يُحذّر المسلمون من شبهات المشركين حمايةً وحفظًا لتوحيد من بقي على فطرة التَّوحيد، واستنقاذًا لمن أضلَّهم الأئمة المضلُّون عن إفراد الله بالتَّوحيد.

قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وكُتُب الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعامة مصنَّفاته في بيان التَّوحيد ومعناه وحقيقته، وفي التَّحذير من الشِّرك بأنواعه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنىٰ التَّوحيد(٢):

---

(١) كشف الشُّبهات (ص٣).

(٢) شرح كتاب التَّوحيد (ص١)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد التاسع.

«التَّوحيد في اللغة: مشتق من وحَّد الشيء إذا جعله واحدًا، فهو مصدر وحَّد يوحِّد، أي: جعل الشيء واحدًا.

وفي الشرع: إفراد الله - سبحانه - بما يختص به من الربوبية والألوهيَّة والأسماء والصِّفات.

أقسامه: ينقسم التَّوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- توحيد الرُّبوبيَّة.

٢- توحيد الألوهيَّة.

٣- توحيد الأسماء والصِّفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفصيل معنىٰ توحيد الألوهيَّة(١): «توحيد الألوهية: ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلىٰ الله يسمَّىٰ: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلىٰ الخلق يسمَّىٰ توحيد العبادة، وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة.

فالمستحقُّ للعبادة هو الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والعبادة تُطلق على شيئين:

الأول: التعبُّد: بمعنىٰ التذلُّل لله عَزَّوَجَلَّ بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٤ - ٦).

وتعظيمًا.

الثاني: المتعبَّد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

مثال ذلك: الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبُّد، ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبَّد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبدًا لله وحده تفرده بالتذلل؛ محبةً وتعظيمًا، وتعبده بما شرع، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]؛ فوصفه سبحانه بأنَّه ربُّ العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له؛ فهو الإله لأنه رب العالمين، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحقُّ للعبادة.

إذ من السفه أن تجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلهًا تعبده؛ فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعداد ولا بإمداد، فمن السفه أن تأتي إلىٰ قبر إنسان صار رميمًا تدعوه وتعبده، وهو بحاجة إلىٰ دعائك، وأنت لست بحاجة إلىٰ أن تدعوه؛ فهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؛ فكيف يملكه لغيره؟!

وهذا القسم كَفَر به وجحده أكثر الخلق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]».

والنبي ﷺ كان إذا بعث أصحابه للدَّعوة إلىٰ الإسلام أمرهم أن يدعوا أولًا

إلىٰ التَّوحيد، كما في بعثه ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن، حيث قال له: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله**»، رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أساس دعوة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - معرفة الله سبحانه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصلة إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد، وقرة العين التي لا تنقطع.

وهذان الأصلان تابعان للأصل الأول ومبنيان عليه، فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه».

والتَّوحيد هو حقيقة الدِّين، وما خُلقت الدُّنيا إلا لعمارتها بالتَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وهذا يُوجبُ علىٰ المسلمين طلب علم التوحيد وتحقيقه وهداية الخلق إليه بتعليمه، فالدِّين كلُّه توحيد، وهذا ما نبَّهنا الله إليه لنحقِّقه ونقوم به.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ١٥١، ١٥٢).

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لمَّا كان أهمُّ ما جاء به ﷺ التَّوحيد حُصر الوحي به».

دين الإسلام دين التَّوحيد بالعبوديَّة لله وحده لا شريك له، هذا الدِّين القيِّم الذي يقوم ورثة الأنبياء بتبيينه والدَّعوة إليه، فالدِّين القيِّم هو التَّوحيد الذي لا يكون إلا بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّه قصد «أولًا» أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصَّلاة والزَّكاة؛ ليُعلم أنَّهما عبادتان واجبتان، فلا يُكتفىٰ بمطلق العبادة الخالصة دونهما، وكذلك يذكر الإيمان أولًا؛ لأنَّه الأصل الذي لابُدَّ منه، ثم يذكر العمل الصَّالح، فإنَّه أيضًا من تمام الدِّين لابُدَّ منه، فلا يظن الظَّانّ اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصَّالح».

والتَّوحيد تزكية للنُّفوس، وأداء لحق الله بعبادته، وتألُّهٌ للأحد الذي كَمُل وحده في صفاته كلها ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، فيُجرِّد الموحِّدون العمل خالصًا لله، ويعبدونه وحده، ويخضعون له وحده، ويخشونه ويرجونه ويرغبون إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «المسلمون يقولون كما قال الله

---

(١) تفسير سورة فُصلت (ص٤٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص٤١٨).

(٣) الصفدية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية، وهو أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وهو متضمن لشيئين: أحدهما: القول العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته، فلا يُوصف بنقص بحال، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، فالصمدية تُثبت له الكمال، والأحديَّة تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

والتوحيد العملي الإرادي: أن لا يعبد إلا إياه؛ فلا يدعي إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا إياه ولا يرجو إلا إياه ويكون الدين كله لله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]».

والتَّوحيد هو دين الله الذي اصطفاه لخلقه أجمعين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وهو دعوة المرسلين جميعًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والتوحيد هو الذي تأتلف عليه القلوب وتجتمع به الكلمة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا، وهو دين الرسل جميعًا - عليهم الصلاة والسلام -، وأنه دين الله حقًّا لا دين له سواه، ولا يقبل من أحد دينًا سواه، وهو الدين الذي أُمر الرسل بإقامته، وحقيقته: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في ملكه وتدبيره وأفعاله وفي عبادته سبحانه، وفي أسمائه وصفاته، والانقياد لأمره وقبول شريعته والدعوة إلىٰ سبيله، والاستقامة علىٰ ذلك والاجتماع عليه وعدم التفرق فيه، وهذا هو الدين الذي أُمرنا بإقامته، وأمر الله الرسل ومن بعدهم بإقامته، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، فإقامة الدين معناها: قبوله، والتزامه، وإظهاره، والدعوة إليه، والسير عليه، والثبات عليه، والاجتماع علىٰ ذلك قولًا وعملًا وعقيدةً، وعدم التفرقة في ذلك، وبهذا تجتمع كلمة المسلمين ويتحد صفهم ويقوىٰ جانبهم ويهابهم عدوهم».

والتَّوحيد هو الأساس الذي تُبنىٰ عليه الأعمال الصَّالحة من عبوديَّة الله؛ أركان الإسلام وواجباته، وفرائضه ونوافله، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وهذه الشجرة الطيِّبة تُثمر إخلاص النيَّة وزكاء القول والعمل، وتصلح بهذه الكلمة وحقوقها ولوازمها البلاد وتعمُر الأرض بالخيرات، وبذلك يرحم الله الخلق ويورثهم الحياة الطَّيِّبة، والسَّعادة في الدَّارين.

---

(١) الفتاوىٰ البازيَّة (٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

قال الحافظ عبد الرزّاق الرّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال المفسِّرون: شبَّه الله تعالىٰ الإيمان بالنَّخلة، لثبات الإيمان في قلب المؤمن كثبات النَّخلة في الهواء، وشبَّه ما يكتسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرة هذه الشَّجرة، فإنَّ ثمرتها يُنتفع بها رطبة ويابسة في كل حين من أحيان السَّنَة، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتيسيره وتسهيله».

التَّوحيد فطرة الخلق جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال النبيُّ ﷺ: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه**»، متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **في الحديث القدسي: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين»**.

وكان زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي عم الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قبل بعثة رسول الله ﷺ يُنكر علىٰ المشركين في الجاهليَّة ذبحهم لغير الله، وذكرهم اسم غير الله علىٰ بهيمة الأنعام، ويقول: الله رزقكم الأنعام، وتذكرون اسم غير الله عليها؟!

والتَّوحيد يهتدي إليه العقل السَّليم، ومن أوَّل ما أُوحي إلىٰ النبي ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فربوبيَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيمة تدلُّ علىٰ كماله الذي لا سميَّ ولا ندَّ ولا كفؤ له، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وكمال ربوبيَّته سبحانه وصفاته موجبة لتوحيده بالألوهية والعبوديَّة

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥٣٧).

وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فالتَّوحيد دلَّت عليه الفطرة الصَّحيحة والعقل الصَّريح والنقل الصَّحيح، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصَّحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعَلِمَ بعقله حُسْنَهُ فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (٢/ ٧٤٣).

الدَّعوة للتَّوحيد

بعد أن ابتدأ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان معنىٰ التَّوحيد، ذكر منهج الأنبياء في الدَّعوة إلىٰ الله، وخلوصهم النَّصيحة في الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد.

وهذا من حسن التَّصنيف، ومن إخلاص الإمام المجدِّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث فارق أئمة الضَّلال الذين يدعون إلىٰ تقليد أنفسهم تعميةً علىٰ المقلِّدين الحق وأسباب معرفته.

فمن حثَّك علىٰ اتِّباع الرُّسل - صلوات الله وسلامه عليهم - فقد دلَّك علىٰ أسباب معرفة الحقِّ، فالرُّسل بُعثوا بالوحي والحكمة والعصمة، فمن اتَّبعهم فقد اهتدىٰ، وهذا من إرادة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخير للنَّاس في دينهم ودنياهم وأخراهم، فإنَّ النَّاس يُسألون في البرزخ وفي يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، فمن اهتدىٰ بهم فقد أجابهم في دعوتهم إلىٰ الله وتوحيده.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إِنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ: إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلَىٰ عِبَادِهِ، فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ: وَدٍّ، وَسُوَاعٍ،

(١) كشف الشبهات (ص٣، ٤).

ويَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرٍ.

وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَىٰ أُنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَذْكُرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ، مِثْلَ الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَىٰ وَمَرْيَمَ، وَأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

ومن اتَّبع النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ في دعوته وفي منهجه فيها؛ فهذا من تحقيقه لشهادة أنَّ محمدًا رسول الله ﷺ.

ومن اتَّبع النبيّ ﷺ في منهجه في الدَّعوة إلىٰ الله؛ تولَّاه الله هدايةً وسدادًا ونصرة وتأييدًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

قال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ما أحسن ما قال قتادة عن حال أوَّل هذه الأمَّة من المسلمين: لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، فأبىٰ الله إلَّا أن يمضيها وينصرها، ويُظهرها علىٰ من ناوأها، **إنَّها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر**».

والدَّاعية إلىٰ التَّوحيد داعية هدًىٰ وخير وصلاح وإصلاح، فهو مأجور، وحسنات من اهتدىٰ به في ميزانه، قال النبيُّ ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدًىٰ كان له أجره**

(١) مصباح الظَّلام في الردِّ علىٰ من كذب علىٰ الشيخ الإمام (ص٤٧).

وأجر من اتَّبعه إلىٰ يوم القيامة، من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والدَّاعية إلىٰ التَّوحيد قد أعذر إلىٰ الله من واجب النُّصح والدَّعوة إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

والدَّاعية إلىٰ التَّوحيد ساعٍ إلىٰ أسباب دخول النَّاس الجنَّة والعتق من النَّار، والله يجازي بالإحسان إحسانًا، فيكون ثواب داعية التَّوحيد العتق من النَّار ودخول الجنَّة؛ لأنَّ التَّوحيد هو الأساس في قبول كل الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، والشِّرك مبطل محبط للأعمال؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والمشركون لا يدخلون الجنة ومأواهم النَّار وبئس المصير؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والله عَزَّوَجَلَّ أشهد علماء الحقّ علىٰ أجلِّ مشهود وهو توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وواجب العلماء إقامة الشَّهادة وأدائها بالدَّعوة إليها لا كتمانها أو تحريفها، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «توحيد الله ودينه قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد شهد الله له بذلك بما

---

(١) تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٢١، ٢٢).

أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه، ومن شهادته تعالىٰ أنه أقام أهل العلم العارفين بهذه الشهادة؛ فإنهم المرجع للعباد في تحقيق كل حق، وإبطال كل باطل؛ لما خصَّهم الله به من العلم الصحيح، واليقين التام، والمعرفة الراسخة.

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله، فإن الله جعلهم وسائط بينه وبين عباده، يبلغونهم توحيده ودينه، وشرائعه الظاهرة والباطنة، وأمرَ الناس بسؤالهم والرجوع إلىٰ قولهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وغيرهم تابع لهم في الدنيا والآخرة، ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتىٰ في الآخرة؛ لما ذكر تعالىٰ اختصام الخلق واختلافهم، ذكر القول الفصل في ذلك الصادر من أهل العلم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]».

وقال تعالىٰ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فـ«**من اتَّبعني**»، إن كان عطفًا علىٰ الضَّمير في ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو دليل أنَّ أتباعه هم الدُّعاة إلىٰ الله.

وإن كان عطفًا علىٰ الضَّمير المنفصل، فهو صريح أنَّ أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم.

والتَّحقيق أنَّ العطف يتضمَّن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة، الذين يدعون إلىٰ الله».

(١) الصَّواعق المرسلة (١/ ١٥٥).

وقال **شيخنا العلَّامة المجدِّد محمد العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الدَّعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ هي وظيفة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وطريقة من تبعهم بإحسان، فإذا عرف الإنسان معبوده، ونبيَّه، ودينه، ومنَّ الله عليه بالتَّوفيق لذلك؛ فإنَّ عليه السَّعي في إنقاذ إخوانه بدعوتهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وليبشر بالخير، قال النبيُّ ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم خيبر: «**انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»، متَّفق علىٰ صحَّته.

ويقول ﷺ **فيما رواه مسلم**: «**من دعا إلىٰ هدًىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»، وقال ﷺ فيما رواه مسلم أيضًا: «**من دلَّ علىٰ خير فله مثل أجر فاعله**»».

والعالم حقًّا هو الذي يُعلِّم عباد الله دينه، ومن لم يُعلِّمهم التَّوحيد ما علَّم الناس دين الله، جاء جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الرَّسول الملكي إلىٰ محمَّد ﷺ الرَّسول البشري، وسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وبعد أن أجابه النبيُّ ﷺ قال: «**هذا جبريل أتاكم يُعلِّمكم دِينكُمْ**»، رواه مسلم؛ فمن لم يُعلِّم النَّاس التَّوحيد فقد كتم حقيقة الدِّين.

وقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلَّا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمَّته علىٰ خير ما يعلمه لهم**»، رواه مسلم؛ هكذا النَّاصحون، وخير ما يعلمه النبيُّون عليهم

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٧).

الصَّلاة والسَّلام ومنهم خاتمهم محمَّد ﷺ هو التَّوحيد، قال النبيُّ ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله**»، متَّفق عليه، ومن كتم خير الإسلام بل أصله وأساسه الذي يقوم عليه فهو غاش للمسلمين.

وكان النبي ﷺ في تعليمه لأمَّته وآحادهم يُعلِّمهم أولًا التَّوحيد وحقوقه من أركان الإسلام، عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله! أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويباعدني من النَّار. قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنَّه ليسير علىٰ من يَسَّرَهُ الله تعالىٰ عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت**»، رواه التِّرمذي وقال: حديث حسن صحيح. فمن أعرض عن تعليم النَّاس أعظم ما في دين الله، فقد أعرض عن دلالتهم إلىٰ أسباب دخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار.

والدَّاعية إلىٰ التَّوحيد موفَّق، هداه الله إلىٰ الحكمة، فقد أوتي خيرًا كثيرًا، تعلَّم الحكمة وعلَّمها، قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فطلب علم التَّوحيد واعتقاده والعمل به وتعليمه هو أول الحكمة وأساسها وخيرها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٢، ١٣].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نبَّه بهذا علىٰ أن الحكمة

---

(١) رموز الكنوز (٦/ ٥٢).

الأصليَّة توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وشكره».

وما ترك طلب علم التَّوحيد وتعليمه والدَّعوة إليه إلَّا من جهل سنة المرسلين عليهم الصلاة والسلام أو رغب عنها.

قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ»، رواه مسلم.

فالتَّوحيد هو الذي من أجله أرسل الله الرُّسل، وأنزل الكتب، وخلق الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولأجله أقام الله سوق الجهاد، قال تعالىٰ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال النبي ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل النَّاس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله**»، متَّفق عليه.

❁ ❁ ❁

من أعظم شبهات المشركين

بعد أن افتتح شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب «كشف الشُّبهات» ببيان معنىٰ التَّوحيد، ودعوة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام إليه، بدأ بذكر أعظم شبهات المشركين المعاصرين، ثم ردَّ عليهم.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أرسله أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ: وَدٍّ، وَسُوَاعٍ، ويَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرٍ.

وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَىٰ أُنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَذْكُرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ، مِثْلَ الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَىٰ وَمَرْيَمَ، وَأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وهذه الشُّبهة بدأ الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكرها لأنَّها من أعظم - إن لم تكن أعظم - شبهات المشركين المعاصرين الذين يدعون الموتىٰ، أو يدعون بهم، ويتَّخذونهم وسائط وشفعاء في دعاء الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لا فائدة في طلب الدعاء والشفاعة،

---

(١) كشف الشبهات (ص٣، ٤).

(٢) الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص١٣٠ - ١٣٢).

لا من الملائكة، ولا من الأموات؛ الأنبياء والصالحين، ومن طلب ذلك منهم فتح أبواب الشرك؛ فإنَّه إذا اعتقد الناس أنَّ ما طُلب من الميت أو الملك من دعاءٍ وشفاعة، بذله؛ طلبوا ذلك؛ لكثرة حاجات الخلق، لا سيما إذا اعتقد ما يقوله المشركون الذين يقولون: إنَّما نعبدهم ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ، يقولون: هؤلاء خواص الربّ، فنحن نتقرب إليه بهم كما نتقرب إلىٰ الملوك بخواصهم، فكما أن آحاد الرعيّة لا تصلح أن تخاطب السّلطان، بل يدخل علىٰ خواصه حتىٰ يخاطبوه له، كذلك نحن لا يصلح لنا أن نطلب من الله، بل نطلب من خواصه أن يسألوه، وإذا أقدمنا علىٰ الطلب منه كان ذلك سوء أدب عليه، واجتراء عليه، كما يكون ذلك سوء أدب علىٰ الملوك، واجتراء عليهم. فهذه من أعظم شبه المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، أي: **يقولون: ما نعبدهم**. وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]؛ فهؤلاء دعوا الملائكة، والأنبياء، والصالحين، وقد رد الله علىٰ هؤلاء، وهذا الذي ذكروه من قياس الله علىٰ خلقه قياس فاسد، وضربوا لله مثل السوء، والله له المثل الأعلىٰ، وذلك أن الملوك هم عاجزون عن أمور الرعية: إن لم يكن لهم من يعاونهم، بل من يدفع عنهم الضرر؛ عجزوا وقهروا، وهم أيضًا لا يعلمون من أحوال الرعيَّة إلا ما طولعوا به، وأيضًا فهم لا يحسنون إلىٰ الرعيَّة إلا لرغبة أو رهبة.

والله سبحانه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وهو أرحم الراحمين،

فهو يعلم السرَّ وأخفىٰ، فلا يحتاج إلىٰ من يعرِّفه بحاجته، بل هو يعلم حاجته، وهو وحده يدبر أمر السموات والأرض، ليس له ظهير، ولا وزير، ولا معين، ولا مشير، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، فهو سبحانه لم يوال عباده من ذلٍّ ليعتز بهم، كما يوالي الملوك لأوليائهم؛ قال مجاهد: لم يذل فيحتاج إلىٰ ولي يتعزز به.

بل هو سبحانه يوالي المؤمنين فضلًا منه ورحمة، وإحسانًا، وهو سبحانه الصمد، الذي كل ما سواه فقير إليه، وهو غنيٌّ عن كل ما سواه، وهو سبحانه أرحم الراحمين، وخير الحاكمين، وهو نعم الوكيل لمن توكل عليه، ونعم المولىٰ ونعم النصير.

وفي صحيح البخاري أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا**»، فهو سبحانه رحمته وسعت كل شيء، فقد كتب علىٰ نفسه الرحمة، فهو أعلم بحال عبده من كل أحدٍ، وهو أقدر علىٰ نفعه وأنفع من كل أحد، بل لا يقدر أحد إلا بإقداره، وهو أرحم به من كل أحدٍ، وهذا بخلاف الملوك، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]».

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ سبب شرك القبوريِّين بالله في اتِّخاذ الصَّالحين شفعاء في دعائهم الله؛ هو قياسهم الخالق علىٰ المخلوق في اتِّخاذ الوسائط لقضاء الحاجات، تعالىٰ الله عمَّا يشركون.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هو سبحانه لا يُقاس به غيره، ولا يمثل به سواه؛ إذ ليس كمثله شيء، والمشركون ضربوا له أمثالًا من خلقه، فجعلوا لله ندًّا، ومثلًا، والقرآن مملوء من ذم هؤلاء ولعنهم وتكفيرهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل: ٧٢-٧٤]».

وقال **العلَّامة عبد العزيز بن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الشرك الذي وقع في قوم نوح لم يزل في النَّاس إلىٰ يومنا هذا، فلم يزل في النَّاس من يعبد الأصنام والأوثان، ويغلو في الصَّالحين والأنبياء عليهم السلام، يعبدهم مع الله، كما هو معلوم عند كل من نظر في أخبار العالم من عهد نوح إلىٰ يومنا هذا».

ولا ريب أنَّ دعاء غير الله شرك، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ٥٦].

قال **العلَّامة عبد الرَّحمن بن حسن آل الشيخ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «ما أوضحها من آية في بيان أنَّ جُلَّ شرك المشركين إنَّما هو بدعاء من أشركوا مع الله في العبادة».

وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص١٣٣، ١٣٤).

(٢) الفتاوىٰ البازيَّة (٢/ ٦٨).

(٣) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتَّلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص١٤٩).

يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أخبر تعالىٰ أنَّ اتخاذ الشفعاء هو دين أهل الشرك بالله من عبدة الأوثان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ إلىٰ قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]؛ فأخبر أنه شرك ونزَّه نفسه عنه، وأخبر أن قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ يمنع حصول الشفاعة لهم بطلبها من غير من يملكها، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ فأخبر تعالىٰ أنهم تولوهم من دون الله بالعبادة، وأنهم إنما أرادوا بذلك أن يقربوهم إلىٰ الله بشفاعتهم لهم، فأخبر تعالىٰ أن هذا هو الكفر بالله، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، و﴿كَفَّارٞ﴾ صيغة مبالغة أبلغ من كافر. وهذا الذي ذكره الله تعالىٰ عن المشركين هو الواقع من كثير من هذه الأمة في أرباب القبور، جهلًا منهم بحقيقة الشرك».

❁ ❁ ❁

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتَّلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٨٥).

محمد ﷺ جدَّد ملَّة إبراهيم

بعد أن ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعريف التَّوحيد، وما قام به الرُّسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من الدَّعوة إليه، وما أصاب عقائد النَّاس من الشِّرك المضادِّ لعقيدة التَّوحيد خصوصًا في اتِّخاذ المخلوقين شفعاء في دعاء الله؛ بيَّن ما قام به خاتم النبيِّين محمَّد ﷺ من تجديد ملَّة إبراهيم، وفي هذا حثٌّ للدَّعاة والعلماء وطلبة العلم للدَّعوة للتَّوحيد وتبيين ما يضادُّه للمسلمين، نصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ وأئمَّة المسلمين وعامَّتهم، واقتداءً بخليلي الرَّحمن إبراهيم ومحمَّد عليهما أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وقيام النَّاس بواجب الدَّعوة للتَّوحيد هو فرض كفاية، ويتعيَّن حيث يعمُّ الشِّرك الجهل، وفي ذلك حفظ لدين الله من التَّحريف والتَّبديل والإفساد، وفيه أيضًا حفظ لأديان النَّاس من الهدم والبطلان؛ لأنَّ الشِّرك محبط للأعمال، وفي التَّجديد للدَّعوة للتَّوحيد عتق لرقاب المسلمين من النَّار.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالِاعْتِقَادَ

(١) كشف الشُّبهات (ص٤).

مَحْضُ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ، لَا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ، لَا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا تجديد محمد ﷺ لملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(١): «بعث الله محمَّدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحق، وأمره باتِّباع ملَّة إبراهيم، فأظهرها، ودعا إليها، وأقام الحجّ علىٰ ما شرعه لإبراهيم، ونفىٰ الشِّرك عن البيت».

ومن أعظم ما كان من تجديد النبيِّ ﷺ لملَّة إبراهيم استنقاذ الكعبة من المشركين، الذين جعلوا البيت الحرام ضدَّ مقاصد أمر الله ببنائه ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا**﴾ [الحج: ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «البيت الحرام كان له فضيلة بناء إبراهيم الخليل، ودعاء الناس إلىٰ حجِّه، وصارت له فضيلة ثانية؛ فإنَّ محمدًا ﷺ هو الذي أنقذه من أيدي المشركين ومنعه منهم، وهو الذي أوجب حجَّه علىٰ كل مستطيع، وقد حجَّه الناس من مشارق الأرض ومغاربها، فعبد الله فيه بسبب محمَّد ﷺ أضعاف ما كان يعبد الله فيه قبل ذلك، وأعظم ممَّا كان يُعبد، فإنَّ محمدًا ﷺ سيِّد ولد آدم».

وقال تعالىٰ: ﴿**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [المائدة: ١٩].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٥٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٢٦).

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ الله بعث محمَّدًا ﷺ علىٰ فترة من الرُّسل، وطموس من السُّبل، وتغيُّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنِّيران والصُّلبان، فكانت النِّعمة به أتمَّ، والحاجة إليه أمر عمم، فإنَّ الفساد قد عمَّ جميع البلاد، والطُّغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلَّا قليلًا من المتمسِّكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أحبار اليهود وعبَّاد النَّصارىٰ والصَّابئين».

وأمَّة الإسلام اصطفاها الله لحفظ الدِّين، فجعل الله في هذه الأمَّة من يقوم بميراث خاتم النبيِّين محمَّد ﷺ في حفظ الشَّريعة وتجديدها، والدَّعوة إلىٰ التَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فلمَّا انتهت النَّوبة إلىٰ محمَّد بن عبد الله رسول الله ونبيِّه ﷺ، فأرسله إلىٰ أكمل الأمم عقولًا ومعارف، وأصحِّها أذهانًا، وأغزرها علومًا، وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدُّنيا إلىٰ حين مَبْعثه، فأغنىٰ الله الأمَّة بكمال رسولها ﷺ، وكمال شريعته، وكمال عقولها، وصحَّة أذهانها، عن رسول يأتي بعده، وأقام له من أمَّته ورثةً يحفظون شريعته، ووكَّلهم بها حتىٰ يؤدُّوها إلىٰ نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فلم يحتاجوا معه إلىٰ رسول آخر ولا نبيٍّ ولا محدَّث».

وإن كان ضعف نور النبوَّة في بعض النَّواحي أو بعض الأزمنة والأوقات فإنَّه

---

(١) التعليقات البازيَّة علىٰ شرح الطَّحاويَّة (١/ ٧).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٧٢٦).

لا يزال في هذه الأمَّة الطَّائفة المنصورة التي تدعو إلىٰ الحق وتنصره، وقد قوي نور النبوَّة وجدَّد الله الدِّين بدعوة الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي سخَّر الله له الإمام محمَّد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنصرة التَّوحيد، ولا نزال نتفيَّأ ظلال هذه الدَّعوة الإصلاحيَّة المباركة.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الاعتبار بما جرىٰ لأهل هذه الدعوة من النصر والتأييد والظهور علىٰ قلَّة أسبابهم وكثرة عدوهم وقوته، وذلك من آيات الله وبيّناته علىٰ أن ما قام به الشيخ في حال فساد الزمان أنه الدين الذي بعث الله به المرسلين، وتبيّن أن هذه الطائفة في هذه الأزمنة هي الطائفة المذكورة في قوله ﷺ: «**ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك**»، وقد كانت هذه الطائفة قبل ظهور الشيخ فيما تقدم موجودة في الشام والعراق ومصر، وغيرها؛ بوجود أهل السنة وأهل الحديث في القرون المفضَّلة وبعدها، فلما اشتدت غربة الإسلام وقلَّ أهل السنة واشتد النكير عليهم، وسعىٰ أهل البدع في إيصال المكر إليهم؛ منَّ الله بهذه الدعوة فقامت بها الحجة واستبانت المحجة، فيا سعادة من قبلها وأحبها ونصرها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأهل العلم من أتباع السلف والأئمة لهم المصنفات المفيدة في بيان التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والكثير منها

---

(١) المقامات (ص١٦، ١٧).

موجود بأيدي علماء المسلمين، وما علمنا أحدًا بعد القرن الثامن في حال اشتداد غربة الإسلام يذكر بمعرفة ما عليه أهل السنة في أنواع التوحيد أو يلتفت إلىٰ كتبهم، ولا عرفوا الشرك الذي لا يغفره الله؛ فلذلك لم ينكره فيهم منكر، ولا أخبر بوقوعه من علمائهم مخبر، حتىٰ أظهر الله هذا النور وشفىٰ الله به الصدور، وظهرت كتب أهل السنة؛ وعظمت بمعرفتها والدعوة إليها المنَّة».

وقد بشَّر النبيُّ ﷺ بالأئمَّة المجدِّدين المصلحين، وأثنىٰ عليهم، فقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله**»، رواه البخاري ومسلم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شأن المجدِّدين**[(١)]: «كُلٌّ منهم يقوم مقام الأنبياء في القدر الذي ناب عنهم فيه، هذا في العلم والمقال، وهذا في العبادة والحال، وهذا في الأمرين جميعًا».

والمجدِّدون لهذا الدِّين قدرهم عظيم عند الله، وثوابهم جزيل، يحفظون للنَّاس أديانهم من تحريف الغالين وتبديل المبتدعين وتضييع المفرِّطين، شأنهم عظيم في إحياء ما اندرس من شرائع الإسلام وشعائره وسننه.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنِّي لأرىٰ الرَّجُل يُحيي شيئًا من السُّنَّة فأفرح به».

وقال وهب بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «جزىٰ الله: إسحاق بن راهويه، وصدقة،

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٩٧).

(٢) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ١٠٦٩).

(٣) تهذيب الكمال (١٠/ ١٧٧).

ويعمر[١]، عن الإسلام خيرًا، أحيوا السُّنَّة بأرض المشرق».

والمسلم يسارع في نصرة الدِّين وتجديده وإحياء السُّنَّة وحراسة الشَّريعة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وكل طبقات المسلمين يمكنهم تجديد الدِّين ونصرة التَّوحيد، فالعلماء بالكتاب الهادي، والولاة بالسَّيف النَّاصر، والتُّجَّار بطباعة كتب التَّوحيد وكتب العلماء المجدِّدين ونشر علومهم بوسائل الإعلام الحديثة، وكذلك العامَّة بنصرة الحقِّ ودعوة التَّوحيد والعلماء المجدِّدين له، ودلالة الخلق علىٰ هؤلاء العلماء وتوزيع كتبهم ونشر علومهم.

وكل مسلم يجب عليه القيام بتجديد الدِّين، بمعرفة التَّوحيد ومعاني الشَّريعة ونصيحة المسلمين في ذلك، يبدأ بخاصَّة نفسه وأسرته، وعشيرته، وأهل بلده، وينصح كذلك لعموم الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، هذه صفة المسلمين، وهذا دينهم، وهذه أخلاقهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر].

قال العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في وصف ابن الإسلام البار**[٢]: «هو من يجعل همَّه إعادة جدة الدِّين، واستعادة مجد السَّلف الأقدمين».

ومن بركة الأئمة المجدِّدين من علماء وولاة المسلمين أنَّ علومهم وتجديدهم

(١) صدقة هو ابن الفضل، ويعمر هو ابن بشر.

(٢) الشرك ومظاهره (ص٦٥).

لا يزال محفوظًا تتوارثه الأمَّة وتنتفع به، وتعرف به ضلال من ضل وهدىٰ من اهتدىٰ، خصوصًا علوم الصَّحابة فقد حفظتها كتب الآثار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولهذا تجد عند علماء المسلمين من أخبار أهل العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من مشايخ العلم والدين والعدل من ولاة الأمور: ما يوجب معرفة ذلك الشخص، والثناء عليه، والدعاء له، وأن يكون له لسان صدق، وما ينتفع به: إما كلام له ينتفع به، وإما عمل صالح يقتدىٰ به فيه؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء - صلوات الله عليهم - يقصد الانتفاع بما قالوه وأخبروا به، والاقتداء بهم فيما فعلوه، صلوات الله عليهم أجمعين».

فمن تعلَّم وعلَّم وأدَّىٰ إلىٰ النَّاس العقيدة الصَّحيحة والشَّريعة كما أدَّاها الصَّحابة إلينا؛ فهؤلاء هم المجدِّدون من ورثة الرُّسل.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين قاموا بالدين علمًا وعملًا ودعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير؛ فزَكَتْ في نفسها، وزكا الناس بها.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدِّين والقوة علىٰ الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٨٥).

(٢) الوابل الصيِّب (ص١٣٥).

شرك العبوديَّة والرُّبوبيَّة

نبَّه شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أنَّ من بُعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين يدعوهم إلىٰ التَّوحيد كانوا يعتقدون أنَّ الله هو الخالق الرَّازق المدبِّر، إلَّا أنَّ شركهم كان باتِّخاذ الملائكة والصَّالحين شفعاء في دعائهم الله، ومنهم من كان يصرف أنواعًا من العبادة كالنَّذر والذَّبح لغير الله، فأولئك كانوا مشركين، ومقصود شيخ الإسلام بهذا التَّنبيه أن يحذر المسلم الشِّرك بأنواعه كيفما كان، وأنَّ أنواعه المعاصرة من الاستغاثة بالموتىٰ ودعائهم أو الدُّعاء بهم؛ هو من جنس شرك الأوَّلين.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَرْزُقُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحْيِي وَلَا يُمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ.

فَإِذَا أَرَدْتَ الدَّلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْهَدُونَ بِهَذَا، فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ

(١) كشف الشُّبهات (ص٤-٧).

أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [يونس: ٣١]. وَقَوْلَهُ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، وَغَيْرَ ذَٰلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بِهَذَا، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعَرَفْتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي جَحَدُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا «الِاعْتِقَادَ».

كَمَا كَانُوا يَدْعُونَ اللهَ سُبْحَانَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْمَلَائِكَةَ لِأَجْلِ صَلَاحِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللهِ؛ لِيَشْفَعُوا لَهُ، أَوْ يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ اللَّاتِ، أَوْ نَبِيًّا مِثْلَ عِيسَىٰ.

وَعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ عَلَىٰ هَذَا الشِّرْكِ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤].

وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ لِيَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بِاللهِ، وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا لِلَّهِ».

ومقصود الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التنبيه حثُّ العلماء وطلبة العلم والدُّعاة علىٰ العناية بالتحذير بما كثر فيه الشِّرك وعظمت به الشُّبهة في الشِّرك من الاستغاثة بالصَّالحين ودعائهم أو الدُّعاء بهم، فهذا النَّوع من

الشِّرك هو الذي يجب أن تنصرف إليه الجهود أكثر في تصحيحه مع وجوب العناية بسائر أنواع التَّوحيد تعليمًا وبيانًا ونصحًا؛ حفظًا لأديان المسلمين، قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي: «فمن يأمن علىٰ نفسه بعد إبراهيم».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من العجب أنَّ أكثر المصنِّفين في علم التَّوحيد من المتأخِّرين يُركِّزون علىٰ توحيد الربوبيَّة، وكأنَّما يخاطبون أقوامًا ينكرون وجود الربِّ - وإن كان يوجد من ينكر الربّ -، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة».

ومن جهة الواقع نرىٰ أن أقوامًا من المسلمين في بعض النَّواحي قد وقعوا في أنواع من الشِّرك في الربوبيَّة والألوهيَّة، والشِّرك الأكبر والأصغر، وكل هذا يوجب العناية بتعليم أنواع التَّوحيد كلّها، والتَّحذير ممَّا يضادّه من الشِّرك الأكبر والأصغر، والتَّحذير من الشِّرك وذرائعه.

ففي بعض ديار المسلمين نجد أقوامًا يعلِّقون التمائم ويلبسونها، وقد قال النبي ﷺ: «**من تعلَّق تميمةً فقد أشرك**»، رواه أحمد، وهذا من شرك الربوبيَّة؛ لأنَّ فيها إثباتَ أسبابٍ لم يجعلها الله أسبابًا، لا شرعيَّة ولا قدريَّة.

وفي حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخبر رسول الله ﷺ أنَّ من شعب الجاهليَّة التي ستبقىٰ في النَّاس: الاستسقاء بالنُّجوم. رواه مسلم، وهذا شرك في الرُّبوبيَّة والعبوديَّة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٦).

والمعرضون عن تعليم النَّاس التَّوحيد عمومًا وتوحيد الألوهيَّة خصوصًا، وعن تحذير النَّاس من الشِّرك بأنواعه أقسام:

١- الجاهل الذي جهل دينه إلىٰ درجة جهله بعلم التَّوحيد الذي طلب علمه فرض عين؛ لأنَّه الأساس الذي يقيم به المسلم دينه، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

٢- من لا يهتم إلا بخاصة نفسه، فهذا الصِّنف من النَّاس لا ينصح للمسلمين ما يعلمه من التَّوحيد، وما يضادّه من الشِّرك، قال تعالىٰ: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وواجب المسلم أن يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه، قال النبيُّ ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»، متَّفق عليه من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

وكان النبيُّ ﷺ يبايع الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ علىٰ النَّصيحة لكل مسلم، وإنكار الشرك وتعليم التَّوحيد يوجبه النَّصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم.

٣- الجاهل بأنَّ أنواع الشِّرك المعاصرة لا تختلف عن الشِّرك الذي أنكره رسول الله ﷺ، وهذا قد يكون فيهم ومنهم من يبرِّر شرك المعاصرين وينكر علىٰ الموحدين التحذير منه.

٤- المشركون من عُبَّاد القبور، فهؤلاء صنفان: صنف ينافح دون شركه.

وصنف يدعو إلىٰ ترك إنكار الشِّرك؛ لأنَّه يُفرِّق المسلمين بزعمه، ولأنَّه من غلاة القبوريين كحزب التَّبليغ الدَّعويّ الذي من مات من أمراء حزبهم دفنوه في مسجدهم.

ولا يتم التَّوحيد حتىٰ تتحقَّق أركانه، فمن لم يكفر بما يُعبد من دون الله ويكفر بالطَّاغوت والشِّرك والمشركين؛ فهذا لم يحقِّق التَّوحيد، فكلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله» لها ركنان؛ ركن إثبات الألوهيَّة الحقَّة لله وحده، وركن النفي وهو الكفر بكل ما يُعبد من دون الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذه حنيفيَّة التَّوحيد ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وأما دعوىٰ حزب التَّبليغ أنَّ تعليم التَّوحيد يُفرِّق النَّاس، فنقول: إنَّ الله بعث خاتم الأنبياء والمرسلين محمدًا ﷺ ليُفرِّق بين التَّوحيد والشِّرك، والإسلام والكفر، وهكذا كان كل النبيِّين عليهم الصلاة والسلام، والقرآن الذي هو وحي الله فرقانٌ بين الحقِّ والباطل.

والسُّكوت عن الباطل خصوصًا الشِّرك من أسباب افتراق النَّاس عن الحق، والتَّوحيد واتِّباع الصِّراط المستقيم هو الذي تأتلف به الأمَّة علىٰ الحق، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ودعوىٰ كتم إنكار الشرك وتعليم التَّوحيد خشية الفرقة، هو من أسباب

الفرقة بأنواع الضَّلال وأشدّها، فبهذه الدَّعوىٰ تتفرَّق الآراء والنحل والملل، فكل من يدعو إلىٰ ضلالة ولو كان بما يهدم الدِّين ويضادّ التَّوحيد لم يكن لأحد عليه سبيل من إنكار ضلاله بحسب تنظير المبتدعين فتصير الأمَّة فرقًا وأحزابًا بمخالفة ما بُعث به الرسول ﷺ.

وما أمر حزب التَّبليغ بالسكوت عن الشِّرك وكتمان تعليم التَّوحيد والدَّعوة إليه بدعوىٰ عدم الاختلاف إلا مضادَّة لأمر الله بالرجوع إلىٰ الكتاب والسُّنَّة والردّ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ حال الاختلاف.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

وما محاجة من أَمَرَ بالسكوت عن الشرك خشية الاختلاف إلا دعوة لإبطال معنىٰ القرآن والسبب الذي أوحاه الله إلىٰ رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وأعجب العجب أن ينسب حزب التَّبليغ نفسه إلىٰ الدَّعوة وهو حزب معرض عن الدَّعوة إلىٰ كل القرآن، فالقرآن كُلُّه في التَّوحيد.

❁ ❁ ❁

توحيد الربوبيَّة لم يدخل كفَّار قريش في الإسلام

كشف شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضلال من اعتقد أنَّ توحيد الربوبيَّة هو التَّحقيق للتَّوحيد، وأبان أن مشركي قريش الذين دعاهم النبي ﷺ إلىٰ التَّوحيد كانوا مشركين في الألوهيَّة مع إثباتهم تفرُّد الله بالملك والخلق.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إِنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ قَصْدَهُمُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْأَنْبِيَاءَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِذَلِكَ؛ هُوَ الَّذِي أَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَّوْحِيدَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَىٰ عَنِ الإِقْرَارِ بِهِ الْمُشْرِكُونَ».

والمقصود من محاجَّة الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب هذه بيان الجهة التي دخل علىٰ المشركين المعاصرين اعتقاد أنَّ اتِّخاذ الوسائط في دعاء الله ليس شركًا، وسببه اعتقادهم أنَّ غاية التَّوحيد هو توحيد الرُّبوبيَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا عرف - الإنسان - ما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، وعرف ما في القرآن من التوحيد العظيم،

(١) كشف الشبهات (ص٧، ٨).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص١٣٨، ١٣٩).

والعناية العظيمة بذلك، ومذمة الشرك علىٰ اختلاف أنواعه؛ عرف بعض قدر ما جاء به الرسول ﷺ، وتبيَّن له كثرة الشرك في بني آدم، الذين لا يعرفون، بل يظنون أنَّ العرب كانوا يعتقدون في آلهتهم أنها شاركت الله في الخلق، وهذا من غاية الجهل والكذب بمن يظنه بهم، وذلك لأنَّ الشرك الذي كانوا فيه قد وقع هو وأمثاله في نوع منه، وهو لا يعرف أنه الشرك، يعتقد أنَّ التوحيد هو الإقرار **بأنَّ الله خالق كل شيء، لم يشاركه في الخلق أحد، فهذا عنده غاية التوحيد**، كما تجد ذلك في كلام كثير من الناس من متكلميهم، وعبّادهم، فإذا رأىٰ هذا هو التوحيد؛ كان الشرك عنده ما يناقض ذلك».

وتوحيد الرُّبوبيَّة مستلزم توحيد الألوهيَّة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال الموحدون من أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤].

وهكذا الموحدون جميعًا لا يعبدون إلا الله، ولا يدعون إلا الله، فمن دعا مخلوقًا أو دعا به فقد قال شططًا وشركًا.

وسيد الحنفاء وإمام الموحِّدين أنكر علىٰ أبيه عبادة من لا يستحق ذلك لنقصه عن صفات الكمال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، قال

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الله سبحانه لم يذكر هذه النُّصوص لمجرَّد تقرير صفات الكمال له، بل ذكرها لبيان أنَّه المستحق للعبادة دون ما سواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتمُّ التَّوحيد، وهما إثبات صفات الكمال؛ ردًّا على أهل التَّعطيل، وبيان أنَّه المستحقُّ للعبادة لا إله إلا هو؛ ردًّا على المشركين».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا أحد سواه يستحقُّ أن يؤلَّه ويُعبد، ويُصلَّى له ويسجد، ويستحق نهاية الحبِّ مع نهاية الذُّلِّ؛ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده».

وقال ابن القيِّم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ الإله على الحقيقة هو الغني الصَّمد الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجة كل أحد إليه، ولا حاجة به إلى أحد، وقيام كل شيء به، وليس قيامه بغيره».

وقال أيضًا[٤]: «مشهد الألوهيَّة هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصِّفات، وحظ العباد منه بحسب حظِّهم من معرفة الأسماء والصِّفات، ولذلك كان أكمل الخلق فيه أعرفهم بالله وأسمائه وصفاته».

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «هذه الآية اشتملت على

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٨٣).

(٢، ٣، ٤) طريق الهجرتين وباب السَّعادتين (ص١٣٩).

(٥) شرح عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (ص٥٩).

أقسام التَّوحيد الثَّلاثة: الرُّبوبيَّة، والألوهيَّة، والأسماء والصِّفات؛ فالرُّبوبيَّة في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، والألوهيَّة في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، لأنَّ هذا القسم من التَّوحيد يُطلق عليه توحيد الألوهيَّة وتوحيد العُبُوديَّة، فهو باعتبار الإنسان توحيد عبودية وباعتبار الله عَزَّوَجَلَّ توحيد أُلوهيَّة، أما قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾، فهذا فيه توحيد الأسماء والصِّفات».

وكفَّار قريش حظُّهم من توحيد الرُّبوبيَّة اعتقادهم أنَّ الله خالق كل شيء، وهم مشركون في أشياء كثيرة في الرُّبوبيَّة، وضالُّون عمَّا يستلزمه توحيد الرُّبوبيَّة من توحيد العبوديَّة والألوهيَّة لله وحده لا شريك له.

فمن شركهم في الرُّبوبيَّة اعتقادهم أنَّ المرض فاعل مؤثِّر بنفسه، فأنكره عليهم النبي ﷺ وقال: «**لا عدوىٰ ولا طيرة**» متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ونسبتهم المطر إلىٰ الأنواء فأنكره النبي ﷺ وقال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»، متَّفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

❁ ❁ ❁

تحقيق التَّوحيد

بعد أن ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان ما هو التَّوحيد، وما كان عليه الرُّسل عليهم الصلاة والسلام من الدَّعوة إليه، وما قام به خاتم النبيِّين محمَّد ﷺ من تجديد دعوة التَّوحيد ملَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ ذكر أنَّ الشَّأن في تحقيق معنىٰ التَّوحيد، حيث قال(١): «لا إله إلا الله، والمراد من هذه الكلمة معناها، لا مُجَرَّد لفظها».

فتحقيق التَّوحيد يأتي أولًا من معرفة كلمة التَّوحيد، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ «الإله» هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتَّعظيم والذُّلِّ والخضوع، وتعبده، والعبادة لا تصحُّ إلَّا له وحده.

و«العبادة» هي كمال الحبّ مع كمال الخضوع والذُّلِّ.

والشِّرك في هذه العبوديَّة من أظلم الظُّلم الذي لا يغفره الله».

فالمتحقِّق بالتَّوحيد هو الذي أتىٰ بحقيقته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إنَّ الإيمان قول وعمل، فمن اعتقد الوحدانيَّة في الألوهيَّة لله

---

(١) كشف الشُّبهات (ص٩).

(٢) الجواب الكافي (ص٥٣٢).

(٣) الصَّارم المسلول (ص٣٦٩، ٣٧٠)، باختصار.

سبحانه وتعالىٰ، والرِّسالة لعبده ورسوله - ﷺ - ، ثم لم يُتْبِعْ هذا الاعتقاد مُوجَبَهُ، كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبًا لفساد ذلك الاعتقاد، ومُزِيلًا لما فيه من المنفعة والصَّلاح، إذ الاعتقادات الإيمانيَّة تُزَكِّي النُّفوس وتُصلحها، فمتىٰ لم توجب زكاة النَّفس ولا صَلَاحَها فما ذاك إلَّا لأنَّها لم ترسَخْ في القلب، ولم تَصِرْ صفة ونَعْتًا للنَّفس ولا صلاحًا.

وإذا لم يكن علم الإيمان المفروض صفةً لقلب الإنسان لازمة له لم ينفعه، فإنَّه يكون بمنزلة حديث النَّفس وخواطر القلب».

فتحقيق التَّوحيد هو أن لا تعبد إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «روح هذه الكلمة وسرّها: إفراد الربِّ - جلَّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جدّه، ولا إله غيره - بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة؛ فلا يُحَبُّ سواه، وكُلُّ ما يُحَبّ غيره فإنما يحب تبعًا لمحبته وكونه وسيلةً إلىٰ زيادة محبته.

ولا يُخاف سواه ولا يُرجي سواه ولا يُتوكَّل إلا عليه، ولا يُرغب إلا إليه، ولا يُرهَب إلَّا منه، ولا يُحلف إلا باسمه، ولا يُنذَر إلَّا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا أمره ولا يحتسب إلَّا به، ولا يُستغاث في الشدائد إلَّا به، ولا يُلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلَّا له، ولا يُذبح إلا له وباسمه.

---

(١) الجواب الكافي (ص٤٥٧).

ويجتمع ذلك كله في حرف واحد، وهو أن لا يُعبَد إلَّا إيَّاه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله».

والمتحقِّق بالتَّوحيد هو من كانت عقيدته راسخة عن علم وتصديق راسخ، ومعرفة بحقّ الله، لم يتزعزع في أودية الضَّلالات خصوصًا ما ينافي أصل التَّوحيد والإيمان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «شرط تعالىٰ في الإيمان عدم الرّيب، وهو الشَّكُّ؛ لأنَّ الإيمان النَّافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شكٌّ بوجه من الوجوه».

والنَّاس متفاوتون في حظِّهم من التَّوحيد، منهم من في قلبه مثقال ذرَّة، ومنهم من يكون توحيده بإيمان الأمَّة كلها كأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والأساس في تفاضل المؤمنين في إيمانهم اليقين، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢): «اليقين: الإيمان كُلُّهُ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «لهذا السَّبب يتفاوت النَّاس في الإيمان حتَّىٰ ينتهي إلىٰ أدنىٰ مثقال ذرَّة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلىٰ ضعف البصيرة والصَّبر، ولهذا مدح الله

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٨٥٢).

(٢) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب الإيمان، باب قول النَّبي ﷺ: «**بُني الإسلام علىٰ خمس**» (ص٥).

(٣) الجواب الكافي (ص٨٥).

سبحانه أهل الصَّبر واليقين، وجعلهم أئمَّة الدِّين، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «متىٰ وصل «اليقين» إلىٰ القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفىٰ عنه كل ريب وشكٍّ، وسخط، وهمّ وغمّ؛ فامتلأ محبَّة لله، وخوفًا منه ورضًىٰ به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابةً إليه، فهو مادَّة جميع المقامات»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**(٢): «اليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقيَّة، وهو قطب هذا الشَّأن الذي عليه مداره».

والناس يتفاضلون في علم اليقين وعين اليقين، وأعظم الناس رتبةً في ذلك رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»، متَّفق عليه من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والشخص الواحد يتفاوت يقينه علمًا وعينًا بحسب أحواله من حضور القلب وزيادة الإيمان، قال حنظلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ: «**إذا كنَّا عندك كأنَّما نرىٰ الجنة والنار رأي العين**»، رواه البخاري ومسلم.

أما بالنسبة لإدراك مرتبة حقِّ اليقين فقد أدركها في الدنيا بعض الخلق في بعض الحقائق، ويوم القيامةُ تدرك الحقائق عينًا ويقينًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الدَّرَجَةَ - حقَّ اليقين - لَا تُنَالُ فِي

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٢١).

(٢) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٢٠).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٦).

هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا لِلرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ -؛ فَإِنَّ نَبِيَّنَا ﷺ رَأَىٰ بِعَيْنِهِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعَ كَلَامَ اللهِ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا، وَتَجَلَّىٰ لِلْجَبَلِ وَمُوسَىٰ يَنْظُرُ، فَجَعَلَهُ دَكًّا هَشِيمًا.

نَعَمْ، يَحْصُلُ لَنَا حَقُّ الْيَقِينِ مِنْ مَرْتَبَةٍ، وَهِيَ ذَوْقُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُلُوبِ وَأَعْمَالِهَا؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا بَاشَرَهَا وَذَاقَهَا صَارَتْ فِي حَقِّهِ حَقَّ يَقِينٍ.

وَأَمَّا فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ وَالْمَعَادِ، وَرُؤْيَةِ اللهِ جَهْرَةً عِيَانًا، وَسَمَاعِ كَلَامِهِ حَقِيقَةً بِلَا وَاسِطَةٍ - فَحَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ: الْإِيمَانُ، وَعِلْمُ الْيَقِينِ. وَحَقُّ الْيَقِينِ يَتَأَخَّرُ إِلَىٰ وَقْتِ اللِّقَاءِ».

ويقين الإيمان يتفاضل الموحِّدون فيه، فمنهم من بلغ فيه علم اليقين، ومنهم من إيمانه عين اليقين.

فالتَّوحيد تحقيقه أن تكون مقبلًا علىٰ الله مائلًا عن سواه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحقِّ، وتُثْبت في قلبه ألوهية الحق. فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، ومُثبتًا لألوهية ربِّ العالمين، رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه، فيكون مُفرِّقًا - في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبَّته - بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله - تعالىٰ - ذاكرًا له، عارفًا به.

(١) العبوديَّة (ص١١٥).

وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه وانفراده عنهم، وتوحُّده دونهم.

ويكون مُحبًّا لله، مُعظِّمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، مُحبًّا فيه، مواليًا فيه، معاديًا فيه، مستعينًا به، متوكِّلًا عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره. والتوكل عليه والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والطاعة لأمره وأمثال ذلك؛ مما هو من خصائص إلهيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإقراره بألوهية الله تعالىٰ دون ما سواه يتضمَّنُ إقراره بربوبيته، وهو أنَّه ربُّ كل شيء ومليكه، وخالقه، ومدبِّرُهُ؛ فحينئذ يكون موحِّدًا لله».

وتحقيق التَّوحيد أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ أحبَّ إلىٰ المؤمن ممَّا سواهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إخلاص الحُبِّ لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكُلُّ ما سواه إنَّما يُحبُّه لأجله، لا يُحبُّ شيئًا لذاته إلا الله. فمتىٰ لم يحصل له هذا لم يكن قد حقَّق حقيقة «لا إله إلا الله»، ولا حقَّق التوحيد والعُبُوديَّة والمَحبَّةَ لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان - بل من الألم والحسرة والعذاب - بحسب ذلك».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الله تعالىٰ إنَّما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا

(١) العبوديَّة (ص٨٧، ٨٨).

(٢) مدارج السَّالكين (١/ ٨٥، ٨٦).

يحب معه سواه، وإنَّما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه؛ فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنَّما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالىٰ اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فجعل اتباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا كان الحبُّ أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حبُّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، كما أنَّ أصل الأقوال الدينية تصديق الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ.

وكلّ إرادة تمنع كمال الحبِّ لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وتزاحم هذه المحبة، أو شبهةٍ تمنع كمال التصديق؛ فهي معارِضة لأصل الإيمان أو مُضْعِفة له.

فإنْ قويت حتىٰ عارضت أصلَ الحبّ والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبرَ، وإنْ لم تعارضه قدحتْ في كماله، وأثّرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكس الراغب».

وقال ابن القيِّم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إِنَّ مُتَابَعَةَ الرَّسُولِ ﷺ هِيَ حُبُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

---

(١) الجواب الكافي (ص٤٥٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٤).

وَرَسُولِهِ ﷺ، وَطَاعَةُ أَمْرِهِ، وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي الْعُبُودِيَّةِ حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَتَىٰ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُمَا فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْبَتَّةَ، وَلَا يَهْدِيهِ اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فَكُلُّ مَنْ قَدَّمَ طَاعَةَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ قَوْلَ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ قَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ مَرْضَاةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَرْضَاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ خَوْفَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَرَجَاءَهُ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ عَلَىٰ خَوْفِ اللهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، أَوْ مُعَامَلَةَ أَحَدِهِمْ عَلَىٰ مُعَامَلَةِ اللهِ؛ فَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَإِنْ قَالَهُ بِلِسَانِهِ فَهُوَ كَذِبٌ مِنْهُ، وَإِخْبَارٌ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَدَّمَ حُكْمَ أَحَدٍ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَذَلِكَ الْمُقَدَّمُ عِنْدَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ».

وسيد الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسوة الموحدين، أعظم الخلق توحيدًا، بلغ الرتبة العلية في تحقيق التوحيد لخلوص قلبه لله وحده لا شريك له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قَدْ أَثْنَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلِيلِهِ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

---

(١) الجواب الكافي (ص ٢٨٢، ٢٨٣).

وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ، وَفِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الْمَعَادِ.

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّىٰ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًىٰ يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ.

وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ».

والمتحقق بالتوحيد هو الذي أدىٰ حق الله وحق عباده، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]. فأداء حق المخلوق هو من تحقيق التوحيد، تعظيمًا لمن أمر بذلك، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»(١)، فتعظيم حق المخلوق من تعظيم حق الله الذي أمر به، قال النبيُّ ﷺ: «**إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم**»، رواه أبو داود(٢).

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٤)، وصحَّحه العلَّامة الألباني.

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده حسن»، التلخيص الحبير (٢/ ١١٨).

والمتحقق بالتوحيد هو الذي تحقق بشعب الإيمان، وقدره في الإيمان بحسب تحققه بشعبه.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسُننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان».

فشرائع الإسلام وشعب الإيمان هي تفصيل لكلمة التوحيد ومستلزمة له، وشعب الإيمان وشرائع الإسلام ما فرضها الله عَزَّوَجَلَّ إلا لإخلاص التوحيد له وحده لا شريك له، وليحقق المؤمنون عبوديتهم لله وحده.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**التَّوْحِيدُ** الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَعَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، **الشَّرَائِعُ كُلُّهَا تَفَاصِيلُهُ وَحُقُوقُهُ**، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ الَّذِي لَا سَعَادَةَ لِلنُّفُوسِ إِلَّا بِالْقِيَامِ بِهِ - عِلْمًا وَعَمَلًا، وَحَالًا - وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَحْدَهُ أَحَبَّ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَخْوَفَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَرْجَىٰ لَهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَيَعْبُدُهُ بِمَعَانِي الْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِمَا يُحِبُّهُ هُوَ وَيَرْضَاهُ، وَهُوَ مَا شَرَعَهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، لَا بِمَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ وَيَهْوَاهُ».

فالمتحققون بالتوحيد هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «نصيب العبد من الإيمان

---

(١) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بُني الإسلام علىٰ خمس**»، (ص٤).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣١٣).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (ص ٣٥٠، ٣٥١).

بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلَّةً وكثرةً، وقوَّةً وضعفًا، وتكميلًا وضدَّه، وهي ترجع إلىٰ تصديق خبر الله ورسوله ﷺ، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما».

المتحقق بالتوحيد هو الذي تحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يكون العبد متحققًا بـ«إياك نعبد» إلَّا بأصلين عظيمين: **أحدهما**: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَاتِحَة الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَتَأَمَّلْ مَا فِي قَوْلِهِ ﴿إِيَّاكَ﴾: التَّخْصِيصُ لِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، وَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿نَعۡبُدُ﴾ الَّذِي هُوَ لِلْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، وَلِلْعِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنَ اسْتِيفَاءِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، حَالًا وَاسْتِقْبَالًا، قَوْلًا وَعَمَلًا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَالِاسْتِعَانَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِهِ لَا بِغَيْرِهِ، وَلِهَذَا كَانَتِ الطَّرِيقُ كُلُّهَا فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ»[٢].

والتحقق بالتوحيد سبقت به القرون المفضلة من بعدهم، قال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

التحقق بالتوحيد يكون بصحة القصد والإخلاص لله وحده لا شريك له، وبسلوك صراطه المستقيم الذي أمر الله باتباعه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٣).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٦).

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «تَمَامُ الْعُبُودِيَّةِ: أَنْ يُوَافِقَ الرَّسُولَ ﷺ فِي مَقْصُودِهِ وَقَصْدِهِ وَطَرِيقِهِ؛ فَمَقْصُودُهُ: اللهُ وَحْدَهُ، وَقَصْدُهُ: تَنْفِيذُ أَوَامِرِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي خَلْقِهِ، وَطَرِيقُهُ: اتِّبَاعُ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ. فَصَحِبَهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ لَحِقُوا بِهِ، ثُمَّ جَاءَ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَمَضَوْا عَلَىٰ آثَارِهِمْ.

ثُمَّ تَفَرَّقَتِ الطُّرُقُ بِالنَّاسِ، فَخِيَارُ النَّاسِ: مَنْ وَافَقَهُ فِي الْمَقْصُودِ وَالطَّرِيقِ، وَأَبْعَدُهُمْ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ ﷺ مَنْ خَالَفَهُ فِي الْمَقْصُودِ وَالطَّرِيقِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الشِّرْكِ بِالْمَعْبُودِ، وَالْبِدْعَةِ فِي الْعِبَادَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَافَقَهُ فِي الْمَقْصُودِ وَخَالَفَهُ فِي الطَّرِيقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَافَقَهُ فِي الطَّرِيقِ وَخَالَفَهُ فِي الْمَقْصُودِ».

المتحقق بالتوحيد هو الذي قام به علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا، فمن قام به في خاصة نفسه ليس كمن قام به وعلَّمه ودعا إليه وجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد بعلمه لبيان التوحيد ورد شبهات المشركين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «لَا رَيْبَ أَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ يَتَفَاوَتُونَ فِي تَوْحِيدِهِمْ - عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَحَالًا - تَفَاوُتًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ تَوْحِيدًا: الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ أَكْمَلُ فِي ذَلِكَ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَكْمَلُ تَوْحِيدًا، وَهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ، وَمُحَمَّدٌ،

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٧٤).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٧٧).

صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا: الْخَلِيلَانِ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا -، فَإِنَّهُمَا قَامَا مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمَا - عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَحَالًا، وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ وَجِهَادًا -، فَلَا تَوْحِيدَ أَكْمَلُ مِنَ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَدَعَوْا إِلَيْهِ، وَجَاهَدُوا الْأُمَمَ عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ - ﷺ - أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِيهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ - بَعْدَ ذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ وَمُنَاظَرَتِهِ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ وَصِحَّةِ التَّوْحِيدِ، وَذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ - ثُمَّ قَالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠]. فَلَا أَكْمَلَ مِنْ تَوْحِيدِ مَنْ أُمِرَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ.

وَلَمَّا قَامُوا بِحَقِيقَتِهِ - عِلْمًا وَعَمَلًا وَدَعْوَةً وَجِهَادًا - جَعَلَهُمُ اللهُ أَئِمَّةً لِلْخَلَائِقِ، يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ، وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معنى التحقق بالتوحيد**[1]: «التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ - مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الِانْقِيَادِ لِطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ - مَا يَحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ الْمَعَاصِي، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا عَرَفَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»، وَقَوْلَهُ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٠).

وقال ابن القيِّم متمِّمًا شرحه[١]: «الشَّارِعُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ؛ فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاحِدِينَ لَهَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ.

وَقَوْلُ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، وَالتَّصْدِيقِ بِهَا، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ - مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ، والْمُخْتَصَّةِ بِهِ، الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامُ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِالْقَلْبِ: عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا، وَحَالًا - مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَىٰ النَّارِ».

المتحقِّق بالتوحيد هو الصابر في الضرَّاء الشاكر في السرَّاء، قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كلَّه له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»، رواه مسلم من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقوله ﷺ: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» فيه دليل علىٰ أنَّ من تحقَّق بالإيمان والتوحيد كان صابرًا شاكرًا مهما تغيَّرت به الأحوال، ومن حكمة الله في تكليف عباده ابتلاؤهم بالسراء والضراء ليستخرج بها عبوديتهم مع اختلاف الأحوال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٠، ٢٧١).

المتحقِّق بالتوحيد هو من كان قلبه دائمًا متوجِّهًا إلىٰ ربه، يقصده في أحواله كلها، به يصبح ويُمسي، وبه يستعين، يلجأ إليه في كل الأحوال والأوقات، يستشعر معية ربِّه، فهو الذي يُدبِّر ويرزق وينصر، ويُيسر الأسباب ويزيل الصعاب، وإذا سعىٰ المتحقِّق بالتَّوحيد في حوائجه بذل الأسباب بجوارحه وقلبه معلَّق بربِّهِ دائمًا.

فالمتحقق بالتوحيد هو المستعين بربِّه أوَّلًا، استعانة التجاء قلبه إلىٰ ربه قبل لسانه وجوارحه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ ﴿مُلْتَحَدًا﴾[1]: «ملجأً، ومعدلًا تميل إليه».

فاحذر أيُّها المسلم أن تكون ممن لا يلتفت قلبه إلىٰ ربه إلا إذا أيس من خلقه، قال الحافظ أبو بكر الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الصنف[2]: «إن نابته نائبة سبق إلىٰ قلبه الفزع إلىٰ العباد والاستعانة بهم، يطلب من ربه الفرج إذا أيس من الفرج من قبل الخلق».

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كان النبيُّ ﷺ وغيره من المؤمنين يلجؤون إلىٰ الله تعالىٰ عند الشدائد، فقد جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ

---

(١) رموز الكنوز (٤/ ٢٧٣).

(٢) أخلاق العلماء (ص١٣٤).

(٣) شرح كتاب التوحيد (ص٥٥)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.

وعنده أصحابه، وقد علَّق سيفه علىٰ شجرة، فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: يمنعني الله، ولم يقل: أصحابي، وهذا هو تحقيق الربوبية».

والنبيون - عليهم السلام - أكمل الناس توحيدًا، إذا وقع حكم الله الكوني خلاف ما ظنوه أنابوا إلىٰ الله بالتوحيد، فالحكم لله العليِّ الحكيم.

قال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فالمتحقق بالتوحيد هو الذي يصبر لحكم الله اختيارًا لا اضطرارًا.

الموحِّدون ذاقوا في هذه الدُّنيا من ثمرات تحقيق التَّوحيد ما زادهم إقبالًا علىٰ الله وإخلاصًا له وتجريدًا للتَّوحيد من شوائب الشِّرك، وأدركوا من معاني ذلك شعورهم بمعيَّة الله وقربه لهم، ما تحقَّقوا معه أنَّهم يدعون الإله الحقَّ، وما أوجب لهم مفارقة الشِّرك والمشركين، قال إبراهيم الخليل سيِّد الحنفاء عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مخاطبًا أباه والمشركين: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨].

ومن ذلك مقامات نبي الله يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في حسن الظَّنِّ بالله، وكان في مقاماته كلِّها متوكِّلًا علىٰ مولاه صابرًا راجيًا رحمة ربِّه، وقال مبيِّنًا أنَّ موجب ذلك الإيمان بالله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، حتىٰ إذا تحقَّق حصول فرج الله قال لبنيه: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

وكل المتحقِّقين بالتَّوحيد من عباد الله المصطفين عرفوا قرب ربِّهم منهم، وعبدوه بأحبِّ العبادات والطَّاعات إليه، وهو التضرُّع والخضوع والابتهال إليه؛

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من وجد حقيقة الإخلاص، والتوكُّل علىٰ الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلُّق بما سواه، وجرَّب من نفسه أنه إذا تعلَّق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرَّة؛ فإنه يُخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم؛ فلا ينفعونه: إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه. وإذا توجَّه إلىٰ الله بصدق الافتقار إليه واستغاث به مخلصًا له الدِّين؛ أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة؛ فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكُّل والدعاء لله ما لم يذق غيره، وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدِّين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك».

والمسلمون من تحقيقهم للتَّوحيد لا يقدِّمون بين يدي الله ورسوله، والمشركون والمبتدعون استبدلوا الكفر بالإيمان بتقديم أفكارهم الضالَّة وآرائهم المبطلة علىٰ كلام الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ورفع المشركون والمبتدعون أصواتهم بالصراخ بشركهم وبدعهم وبوساوس وزخارف قول شياطينهم علىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ؛ فدانوا بالشرك واعتقدوه ونصروه؛ فأحبط الله أعمالهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٧/ ١٧٧، ١٧٨).

أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحُجُرات: ٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من الأدب معه أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته، فإنَّه سبب لحبوط الأعمال، فما الظنُّ برفع الآراء ونتائج الأفكار علىٰ سنَّتِهِ وما جاء به؟

أترىٰ ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الأصوات فوق صوته موجب لحبوطها!».

المتحقق بالتوحيد هو المتحقق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمَّدًا رسول الله ﷺ علمًا وعملًا، وهو الذي عرف حق الله فأداه، وعرف شريعة الله التي بلغها رسول الله ﷺ فاتبعها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل من كان أعظم علمًا، وإيمانًا؛ كان أقوم بالتوحيد، وأتبع للسنة، وأبعد عن الشرك والبدعة؛ فإن التوحيد والسنة هو الإسلام، وهو حقيقة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله، فالشهادة الأولىٰ تحقيق التوحيد، والشهادة الثانية تحقيق الرسالة، التي توجب اتباع شريعته، وأن نعبد الله بما أمر به وشرعه، دون ما نهىٰ عنه أو لم يشرعه؛ قال أبو العالية في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحِجر: ٩٢، ٩٣] قال: هما خلتان يُسأل عنهما كل أحد: ماذا كنتم تعبدون؟ وبماذا أجبتم الرسل؟

ولهذا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان قائمين بهاتين الشهادتين، لم نجد أحدًا منهم يأمر بدعاء أهل القبور، ولا بالسفر إليهم، بل هم كما قال الله:

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣١٤).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشرك والنفاق (ص١٤٠، ١٤١).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

والصلاة هي دعاء الله؛ دعاء عبادة، ودعاء مسألة، فإذا قُصد صاحب القبر لأن يُدعىٰ، دعاء عبادة أو دعاء مسألة؛ فقد صارت الصلاة له، وإذا قصد السفر إليه؛ فقد جُعل النسك له».

❁ ❁ ❁

علم الكفار الأولين بحقيقة التوحيد منعهم من الإسلام

نادىٰ ضُلَّال المشركين المعاصرين علىٰ أنفسهم بالجهل؛ حيث لم يفقهوا معنىٰ وحقيقة كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» الذي علمه المشركون الأولون من معناها الذي منعهم من الانقياد والإذعان لها وتحقيقها.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الْكُفَّارُ الْجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ: إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالتَّعَلُّقِ بِهِ، وَالْكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَالْحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: «لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللهُ».

فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَىٰ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»».

وهذا فيه بيان عظيم جهل المشركين المعاصرين؛ حيث اتخذوا آلهة مع الله

---

(١) كشف الشبهات (ص٩، ١٠).

وهم جاهلون أو مغالطون مكابرون بأنَّهم مبطلون لحقيقة «لا إله إلا الله»، حيث قصدوا غير الله وتوجهت قلوبهم وألسنتهم إلىٰ غيره بالمسألة والدعاء.

أما المشركون الأولون فاستكبروا عن توحيد الله، وأبوا الانقياد لإله واحد، وأبوا إفراده وحده بالعبادة والدعاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

وهذا الحال الشركي يتناول كل من جعل مع الله آلهة أخرىٰ واتخذ الأنداد، فإذا أمره ورثة الأنبياء ودعاة الإسلام بالتوحيد، ونهوه عن عبادة غير الله أو الشرك به؛ استكبر وأصرَّ علىٰ شركه؛ فهو كذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا تَتَنَاوَلُ «الشِّرْكَيْنِ»: الْأَصْغَرَ وَالْأَكْبَرَ وَتَتَنَاوَلُ أَيْضًا مَنِ اسْتَكْبَرَ عَمَّا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ تَحْقِيقِ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَكُلُّ مَا يُعْبَدُ بِهِ اللهُ فَهُوَ مِنْ تَمَامِ تَأَلُّهِ الْعِبَادِ لَهُ، فَمَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ بَعْضِ عِبَادَتِهِ سَامِعًا مُطِيعًا فِي ذَلِكَ لِغَيْرِهِ؛ لَمْ يُحَقِّقْ قَوْلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فِي هَذَا الْمَقَامِ».

فالذي منع المشركين الأولين من توحيد الله؛ هو فرحهم بشركهم الذي ورثوه عن آبائهم، وإلفهم اتخاذ الأنداد مع الله، ورغبتهم عن التوحيد إلىٰ الشرك؛ اتباعًا للهوىٰ وطاعة للشيطان.

قال تعالىٰ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ

(١) الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٤٣).

ﭐلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ [ص: ٤، ٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أَيْ: أَزَعَمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟ أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ - قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ - وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ بِاللهِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ اللهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ؛ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا، وَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥]».

ودلالة كلام شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة تحثُّ علىٰ طلب معنىٰ «لا إله إلا الله»، والتدين بها، تحقيقًا للعبودية لله وحده، وتجريدًا للإخلاص إليه، وبذلك يسلم المسلم من الشرك وشُعبه، ويجتنب كبر المشركين الذين أنِفوا من التوحيد، وضلال من أشرك بالله وهو يظن أنَّه من المسلمين الموحدين.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

ولا يجوز للمسلم أن يكون حاله كالمشركين والكافرين، إما استكبار عن الانقياد للحق، أو إعراض عن طلب الحق وتعلمه والعمل به، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

قال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كل من عقل عن الله يعلم علمًا ضروريًّا أنَّ المقصود من الشهادتين ما دلَّتا عليه من الحقيقة

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧١).

(٢) مصباح الظَّلام (ص١٦١).

والمعنىٰ، وما اشتملتا عليه من العلم والعمل، وأما مجرَّد اللفظ من غير علم بمعناهما ولا اعتقاد لحقيقتهما؛ فهذا لا يفيد العبد شيئًا، ولا يخلِّصه من شعب الشرك وفروعه.

قال الله تعالىٰ: ﴿**فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿**إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦].

فالإيمان بمعناهما والانقياد له لا يتصوَّر ولا يتحقَّق إلَّا بعد العلم».

والمقصود من هذا التبيين وهذا التوجيه النصيحة للمسلمين بأن يأخذوا دينهم بالتعلُّم، لا بالتقليد بالباطل، وشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلاميذه أئمة الدعوة لا يريدون من أحد تقليدهم، وإنَّما نصيحتهم للمسلمين بالتدين عن علم، وبتلقي هذا العلم من معينه الصافي كتاب الله وصحيح ما يروىٰ من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، بفهم صحابة رسول الله ﷺ الذين تلقوا معاني الدين ونصوص القرآن والسنة من رسول الله ﷺ، وهم أنصح الخلق وأفصحهم، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾**﴾ [النساء: ١١٥]، وإنه لمن الحسرة علىٰ أحوال المسلمين أن تجدهم يصلون ويصومون وفيهم من يتبرك بالحجر والشجر، وفيهم من يدعو ويستغيث بغير الله.

هداية هؤلاء وتعليمهم العلم هو من الشفقة والرحمة والإحسان إلىٰ المسلمين.

قال تعالىٰ: ﴿**إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ**﴾ [فاطر: ١٠]، قال

الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «"الكلم الطيب": التوحيد والثناء على الله تعالىٰ. قال علي بن المديني: "الكلم الطيب": لا إله إلا الله، و"العمل الصالح": أداء الفرائض واجتناب المحارم.

وفي هاء «يرفعه» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلىٰ الكلم الطيب، والعمل الصالح هو الرافع؛ قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير رحمهم الله.

المعنىٰ: أن هذه الكلمة الطيبة التي هي «لا إله إلا الله» لا تصعد إلىٰ السماء فتكتب حيث تُكتب الأعمال المتقبلة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها.

وكان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** يُعرض القول علىٰ الفعل، فإن وافق القول الفعل قُبِلَ، وإن خالفه رُدَّ.

القول الثاني: أنها تعود إلىٰ العمل الصالح، والكلام الطيِّب هو الرافع؛ لأنه لا يُتقبل عملٌ إلا من مُوحِّدٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يريد: الذين يتَّقُون الشرك. وهذا عكس القول الأول.

القول الثالث: أنَّها تعود إلىٰ الله تعالىٰ، علىٰ معنىٰ: يرفعه الله تعالىٰ لصاحبه. قاله قتادة والسدي.

ويؤيد القولين الثاني والثالث قراءة من قرأ: [والعملَ الصالِحَ] بالنصب».

فتبيين معنىٰ التَّوحيد والتَّحذير ممَّا يضادُّه هو من أوجب الواجبات المتحتِّمات

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧).

علىٰ العالمين بمعناهما.

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يجوز لأي من ينتسب للإسلام أن يرجع إلىٰ حال الجاهلية، وإلىٰ الشرك بالله، وإلىٰ عبادة الأوثان والأشجار والأصنام والقبور، يجب الحذر من هذا.

ويجب علىٰ العلماء أن يبيِّنوا هذا بكل ما يستطيعون؛ كتابةً، وإذاعةً، وخطابةً، في المساجد، وفي المناسبات، دائمًا، دائمًا، دائمًا، حتىٰ يرتدع الناس، وحتىٰ ينتبه الناس من هذا البلاء العظيم والشرك الوخيم.

ومن المصائب أن كثيرًا ممن ينتسب للعلم هو الداعي إلىٰ هذا الباطل والشرك لجهله، يُنسب إلىٰ العلم وهو أجهل من حمار أهله، فيدعو إلىٰ الشرك بالله، ويدعو للنذر للبدوي، ويُزيِّن هذا للعامة لجهله وضلاله وقلة بصيرته، مع أنَّ العامة ينسبون له العلم، وهو أجهل منهم، لا حول ولا قوَّة إلا بالله، نسأل الله العافية والسلامة».

❁ ❁ ❁

---

(١) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص١١٦).

الفرح بالهداية للتوحيد والخوف من الشرك

بعد أن ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ التوحيد، ودعوة الرسل إليه، وما أصاب كثيرًا من الناس من الجهل بمعنىٰ التوحيد، وعظنا بالوسطية بمعرفة نعمة الله وفضله بالهداية للتوحيد، والخوف أيضًا من الشرك، وفي هذا حثٌّ لشكر الله علىٰ نعمه وأعظمها نعمة التوحيد، وفيه أيضًا حثٌّ علىٰ حفظ التوحيد بملازمة تعلمه وتعليمه وتعاهده بالحفظ والتجديد، وتعاهد المسلمين بتبيينه والدعوة إليه.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إِذَا عَرَفْتَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ - معنىٰ التوحيد - مَعْرِفَةَ قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبُ النَّاسِ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا، أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ:

الْأُولَىٰ: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١) كشف الشبهات (ص١٠، ١١).

وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ».

وما خافه الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذريته من الشرك قد وقع من بعض ذريته خصوصًا في الموضع الذي بنىٰ فيه الخليل الكعبة؛ فإنَّ أهل مكَّة والعرب من حولهم في جزيرة العرب كانوا علىٰ ملة إبراهيم، وذهب سيد مكة عمرو بن لحي الخزاعي إلىٰ البلقاء من أرض الشام، وجلب الأصنام إلىٰ مكة فعُبدت، ونُصبت الأصنام بعد ذلك حول الكعبة، وقاتل المشركون دونها، واندرس العلم، وأفسد عمرو الخزاعي ملة إبراهيم في جزيرة العرب، فبعث الله رسوله محمَّدًا ﷺ يُجدِّد ملة إبراهيم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**رأيت عمرو بن لحي يجرُّ قصبه في النار**»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ العرب كانوا علىٰ ملة أبيهم إبراهيم علىٰ شريعة التوحيد، والحنيفيَّة السمحة، دين أبيهم إبراهيم.

فتشبهوا بعمرو بن لحي - وكان عظيم أهل مكة يومئذ؛ لأن خزاعة كانوا ولاة البيت قبل قريش، وكان سائر العرب متشبهين بأهل مكة؛ لأن فيها بيت الله، وإليها الحج، ما زالوا مُعظِّمين من زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -، فتشبه عمرو بمن رآه في الشام، واستحسن بعقله ما كانوا عليه، ورأىٰ أن في تحريم ما حرَّمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، تعظيمًا لله ودينًا، فكان ما فعله أصل الشرك في العرب، أهل دين إبراهيم، وأصل تحريم الحلال، وإنَّما فعله متشبهًا فيه بغيره من أهل الأرض، فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتىٰ غلب علىٰ أفضل الأرض

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٩).

الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وتغيّر دينه الحنيف، إلىٰ أن بعث الله رسوله ﷺ، فأحيا ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأقام التوحيد، وحلَّل ما كانوا يحرِّمونه».

والشِّرك الذي أصاب الناس في جزيرة العرب أعظم موعظة للموحِّدين للحذر منه.

والنبيُّ ﷺ وهو يُودِّع أمَّته حذّرها شرك اليهود والنصارىٰ خصوصًا اتخاذ القبور مساجد، كُلُّ هذا خوفًا علىٰ أمته أن تقع في الشرك الذي وقع فيه اليهود والنصارىٰ، وقد وقع هذا النوع من الشرك في أمته بعد القرون الفاضلة.

وهذا يوجب للناصح لنفسه ولأمة الإسلام الدعوة للتوحيد وتعليمه، وتحذير الناس من الشرك، كما فعل النبيُّ ﷺ حيث علَّم التوحيد وحذَّر من الشرك.

وواجب المسلم طلب علم ما يلزمه في دينه حتىٰ يوافي ربه بما يوجب له دخول الجنَّة، فالتوحيد أول ذلك وأساسه الذي تُبنىٰ عليه كل الأعمال والعبادات التي توجب دخول الجنة، فالناصح لنفسه هو الذي يسعىٰ في بناء هذا الأساس علىٰ حقيقة الإخلاص، ويحفظه ويدرأ عنه أدران الشرك وشوائب الرياء، وشبهات المشركين دعاة الاستغاثة بغير الله والتوكل علىٰ الموتىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩]، فمن كان يرجو لقاء الله فليُحقق الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جِماع الدِّين أصلان: أَلا نعْبد إِلَّا الله وَلَا نعبده إِلَّا بِمَا شرع، لَا يُعبد بالبدع؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيق الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَشَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ».

وأمة الإسلام إذا تحققت بكلمة التوحيد اعتقادًا وعملًا ودعوةً، عاشت في عز الإسلام، وأورثها الله الحياة الطيبة، وتولاها الله حفظًا ونصرةً وكفايةً ورزقًا وتدبيرًا.

والمسلم الذي عاش للحكمة التي خلقه الله لها ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، يعيش في هذه الدنيا بعبودية الله مجتنبًا الشرك بأنواعه، دقَّه وجلَّه، صغيره وكبيره، ما كان منه في الإرادات والنيَّات والأقوال، وكذلك ما كان من الأعمال، مجتنبًا البدع والإثم ما ظهر منه وما بطن؛ سالكًا صراط ربه المستقيم الذي يسير بمن اتبعه إلىٰ الجنَّة، وهذا كله يوجب علىٰ المسلم معرفة الصراط ليسلكه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالله الله في أساس دينك أيُّها المسلم؛ فتعلمه واعمل به، لا يكن حظُّك من شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»، اعرف حق الله الذي أوجبه عليك، قال النبيُّ ﷺ: «**حقُّ الله علىٰ العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئًا**»، متفق عليه.

الإخلال بحق الله أعظم الظلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾

(١) العبودية (ص١٤٥).

[لقمان: ١٣]، وسأل عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ النبيَّ ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، رواه مسلم.

والمقصود أيها المسلم أن يكون لهذه الكلمة «أشهد أن لا إله إلا الله» قدرها في قلبك، تعرفها حقًّا، وتحيا بها، وتموت عليها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فهذه الكلمة هي حقيقة الأمر كله، هي الدين كله، ومن أجلها خُلقت الدنيا، والثواب بدخول الجنة هو لمن حقَّقها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «حياة الروح بحياة هذه الكلمة «لا إله إلا الله» فيها، كما أنَّ حياة البدن بوجود الرُّوح فيه. وكما أنَّ من مات علىٰ هذه الكلمة فهو في الجنّة يتقلَّب فيها، فمن عاش علىٰ تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلَّبُ في جنة المأوىٰ، وعيشه أطيب عيش؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]».

والمقصود أيُّها المسلم أن تكون لكلمة «أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله» قدرها في قلبك، تعرفها وتدين بها، فتتدين بالشرع الذي بُعث به رسول الله ﷺ، وتلزم سنَّته، وتحذر البدع المضلة الزائغة عن صراط الله المستقيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «هدىٰ الله الناس ببركة نبوة محمَّد ﷺ، وبما جاء به من البينات والهدىٰ، هداية جلَّت عن وصف الواصفين، وفاقت

---

(١) الجواب الكافي (ص٢٣٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٣، ٥٤).

معرفة العارفين، حتىٰ حصل لأمته: المؤمنين به عُمومًا، ولأولي العلم منهم خصوصًا، من: العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جُمعت حكمة سائر الأمم علمًا وعملًا، الخالصة من كل شوب، إلىٰ الحكمة التي بُعث بها؛ لتفاوَتَا تفاوتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضىٰ».

فأنت أيُّها المسلم شهادتك أنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ توجب عليك الرغبة في سنَّة النبيِّ ﷺ لا الرغبة عنها، وهذا يوجب عليك تعلُّم سنته للأخذ والتدين بها.

قال النبيُّ ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»، متفق عليه.

كن أيُّها المسلم داعيةً للتوحيد، هكذا كانت دعوة النبيِّ ﷺ والصحابة معه والسلف من بعده، هكذا أدوا إلينا الدين، وبهم حُفظ، وبه قام العلماء والدعاة من بعدهم.

كن أيُّها المسلم من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذين قاموا بالملَّة التي بُعث بها، فتكون ممن استجاب الله دعاء إبراهيم فيه حين قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، قال مكيُّ بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: اجعل في ذريتي من يقوم بالحقِّ بعدي».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٦-٢٨].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يزال فيهم من يوحِّد الله

(١) رموز الكنوز (٧/ ١١٤).

تعالىٰ ويدعو إلىٰ التوحيد».

ومن مقامات أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العظيمة في التوحيد، أنه قام خطيبًا في الناس بعد وفاة النبي ﷺ: «**من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ومن كان يعبد محمَّدًا فإن محمَّدًا قد مات**»، رواه البخاري.

وقال الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وهو يستلم الحجر الأسود:** «أما إنِّي لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»، متَّفق عليه.

وقال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لأبي الهياج الأسدي:** «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألا تدع قبرًا مشرفًا إلا سوَّيته، ولا تمثالًا إلا طمسته»، رواه مسلم.

ومن مقامات الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حماية جناب التوحيد وسدِّه ذرائع الشرك؛ أنَّه رأىٰ أقوامًا يقصدون الشجرة التي بايع عندها الصحابةُ النبيَّ ﷺ فقطعها، رواه البخاري.

وهذا من حفظ الفاروق لأديان المسلمين وحمايته لجناب التوحيد؛ لئلا يغلو الناس في الأحجار والأَشجار.

ومن مقامات الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والصحابة معه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بإمرة أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتحوا «تستر» ووجدوا في بيت مال الهرمزان سريرًا، عليه رجل ميِّت، عند رأسه مصحف، فأخذوا المصحف، فحملوه إلىٰ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، وحفر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان الليل دفنوه، وسدُّوا

القبور كلها، قال أبو العالية: لنعمِّيه على الناس فلا ينبشونه(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إسناده صحيح إلىٰ أبي العالية».

هذه مقامات الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في منع أسباب الغلو في قبور الأنبياء والصالحين، والمشركون بضد ذلك من بناء المساجد علىٰ القبور، وجعلها مزارات بتشييدها، والحث علىٰ شد الرحال إليها، وجعلها سببًا للاستغاثة بالموتىٰ، ودعائهم والعبادة عند قبورهم.

فالحاصل أن الخوف من الشرك دليل حياة القلب بالتوحيد، وقد خشي الصحابة علىٰ أنفسهم من النفاق، فمن يأمنه بعدهم، قال ابن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أدركت ثلاثين من أصحاب محمَّد ﷺ كلهم يخشىٰ علىٰ نفسه النفاق».

الشرك داعيته إبليس، وقد أرصد نفسه لحرب بني آدم ما دام حيًّا، فلا تغفل عن هذه الحرب، فاحذر الشرك وخافه ما دمت حيًّا، ومن استعان بالله أعانه ومن استهداه هداه، قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والشرك خشيه النبيُّ ﷺ علىٰ صحابته، فمن يأمنه بعدهم؟! فقد قال النبيُّ ﷺ لأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسُئل عنه؛ فقال: «**الرياء**»، رواه أحمد.

(١، ٢) البداية والنهاية (٢/ ٣٧٧).

(٣) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به ، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (ص١١).

وقد اعتنىٰ شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الأمر عناية عظيمة، أبدىٰ في مصنفاته وأعاد في التحذير من الشرك، وفي كتاب التوحيد جعل له بابًا خاصًّا «باب الخوف من الشرك».

والنبيُّ ﷺ حذَّر من الشر بأنواعه وأعظم ذلك الشرك، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»، فهذا يوجب لكل مسلم حراسة دينه وتعاهده بالحفظ والتجديد، وصيانته عن أسباب الكفر الاعتقادي والعملي.

❁ ❁ ❁

التسلح بالعلم لنصرة التوحيد

كتب شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصنَّف «كشف الشبهات» لإبطال شُبه المشركين، وتثبيتًا لمعنىٰ التوحيد، ودعوته كلها هكذا، يدعو للتوحيد ويُبيِّنه ويشرحه، ويُحذر ممَّا يضاده من الشرك، سالكًا سبيل رسل الله، ومن نصيحته للمسلمين حَثُّه لهم علىٰ طلب العلم؛ لأنَّ هذا من أسباب حفظ أديانهم وعبادتهم لله علىٰ بصيرة، ومن أسباب نصرتهم لحق الله الخالص علىٰ عباده وهو التوحيد.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اعْلَمْ أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَىٰ اللهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ،

(١) كشف الشبهات (ص١٢-١٤).

أَهْلِ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ، الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧)﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَىٰ اللهِ وَأَصْغَيْتَ إِلَىٰ حُجَجِهِ، وَبَيِّنَاتِهِ؛ فَلَا تَخَفْ، وَلَا تَحْزَنْ؛ ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء: ٧٦]».

هذه نصيحة وجهها شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ المسلمين يحثُّهم علىٰ طلب العلم ليعبدوا الله وحده لا شريك له، وينصروا دين الله بالرد علىٰ دعاة الشرك بإبطال شبههم التي يزيّنونها للناس لتثبيت الشرك وإفساد عقيدة الموحدين.

ونصيحته هذه فيها توجيهات قيِّمة لمن حرص وقصد نصرة التوحيد، **الأولىٰ**: وهي أهمُّها: الإقبال علىٰ الله؛ لأنَّ من أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه، ومن قصده بإخلاص وصدق تولاه الله، ويسَّر له أسباب طلب العلم ونصرة التوحيد وإبطال الشرك.

الثانية: الطمأنينة في مواجهة المشركين والمبتدعين؛ لأنَّ الحق ينصره الله، والحق وحي الله من القرآن والسنة، والباطل من الشرك والبدع لا يدلُّ عليه دليل صحيح؛ فالثقة بالله والتوكل عليه والطمأنينة في تلقي العلم ونصرة الحق هي عُدَّة طالب العلم والعالم في مواجهة الباطل، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

الثالثة: العلم بسنة الله الكونية في ابتلاء الحق ودعاته بالباطل ودعاته، فهذا يوجب لك الطمأنينة والثبات على الحق في مواجهة الباطل، ويوجب لك الاستعداد لهذه المواجهة نفسيًّا وذهنيًّا وعلميًّا، فتكون مطمئنًّا بذكر الله والاعتصام به، وتكون مجتهدًا ذهنيًّا في طرق إبطال شبه المبطلين، وتكون مجتهدًا علميًّا في التزود من العلم الذي تنصر به الحق وتنصح به الخلق.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ فيدفع الله بعلماء السنَّة ضلال الشرك والمبتدعين.

فتوكَّل علىٰ الله أيها المسلم في طلبك للعلم ونصرتك للحقِّ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] يُسدِّده الله ويوفقه في محاجَّته عن الحق ونصره، ويهديه الله إلىٰ أقوىٰ الحجج وأقومها وأبينها في نصرة التوحيد وإبطال شبه المشركين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أعظم التوكُّل عليه: التوكُّل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكُّل الرُّسل وخاصَّةِ أتباعهم».

ومن استعان بالله في طلب العلم بنية صالحة، يتعبَّد لله في طلبه للعلم وتعليمه، ويقصد وجه الله في نصرة الحق وإبطال الباطل؛ يسَّر الله له من الأسباب ما يعينه علىٰ ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) الفوائد (ص١٢٥).

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ من جد واجتهد في طلب العلم الشرعيِّ؛ فإنه يحصل له من الهداية والمعونة علىٰ تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسَّر له أمر العلم، فإنَّ طلب العلم الشرعيِّ من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهاد علىٰ تعليم أمور الدين، وعلىٰ ردِّ نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين».

والمسلم عالمًا كان أو طالب علم أو عاميًّا في تبيينه للتوحيد ورده علىٰ المشركين المستعين بالله المتوكِّل عليه؛ هو في عبادة من أجلِّ العبادات، ينصر الحق ويهدي الخلق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فمن جادل بالحق عن الحق فهو في طاعة وعبادة وجهاد علمي من أفضل أنواع الجهاد، ومن جادل بالباطل فهو ضال مضل ساعٍ في إفساد عقائد المسلمين.

قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المجادلة لإثبات الحقِّ وإبطال الباطل واجبة، لكن بشرط أن يكون عند الإنسان علمٌ بما يجادل به».

وقال العلَّامة محمَّد العثيمين أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الجدال المنهي عنه هو جدال المراء الذي يُقصد به المغالبة، أما الذي يُقصد به إثبات الحق فواجب».

ومن الاستعانة بالله طلب الحق من الوحي، فيهتدي دعاة الحق بنور القرآن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٢٥).

(٢، ٣) تفسير سورة الشورىٰ (ص٢٦٩).

والسنَّة بفهم السلف في بيان الحقِّ وإبطال الباطل، فيكونوا من المهتدين الهادين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ومن حقائق التوحيد أن تهتدي بالله ووحيه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «لا يَتمُّ الإيمان إلا بتلقِّي المعرفة من مشكاة النُّبُوَّة، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوىٰ وإرادة الخلق، فيكون عمله مقتبسًا من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصحُّ الناس علمًا وعملًا، وهو من الأئمَّة الذين يهدون بأمر الله ومن خلفاء رسوله ﷺ في أمَّته».

فالمستعين بالله المهتدي بوحيه المتوكِّل عليه يهديه الله للحق ويُوفقه للمحاجَّة عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

فاعتصام المسلم بالكتاب والسنَّة ضمانة له لموافقة الحق ومجانبة الباطل، فالقرآن والسنَّة وحي من الله، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

قال العلَّامة ابن هُبيرة الحنبليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «إن الله تعالىٰ يقضي بالحق ويقوله، فمن أراد أن يوافق ربَّه دائمًا فليكن قوله الحق وعمله الحق».

ومن اهتدىٰ بنور الوحي من القرآن وصحيح الأحاديث عن رسول الله ﷺ بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين تلقوا معاني الوحي من رسول الله ﷺ؛ فقد أخذ بالحق، وبما يكون سببًا لظهور الحقِّ وعلوِّه، وما تكون به كلمة الله هي العليا.

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

---

(١) الفوائد (ص١٢٣).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ١٣٥).

ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ أهل السنَّة في كل مقام أصحُّ نقلًا وعقلًا من غيرهم؛ لأن ذلك من تمام ظهور ما أرسل الله به رسوله ﷺ من الهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدِّين كله، ظهوره بالحجَّة وظهوره بالقدرة».

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلِّقًا علىٰ عبارة شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب**(٢): «نبَّه المؤلف - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ - في هذه الجملة علىٰ فائدة عظيمة، حيث بيَّن أن من حكمة الله - عَزَّوَجَلَّ - أنه لم يبعث نبيًّا إلَّا جعل له أعداءً من الإنس والجن، وذلك أن وجود العدو يمحص الحق ويبيِّنه؛ فإنَّه كلما وُجد المعارض قويت حجة الآخر، وهذا الذي جعله الله تعالىٰ للأنبياء جعله أيضًا لأتباعهم، فكل أتباع الأنبياء يحصل لهم مثل ما يحصل للأنبياء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]، فإنَّ هؤلاء المجرمين يعتدون علىٰ الرسل وأتباعهم وعلىٰ ما جاءوا به بأمرين:

الأول: التشكيك.

الثانية: العدوان.

أما التشكيك، فقال الله تعالىٰ في مقابلته: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لمن أراد أن

---

(١) الاستقامة (ص١٦١).

(٢) شرح كشف الشبهات (ص٦٤، ٦٥).

يضله أعداء الأنبياء.

وأما العدوان فقال الله تعالىٰ في مقابلته: ﴿وَنَصِيرًا﴾ لمن أراد أن يردعه أعداء الأنبياء.

فالله تعالىٰ يهدي الرسل وأتباعهم وينصرهم علىٰ أعدائهم، ولو كانوا من أقوىٰ الأعداء، فعلينا أنْ لا نيأس لكثرة الأعداء وقوَّة من يقاوم الحق؛ فإن الحق كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحقُّ منصورٌ وممتحنٌ فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

فلا يجوز لنا أن نيأس، بل علينا أن نطيل النفس، وأن ننتظر، وستكون العاقبة للمتقين؛ فالأمل دافع قوي للمضي في الدعوة والسعي في إنجاحها، كما أن اليأس سبب للفشل والتأخر في الدعوة».

وأهل السنَّة في جهادهم العلمي بالدعوة إلىٰ التوحيد والردِّ علىٰ الشرك يقومون بواجب النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ وأئمَّة المسلمين وعامتهم، يقصدون حفظ الدين من التحريف والتبديل، وهم في ذلك مشفقون علىٰ أديان المسلمين من أسباب الشرك والبدع التي تحبط الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»، متفق عليه واللفظ لمسلم، فأهل السنة دعاة إلىٰ الحقِّ، يؤدون حق الله وحق عباده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أئمَّة السنة والجماعة وأهل العلم

(١) الرَّدُّ علىٰ البكري (١/ ٣٨٠).

والإيمان، فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة، ويعدلون علىٰ من خرج منها ولو ظلمهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدىٰ والعلم، لا يقصدون الشرَّ لهم ابتداءً؛ بل إذا عاقبوهم وبيَّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم؛ كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا.

فالمؤمنون أهل السنة هم يقاتلون في سبيل الله، ومن قاتلهم يقاتل في سبيل الطاغوت».

وطلب العلم عمومًا وعلم التوحيد خصوصًا يحفظ عليك عقيدتك؛ فإنَّ شياطين الإنس والجن لا يزالون يقذفون بالشبه لإفساد توحيد المسلمين؛ ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، من خلق كذا، حتىٰ يقول له: من خلق الله؟! فإذا وجد ذلك فلينته وليستعذ بالله من الشيطان**»، رواه البخاري.

وانظر كيف أدركت وساوس الشيطان عبد الله بن وهب القرشي رَحِمَهُٱللَّهُ، حتىٰ كادت تُفسد عليه عقيدته في خلق عيسىٰ ابن مريم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فأوجب له ذلك طلب العلم، فصار من كبار علماء الإسلام.

قال عبد الله بن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، فَوَلِعَ بي الشيطان في ذكر عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كيف خلقه الله تعالىٰ؟ ونحو هذا، فشكوتُ ذلك إلىٰ شيخ؛ فقال: ابن وَهْب! قلت: نعم، قال: اطلب العلم. فكان سبب طلبي العلم[1].

فالتوحيد ينصره من تحقق بعلمه، وعرف شبهات المشركين، وكيفية إبطالها، ومن أراد نصرة التوحيد فليأخذ بأسباب ذلك.

قال العلَّامة ابن شاهين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الحق لا يُحقه إلَّا من عرفه، ولا يُبطل الباطل إلا من عرفه، ولا يعرف الحق من الباطل إلا أهل العلم، فعون أهل الحق علىٰ حقهم ودفع أهل الباطل عن باطلهم من أفضل الأعمال، وهو عمل بالقرآن؛ لأنَّ الله يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]».

والمسلم في جهاده العلمي في نصرة الحق يعتصم بالقرآن والسنة، فبهما يهتدي، ومنهما يتعلم بيان الحق ونصرته ونقض الباطل وإزهاقه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إذا تأملت القرآن وتدبَّرته وأعرته فكرًا وافيًا؛ اطلعت فيه من أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع علىٰ ما يشفي ويكفي لمن بصَّره الله وأنعم عليه بفهم كتابه».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٢٤).

(٢) الكتاب اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة (ص٩٧).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٠).

العامِّي من الموحِّدين يغلب الألف من علماء المشركين

أبان شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوة توكُّله علىٰ الله والثقة به في تصديق خبر الله بوعده لأوليائه، وكان من ذلك بشارته للإمام محمد بن سعود بالتَّمكين في الجهاد بالسيف لإقامة التوحيد وتحكيم الشريعة، فقد قال للإمام محمَّد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن شرح له دعوة المرسلين: «هذا الدين الحق من نصره نصره الله»، وقد حصل النصر والتمكين للإمام محمَّد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي أقام الدولة السعودية علىٰ التوحيد وتحكيم الشريعة.

ومن مقامات شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التوكل علىٰ الله والثقة به في الجهاد العلمي؛ ثقته بظهور حجج الموحِّدين علىٰ شبه المشركين.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ أَلْفًا مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: ١٧٣]. فَجُنْدُ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَىٰ الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ».

---

(١) كشف الشبهات (ص ١٤).

وإذا أردت أن تعرف أنَّ الموحِّد يغلب الألف من المشركين؛ فقارن بين معبود الموحِّد الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الخالق المبدي المعيد الذي بيده مقادير الأمور وإليه يرجع الأمر كله، الله الذي له الأمر كله الذي يحيي ويُميت، ويرزق ويمنع، ويعز وينصر ويذل ويضع، وينفع ويضر، وبين معبود المشركين حجارة كان أو شجرة أو مخلوق ميِّت لا يخلق شيئًا، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فحينئذ تعرف أن من يحاجُّ عن حق الله الخالص يغلب ألوفًا ممن يحاجُّ عن عبادة الشجر والحجر والبشر، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وإذا أردت أن تعرف أن الموحِّد يغلب الألف من علماء المشركين؛ فقارن بين حجج الفريقين قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٢، ٨٣]. فالحنفاء أتباع إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ منصورون بنور الوحي يتولَّاهم الله، **قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الإنسان يُنصَر ويَغلِب باتِّباع الرُّسُل».

والمشركون تتولاهم الشياطين مخذولون مهزومون؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) تفسير سورة القصص (ص١٧١).

فعلوم المشركين والضالين لا بركة فيها، لا تهدي إلىٰ الحق ولا تدلُّ عليه.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة، لا خير فيها، وتجد أنَّهم يخاصمون ويجادلون، وينتهون إلىٰ لا شيء، لا ينتهون إلىٰ الحقّ، لأنَّهم لم يقصدوا إلَّا أن ينصروا ما هم عليه».

فدعاة الحق ينصرهم الله سبحانه، ويُظهر بهم دينه الذي اصطفاه الله لخلقه واصطفىٰ له من ينصره؛ قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «مَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ وَعَدَ بِإِظْهَارِهِ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ظُهُورَ عِلْمٍ وَبَيَانٍ وَظُهُورَ سَيْفٍ وَسِنَانٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٩].

وَقَدْ فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ ظُهُورَهُ بِهَذَا وَهَذَا، وَلَفْظُ الظُّهُورِ يَتَنَاوَلُهُمَا؛ فَإِنَّ ظُهُورَ الْهُدَىٰ بِالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ، وَظُهُورَ الدِّينِ بِالْيَدِ وَالْعَمَلِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ظُهُورَ الْإِسْلَامِ بِالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِالْيَدِ وَالْقِتَالِ».

والقرآن كله بيان للتوحيد وذكر لأدلته وإبطال للشرك وردٌّ علىٰ المشركين، والقرآن مهيمن علىٰ ما سواه، فمن أخذ بحججه نصره الله.

---

(١) تفسير سورة البقرة (ص٢/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٧٥).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ العالمَ حقًّا يستظهر بكتاب الله علىٰ كل ما سواه، فيُقدِّمهُ ويحكِّمه، ويجعله معيارًا علىٰ غيره، مهيمنًا عليه، كما جعله الله تعالىٰ كذلك، فالمستظهر به موفَّق سعيد، والمستظهر عليه مخذول شقي».

الشرك مبني علىٰ الكذب والقول علىٰ الله بغير علم، وما كان كذلك فإنَّه ينهار بنيانه إذا قام الموحِّدون بهدم أركانه بالرد علىٰ ضلاله وأكاذيبه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أهل السنة إذا تقابلوا هم وأهل البدعة فلهم نصيب من تقابل المؤمنين والكفار، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إِنَّ السُّنَّةَ - بِالذَّاتِ - تَمْحَقُ الْبِدْعَةَ، وَلَا تَقُومُ لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابَ كُلِّ بِدْعَةٍ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ؛ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَىٰ الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَيُعِينُهُ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَتِهَا إِلَىٰ نُورِ السُّنَّةِ،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠).

(٢) الرد علىٰ البكري (٢/ ٥٩٩).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٠٣).

إِلَّا الْمُتَابَعَةُ، وَالْهِجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ إِلَىٰ اللهِ، بِالِاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَصِدْقِ اللَّجَأِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْهِجْرَةُ إِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، بِالْحِرْصِ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ؛ «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ**»، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

الشرك والبدع من وساوس الشيطان لا يمكن أن يقوم لوحي الله المعصوم المحكم، فهذه ضمانة الموحدين في هزيمة جيوش المشركين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن أقوال المبتدعين**(١): «ليس لهم حجة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ، ولا لهم إمام من سلف الأمَّة وأئمتها، وَإِنَّمَا مبدأ قَوْلهم من أهل الْأَهْوَاء؛ كالروافض والمعتزلة، وحجتهم آراء ضَعِيفَة من جنس قَول الَّذين فِي قُلُوبهم مرض والقاسية قُلُوبهم الَّذين قَالَ الله فيهم: ﴿**لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ**﴾ [الحج: ٥٣]».

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا تتعب ذهنك بهذيان الملحدين؛ فإنَّها عند من عرفها من وساوس الشياطين، وخيالات المبطلين، وإذا طلع فجر الهدىٰ، وأشرقت أنوار النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين؛ والله متم نوره ولو كره الكافرون».

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٢٦٧)، تحقيق محمَّد رشاد سالم.

(٢) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٢٥١، ٢٥٢).

وقال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: ««العامِّي من الموحِّدين» الذي عرف أدلَّة دينه وإن كان ليس بفقيه ولا عالم، ليس المراد العامِّي الجاهل».

وقال العلَّامة ابن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: ««يغلب الألف»، بل الألوف، «من علماء هؤلاء المشركين»، لأنَّ حجج المشركين ترَّهات وأباطيل، ومنامات كاذبة».

❁ ❁ ❁

(١، ٢) شرح كشف الشُّبهات (ص٥٩).

القرآن حُجَّتنا

حثَّ شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على التسلُّح بالعلم لنصرة التوحيد، ونبَّه على نوع السلاح العلمي الذي يتَّخذه طالب العلم لنصرة الحق ونصح الخلق وهو العلم النافع المتلقَّى من القرآن؛ فهذا العلم هو الذي يهدي للحق وينصره.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا، وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فمن اعتصم بالقرآن وجد فيه العلم النَّافع الذي ينصر به الحقّ ويبطل به الباطل، قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القرآن كفيل بردِّ أيّ باطل كان، لكنَّ الأفهام تختلف بالقوَّة والضَّعف، فيُعطى بعض النَّاس من

(١) كشف الشبهات (ص٨٥).

(٢) شرح كشف الشبهات (ص٦١).

القوَّة ما لا يعطاه غيره، ويُعطىٰ بعض النَّاس من التَّوفيق ما لا يُعطاه غيره».

ومن لم يتحقَّق بأنَّ القرآن مشتمل علىٰ بيان الحقِّ وإبطال الباطل، خصوصًا ما يتعلَّق بتوحيد الله؛ فهذا لنقص علمه بمعاني القرآن.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ كلَّ ذي باطل نجد جواب باطله من القرآن، أو نقول ما هو أعمُّ: نجد بيان باطله من الوحي المنزَّل علىٰ محمَّد ﷺ، نأخذه من قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، فما من شُبهة إلىٰ يومنا هذا تَرِدُ إلَّا وفي كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ما يَدْحَضُها، ولكن كما هو معروف ليس كل أحدٍ يُدرِك ذلك، فالسَّيف في يد إنْسَانٍ هو سيف بتَّار يضرب به ويقتل به، هكذا أيضًا الوحي المنزّل علىٰ الرَّسول ﷺ ليس كلُّ أحد يعلمه، ولا كل أحد يستطيع إقامة الحجَّة منه، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، ولهذا سُئل عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هل عندكم شيء من الوحي إلَّا ما في كتاب الله؟ قال: «لا، والذي فلق الحَبَّة وبرأ النَّسمة ما أعلمه إلَّا فَهْمًا يُعْطيه الله رَجُلًا في القرآن، وما في هذه الصَّحيفة»، قيل: وما في الصَّحيفة؟ قال: «العَقْلُ، وفكاك الأسير، وأن لا يُقتل مُسْلم بكافر»».

ولا يُتوهم من كلام شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاحتجاج بالقرآن دون السُّنَّة؛ فهو في مصنفه هذا وكل كتبه وفي دعوته يحاجُّ بالقرآن والسنَّة، والكل وحي من عند الله، والسنة مبينةٌ للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، والله

(١) تفسير سورة الفرقان (ص١٢٦).

أمرنا في القرآن بالأخذ بسنة النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧]، فمن آمن بالقرآن أخذ السنَّة، ومن لم يؤمن بالسنَّة فهو كافر بالقرآن والسنَّة.

والنبي ﷺ في وصيته لأمته وهو يودِّعها قال: «عليكم بسُنَّتي»، رواه أصحاب السنن من حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو حثٌّ علىٰ الاعتصام بالقرآن والسنة؛ لأنَّ الأمر بلزوم السنة التي هي بيان للقرآن ردٌّ للأصل المُبيَّن؛ فهو أمر بالمبيِّن والمبيَّن.

وقد حذَّرنا الله من ضلال المتكلمين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال العلَّامة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُٱللَّهُ **(ت: ٥٥٠)**[١]: «لا يجوز القول في القرآن بقياس ولا رأي ومعقول إلا بما جاء في القرآن أو صحَّ عن الرسول ﷺ فيه شيء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨]».

وقال النبي ﷺ: «ليكوننَّ في أمتي أقوام يُحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»، رواه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومسائل الدين بيَّنها الوحي المبين، وقد أحكم الله وحيه بما أوحاه إلىٰ رسوله محمَّد ﷺ الذي بلَّغه إلينا ولم يكتم منه شيئًا؛ فالواجب في مسائل الدين الانتهاء إلىٰ كمال الوحي، والانتهاء عن ضلالات وأهواء المتكلمين والمبتدعين؛

---

(١) منازل الأئمة الأربعة (ص١١٢).

قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا كان قد أكمله وأتمَّه، وهذا المسلم قد اعتقده وسكن إليه، ووجد قرار القلب عليه؛ فبماذا يحتاج إلىٰ الرجوع إلىٰ دلائل العقول وقضاياها، والله أغناه عنه بفضله».

والنبيُّ ﷺ علَّم أمته كل شيء من أمر الدين، ولم يجعل الله لنا حاجة إلىٰ ما اخترعه المتكلمون والمبتدعون؛ فلا نعدل عن علم من لا ينطق عن الهوىٰ إلىٰ من يتكلَّم بالهوىٰ.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «محال أن يُظنَّ بالنبيِّ ﷺ أنه علَّم أمته الاستنجاء ولم يُعلِّمهم التوحيد».

وقال الإمام الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لو علم الناس ما في الأهواء لفروا منها كما يفرُّون من الأسد».

وقال الإمام الشافعي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «ما أحد ارتدىٰ بالكلام فأفلح»، وقال الإمام الشافعيُّ: «العلم بالكلام جهل».

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «لَا أرىٰ الْكَلَام فِي شَيْء إِلا مَا كَانَ فِي كتاب الله أَو حَدِيث عَن رَسُول الله - ﷺ - أَو عَن أَصْحَابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَو عَنِ

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٣٦٦).

(٢) منازل الأئمة الأربعة (ص٩١).

(٣) الآداب الشرعية (١/ ٢٠٠).

(٤) الآداب الشرعية (١/ ١٩٩).

(٥) الحجَّة في بيان الْمَحَجَّة (١/ ٢٠٨).

التَّابِعين فَأَما غير ذَلِك فَالْكَلَام فِيهِ غير مَحْمُود».

وقال الإمام أحمد أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الكلام لا يدعو إلىٰ خير، عليكم بالسنن والفقه الذي تنتفعون به، ودعوا الجدال وكلام أهل البدع والمراء».

وقال الإمام أحمد للمتوكل رحمهما الله: «لست بِصَاحِب كَلَام، وَلَا أرىٰ الْكَلَام فِي شَيْء من هَذَا، إِلَّا مَا كَانَ فِي كتاب الله أَو حَدِيث عَن رَسُول الله ﷺ - أَو عَن أَصْحَابه أَو عَنِ التَّابِعين، فَأَما غير ذَلِك فَالْكَلَام فِيهِ غير مَحْمُود».

فالحاصل أن محاذرة علم الكلام والبدع والمتكلِّمين والمبتدعين؛ كلمة إجماع عن الصحابة ومن اتَّبعهم من السلف، وهو منهج واضح معلوم دلَّ عليه علمهم الذي ورَّثوه للأمة؛ فإنَّ علمهم انتهىٰ إلىٰ الكتاب والسنَّة.

قال الموفق ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع والنظر في كتبهم والاستماع لكلامهم».

وقال ابن قدامة أيضًا[(٣)]: «وَإِذَا كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنِ اتَّبَعَ سُنَّتَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَالْأَعْصَارِ مُتَّفِقِينَ عَلَىٰ وُجُوبِ اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكِ عِلْمِ الْكَلَامِ، وَتَبْدِيعِ أَهْلِهِ وَهِجْرَانِهِمْ، وَالْخَبَرِ بِزَنْدَقَتِهِمْ، وَبِدْعَتِهِمْ؛ فَيَجِبُ الْقَوْلُ بِبُطْلَانِهِ وَأَنْ لَا يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ مُلْتَفِتٌ، وَلَا يَغْتَرَّ بِهِ أَحَدٌ».

وقال معمر بن أحمد الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «من السّنة ترك الرَّأْي وَالْقِيَاس

---

(١) الحجَّة في بيان المحجة (١/ ٢٠٨).

(٢، ٣) الآداب الشرعية (١/ ٢٣٢).

(٤) الحجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

فِي الدِّين، وَترك الْجِدَال والخصومات وَترك مفاتحة الْقَدَرِيَّة وَأَصْحَاب الْكَلَام، وَترك النّظر فِي كتب الْكَلَام وَكتب النُّجُوم، فَهَذِهِ السّنة الَّتِي اجْتمعت عَلَيْهَا الْأَئِمَّة، وَهِي مَأْخُوذَة عَن رَسُول الله - ﷺ - بِأَمْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وَقَالَ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، فَأمر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ بالبلاغ فَقَالَ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧]، فَبلَّغ رَسُول الله - ﷺ - الرسَالَة، ودَعَا إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بِالْكتاب وَالسّنة».

وما نهانا الله عن ضلال الأهواء وزيغ الكلام وبدع الجدال والقيل والقال بالباطل، إلَّا لأنَّه مفسد للأديان مزلزل لصحيح الفطرة وصريح المعقول، يؤول بأكثر من أخذ به إلىٰ الإلحاد ومن أصابه غباره أركسه في الحيرة والشكوك.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «السنَّة إنَّما سَنَّها من علم ما جاء في خلافها من الزلل».

وقد حذَّرنا الله من ابتغاء الهدىٰ في غير وحيه، فمن عدل عن الوحي إلىٰ جهالات الفلاسفة والمتكلمين والمبتدعين ضلَّ، وكان الشيطان وليَّه وقرينه، وتولىٰ عنه الله، وكفىٰ بذلك خذلانًا وضلالًا مبينًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ

(١) الشرح والإبانة علىٰ أصول السُّنَّة والدِّيانة (ص١٤٠).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٧﴾ [الزُّخرُف: ٣٦، ٣٧].

فإلىٰ الله المشتكىٰ من دعاة الشرك والزيغ والضلال، أركسوا أنفسهم بالشرك بشبهاتهم وأهوائهم المضلَّة، ولم يكتفوا بذلك الشرك حتىٰ صاروا دعاةً إليه مجادلين عنه، محاربين للتوحيد، ولم ينتهوا عند ذلك حتىٰ جعلوا زيغ شبهات شركهم حاكمة علىٰ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار دينًا يدان به ويُحكم به علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!

وقد كان علم الصحابة الذي يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين، كما حكىٰ الحاكم في ترجمة أبي عبد الله البخاري، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا إنَّما يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ليس بينهم رأي ولا قياس».

فعلم الكتاب والسنَّة وحي من الله، هدًىٰ ونور، وآراء المتكلمين والمشركين والمبتدعين وساوس الشياطين، جهالة وظلمات.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

المسلم عقيدته راسخة أنَّ القرآن فرقان بين الحق والباطل، فما خالفه فهو

---

(١) الفوائد (ص١٥٣).

باطل، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، هذا سبيل المهتدين المصلحين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

❁ ❁ ❁

عامة ضلال المشركين من اتباع المتشابه

سلك شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوابًا عامًّا في رد شبهات المشركين، وردودًا مفصَّلة لمفردات الشبهات، وهذا من حسن البيان في الردِّ؛ لأن الرد العام يكشف زيف أنواع الشبهات عمومًا، ويأتي بعد ذلك الردُّ المفصَّل عليها شبهة شبهة فتزداد الحجة عليهم في دفع باطلهم، ويزداد ظهور وهن الشبهات التي جادل بها المبطلون عن شركهم.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أَنَا أَذْكُرُ لَكَ أَشْيَاءَ مِمَّا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ جَوَابًا لِكَلَامٍ احْتَجَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا عَلَيْنَا.

فَنَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٍ، وَمُفَصَّلٍ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَهُوَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ، وَالْفَائِدَةُ الْكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ **أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»**».

---

(١) كشف الشبهات (ص١٥، ١٦).

وبعد أن ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الجواب المجمل قال[١]: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ لَهُمُ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَىٰ دِينِ الرُّسُلِ، يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ؛ مِنْهَا...».

وهنا أشرح الجواب المُجْمَل، وبعد ذلك يأتي الجواب المفصَّل عن أنواع الاعتراضات والشبهات الشركيَّة.

والجواب المجمل الذي ذكره شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن سبب ضلال المشركين عن الحقِّ، وأنَّه زيغ في قلوبهم وسوء قصد منهم؛ فعدلوا لذلك عن الاهتداء بمحكم القرآن إلىٰ اتباع متشابهه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا منهج الزائغين جميعًا من المشركين والمبتدعين؛ العدول بالمتشابه عن المحكم، لأنَّ المتشابه لا يستقل بنفسه في المعنىٰ، فيحتاج في فهمه إلىٰ ردِّه إلىٰ ما يُبيِّن معناه من النصوص المحكمة أو سؤال الرَّاسخين في العلم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة المبتدعين[٢]: «هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون علىٰ مخالفة الكتاب، يقولون علىٰ الله، وفي الله، وفي كتاب الله، بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جُهَّال الناس بما يشبِّهُون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المُضلِّين».

وعن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ، في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ

(١) كشف الشبهات (ص١٨).

(٢) الردّ علىٰ الزنادقة والجهمية (ص١٧٠ - ١٧٤).

﴿زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، قال: «**هم الخوارج**»، رواه البيهقي[١].

وتعيين النبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٧]، في الخوارج؛ إنَّما هو تنبيه علىٰ كل ضالٍّ زائغ القلب عدل عن محكم الوحي إلىٰ متشابهه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الخوارج أوَّل من تبع ما تشابه منه، وابتغوا بذلك الفتنة، فقتلوا من أهل الإسلام ما لا يحصىٰ كثرة، وتجنَّبوا قتل أهل الشرك، وأخبارهم في ذلك شهيرة، ولذلك ورد في عدة أحاديث صحيحة أنهم شرُّ الخلق والخليقة. **وذكر الخوارج نبَّه به الحديث المذكور علىٰ مَنْ ضاهاهم في اتباع المتشابه وابتغاء تأويله، فالآية شاملة لكل مبتدع سلك ذلك المسلك**».

وآيات القرآن كلها دالةٌ علىٰ توحيد الله، وأنَّ الله هو الإله الحقُّ الذي لا ندَّ ولا كفُؤ له، وأنه يجب أن يُعبد ويُتألّه له وحده لا شريك له، ومعاني آيات القرآن كلها متشابهة في هذا المعنىٰ؛ بمعنىٰ أنها متفقة محكمة مؤتلفة علىٰ هذا الحقِّ، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إِنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛

---

(١) السنن الكبرىٰ (١٧/ ٧٠).

(٢) العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٦٢، ٦٦٣).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٣).

فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ؛ فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ؛ فَهِيَ حُقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ كَرَامَةِ اللهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ؛ فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَىٰ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ.

فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ».

والمشركون قصدوا إبطال معنىٰ القرآن كله لآيتين حرَّفوهما عن معانيهما التي تقتضيها ألفاظهما وسياقهما: الآية الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فالظرف «إذ» جعلوه للمستقبل، وهو للماضي، وخالفوا إجماع الصَّحابة الذين لم يستغيثوا بالنَّبي ﷺ بعد وفاته. والآية الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، فالشِّرك الذي أنكره الله علىٰ من دعا مخلوقًا من الجنّ أسلم وصار يدعو الله ويرجوه جعلوا مدلول الآية علىٰ نقيض ما دلَّت عليه، فصاروا يستدلُّون بالآية علىٰ جواز اتِّخاذ المخلوقين وسائط في دعاء الله.

فمن حسن قصده وأراد اتباع الحقِّ؛ لزم ما دلَّ عليه القرآن كلُّه من توحيد الله وترك الشرك وعبودية ودعاء غير الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا تردُّ بالشبهات، فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولا يُعرض عنها فيكون من باب الذين إذا ذُكروا بآيات ربهم يخرّون عليها صمًّا وعميانًا، ولا يترك تدبُّر القرآن فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلَّا أمانِيَّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن حجج المستغيثين بالموتىٰ**[٢]: «أولئك الضُّلَّال أشباه المشركين النصارىٰ؛ فعمدتهم إمَّا أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمَّن لا يُحتج بقوله؛ إما أن يكون كذبًا عليه، وإما أن يكون غلطًا منه؛ إذ هي نقل غير مُصدَّق عن قائل غير معصوم، وإن اعتصموا بشيء ممَّا ثبت عن الرسول ﷺ حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وتمسَّكوا بمتشابهه، وتركوا محكمه؛ كما يفعل النصارىٰ».

ومن المتشابه الذي ضلَّ في فهمه المستشفعون بالمخلوقين في دعاء الله؛ حديثُ الأعمىٰ الذي أمره النبيُّ ﷺ أن يدعو الله في الصَّلاة، فالمحكم المعلوم المتيقَّن من معنىٰ التَّوحيد في القرآن والسُّنَّة؛ أنَّ دعاء الله: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والمصلِّي إذا قام يصلِّي فإنَّه يتوجَّه في عبادته لله وحده لا شريك له، «**وجَّهتُ وجهي للذي فطر السَّموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين**».

والنَّبيُّ ﷺ سُنَّته المعهودة المعلومة تعليم الصَّحابة سؤال الله مباشرة بدون الاستشفاع بمخلوق، قال لابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**إذا سألت فاسأل الله**»، وكذلك

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٢٩).

(٢) الردُّ علىٰ البكري (٢/ ٥٨٧).

سنَّة الصَّحابة إذا أصابتهم شدَّة يدعون الله، ويطلبون من رسول الله ﷺ أن يدعو الله، فعندما قَحطوا قال الصَّحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنَّبي ﷺ: «هلكت المواشي، وانقطعت السُّبل، فادع الله». متَّفق عليه.

وبهذه النُّصوص المعهودة المحكمة نفهم معنىٰ حديث عثمان بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رجلًا أعمىٰ أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ادعُ الله لي أن يردَّ عليَّ بصري، قال: «**إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك**»، قال: فادعه. فأمره أن يتوضَّأ ويصلِّي ركعتين، ويدعو بهذا الدُّعاء: «**اللهمَّ إنِّي أسألك، وأتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّد نبيِّ الرحمة، يا رسول الله، يا محمد، إنِّي توجَّهتُ بك إلىٰ ربِّي في حاجتي هذه لتُقضىٰ، اللهمَّ فشفِّعه فِيَّ**»، رواه أحمد والتِّرمذيُّ وقال: حديث حسن صحيح.

فسؤال الصَّحابي كان لله؛ حيث كان دعاؤه: «**اللهم إنِّي أسألك**»، وأمَّا توجُّهه بالنَّبي ﷺ فليس توجُّه قصد ولا طلب، ولا اتِّخاذه واسطة في دعاء الله، وإنَّما توجُّه بأن يقبل الله دعاء النبيِّ ﷺ له، يؤكِّد هذا سؤاله النبيَّ ﷺ أن يدعو له قبل الصَّلاة؛ فأمره النبي ﷺ أن يدعو الله أن يقبل دعاء نبيه ﷺ له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا طلب من النبيِّ ﷺ أن يدعو له، ليردَّ الله عليه بصره؛ فأمره النبيُّ ﷺ أن يدعو هو أيضًا، ويسأل أن يقبل الله شفاعة نبيِّه ﷺ فيه.

وقوله: «**أتوجَّه إليك بنبيِّك**»؛ أي: شفاعة نبيِّك ﷺ بدعائه، فكان الرَّسول ﷺ شافعًا له، وهو سائل قبول شفاعة الرَّسول ﷺ».

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص٧٣).

سؤال الله بجاه الصالحين واتخاذهم شفعاء عند الله

بعد أن ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوابه المجمل في محاجَّة المشركين، قام بالرد بالتفصيل علىٰ اعتراضات المشركين، حيث قال[1]: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ لَهُمُ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَىٰ دِينِ الرُّسُلِ، يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ.

مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ باللهِ، بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ، إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ، أَوْ غَيْرِهِ، وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللهِ بِهِمْ.

فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقِرُّونَ بِأَنَّ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ.

وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَوَضَّحَهُ.

فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟! أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟! فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ.

---

(١) كشف الشبهات (ص١٨-٢٢).

فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّنْ قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِ وفِعْلِهِمْ بِمَا ذَكَرَهُ؛ فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وَيَدْعُونَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، وَأُمَّهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦].

وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: ١١٦].

فَقُلْ لَهُ: أَعَرَفْتَ أَنَّ اللهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ - أَيْضًا - مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ، لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللهِ شَفَاعَتَهُمْ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ».

الرسل عليهم الصلاة والسلام أكرم الخلق وأفضلهم، وهم رسل الله، أرسلهم الله بالهدىٰ ودين الحق ليبلغوه إلىٰ الناس؛ فيعبد الناس الله الذي أرسلهم.

قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «دين الله الذي بعث به رُسُلَه، وأنزل به كُتُبَه؛ أثبت وساطة الرسل بين الله وبين خلقه؛ فيُبلِّغونهم أمرَه ونهيَه، وخبره، ووعده ووعيده.

ويقطعون وساطة المخلوقات في: العبادة، والاستعانة، والدعاء، والتوكل.

فلا يُعبد إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يُدعىٰ إلا هو؛ فإنه لا ربَّ غيره، ولا خالق غيره، ولا إله سواه».

والذي أركس الضالين في شرك الشفاعة بالمخلوقين في دعاء الله؛ هو قياسهم الفاسد للمخلوقين علىٰ الخالق، تعالىٰ الله عن شركهم عُلوًّا كبيرًا.

فإنهم رأوا أنَّ الملوك من الخلق ومن البشر يقضون حوائج الناس بمن يشفع إليهم من الوجهاء وذي المنزلة عندهم، فقالوا: كذلك ندعو بشفاعة

(١) جامع المسائل، المجموعة الثانية (ص٧٨، ٧٩).

الأنبياء والصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّه ما بُدِّل دين الله في الأمم المتقدمة وفي هذه الأمَّة إلا بمثل هذا القياس؛ ولهذا قيل[٢]: ما عُبدت الشمس والقمر إلَّا بالمقاييس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الْأَنْبِيَاءُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ - هُمْ وَسَائِطُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ كَلَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَأَنْبَائِهِ الَّتِي أَنْبَأَ بِهَا عَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَعَرْشِهِ وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَلَيْسُوا وَسَائِطَ فِي خَلْقِهِ لِعِبَادِهِ[٤]، وَلَا فِي رِزْقِهِمْ، وَإِحْيَائِهِمْ، وَإِمَاتَتِهِمْ، وَلَا جَزَائِهِمْ بِالْأَعْمَالِ، وَثَوَابِهِمْ وَعِقَابِهِمْ، وَلَا فِي إجَابَةِ دَعَوَاتِهِمْ وَإِعْطَاءِ سُؤَالِهِمْ؛ بَلْ هُوَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ، وَهُوَ الَّذِي يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «قَوْلُ السَّائِلِ لِلَّهِ: بِحَقِّ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ بِجَاهِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ؛

(١) الاستقامة (ص٢٥١).

(٢) القائل هو محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٤) لعبادته.

(٥) التوسل والوسيلة (ص١٤٦).

يَقْتَضِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ جَاهٌ، وَهَذَا صَحِيحٌ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةٌ وَجَاهٌ وَحُرْمَةٌ يَقْتَضِي أَنْ يَرْفَعَ اللهُ دَرَجَاتِهِمْ، وَيُعْظِمَ أَقْدَارَهُمْ، وَيَقْبَلَ شَفَاعَتَهُمْ إِذَا شُفِّعُوا، مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَيَقْتَضِي أَيْضًا أَنَّ مَنِ اتَّبَعَهُمْ وَاقْتَدَىٰ بِهِمْ فِيمَا سُنَّ لَهُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِيهِ؛ كَانَ سَعِيدًا، وَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُمُ الَّذِي بَلَّغُوهُ عَنِ اللهِ كَانَ سَعِيدًا، وَلَكِنْ لَيْسَ نَفْسُ مُجَرَّدِ قَدْرِهِمْ وَجَاهِهِمْ مِمَّا يَقْتَضِي إِجَابَةَ دُعَائِهِ إِذَا سَأَلَ اللهَ بِهِمْ حَتَّىٰ يَسْأَلَ اللهَ بِذَلِكَ، بَلْ جَاهُهُمْ يَنْفَعُهُ أَيْضًا إِذَا اتَّبَعَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ عَنِ اللهِ، أَوْ تَأَسَّىٰ بِهِمْ فِيمَا سَنُّوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْفَعُهُ أَيْضًا إِذَا دَعَوْا لَهُ وَشُفِّعُوا فِيهِ. فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ دُعَاءٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَلَا مِنْهُ سَبَبٌ يَقْتَضِي الْإِجَابَةَ؛ لَمْ يَكُنْ مُتَشَفِّعًا بِجَاهِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ بِجَاهِهِمْ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللهِ، بَلْ يَكُونُ قَدْ سَأَلَ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُ لَيْسَ سَبَبًا لِنَفْعِهِ».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فبيَّن تعالىٰ أنَّ المخلوق ليس له ملك، ولا شرك في الملك، ولا هو معين لله، ولكن غاية ما عنده الشفاعة، والشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ليس من دين المسلمين، ولا دين

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص٢٤).

(٢) قاعدة في الفرق بين عبادات أهل الإيمان، وأهل الشرك (ص١٢١).

أحد من الرسل، لم يسنَّ أحد من الأنبياء للخلق أن يطلبوا من الصالحين الموتىٰ، والغائبين، والملائكة، دعاءً، ولا شفاعة، بل هذا أصل الشرك؛ فإنَّ المشركين إنَّما اتخذوهم شفعاء، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]».

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ سؤال الميِّت والغائب والاستشفاع به إلىٰ الله إنه هو دين المشركين من العرب ومن قبلهم، فإن الله تعالىٰ بعث رسله - عليهم الصلاة والسلام - بإنكار ذلك، ودعوتهم إلىٰ أن لا يدعوا إلا الله، ولا يرغبوا إلَّا إليه، ولا يستعينوا إلَّا به، وتقرَّر ذلك في آيات الشفاعة وما في معناها من الآيات، وما فيها من الوعيد الشَّديد علىٰ دعوة غير الله، واتِّخاذه شفيعًا، كما قال تعالىٰ في حقِّ سيد المرسلين: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٠ - ٢٣].

فتأمَّل ما في هذه الآيات، وما رتب سبحانه علىٰ مخالفة الرسول ﷺ فيما وعد إليه، وبلغه عن الله من توحيده، بالوعيد بالنار والخلود فيها، والقرآن كله من أوله إلىٰ آخره؛ يقرر هذه الدعوة، ويرشد إليها، وينهىٰ عن كل ما ينافيها من قول أو فعل أو اعتقاد، ويحذرهم نفسه وينذرهم بأسه».

فاتِّخاذ الوسائط من المخلوقين في دعاء الله؛ شرك، وهذا غالب شرك

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٢١٩).

المعاصرين، ومن جرَّد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ دعا الله ولم يجعل بينه وبين الله في دعائه وعبادته أحدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المشركون الذين كفَّرهم رسولُ الله - ﷺ - وقاتَلَهم واستباحَ دماءَهم وأموالَهم من العرب؛ لم يكونوا يقولون: إنَّ آلهتَهم شاركتِ اللهَ في خلق السموات والأرض والعالم، بل كانوا يُقِرُّون بأن الله وحدَه خلق السموات والأرض والعالم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الآيات، إلىٰ قوله: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال طائفة من السلف: يسألهم: مَن خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم يعبدون غيره.

وإنَّما كانت عبادتهم إيَّاهم أنهم يدعونهم ويتخذونهم وسائطَ ووسائلَ وشُفعاءَ لهم؛ فمن سلكَ هذا السبيلَ فهو مشرك بحسب ما فيه من الشرك.

وهذا الشركُ إذا قامت علىٰ الإنسان الحجةُ فيه ولم يَنتهِ؛ وَجَبَ قتلُه[٢] كقتلِ أمثالِه من المشركين، ولم يُدفَنْ في مقابرِ المسلمين، ولم يُصَلَّ عليه.

وأمَّا إذا كان جاهلًا لم يَبلُغْه العلمُ، ولم يَعرِف حقيقةَ الشرك الذي قاتَلَ عليه النبيُّ - ﷺ - المشركين؛ فإنه لا يُحكَم بكُفْرِه، ولا سِيَّما وقد كَثُر هذا الشركُ في

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) الحدود والتعزيرات يقيمها ولي الأمر.

المنتسبين للإسلام، ومن اعتقدَ مثلَ هذا قُربةً وطاعةً فإنه ضَالٌّ باتفاقِ المسلمين، وهو بعد قيامِ الحجة كافر.

والواجبُ علىٰ المسلمين عمومًا وعلىٰ وُلاةِ الأمور خصوصًا؛ النهيُ عن هذه الأمور، والزَّجْرُ عنها بكلِّ طريق، وعقوبةُ مَن لم ينتهِ عن ذلك العقوبةَ الشرعيةَ، والله أعلم».

والشفاعة ينالها الموحدون؛ فأحق الناس بها من جرَّد التوحيد خالصًا لله؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قلت: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولىٰ منك؛ لما رأيت من حرصك علىٰ الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة؛ من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه**»، رواه البخاريُّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أهل التوحيد المخلصون لله؛ هم أحق الناس بشفاعته ﷺ، فمن كان لا يدعو إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا علىٰ الله، ولا يدعو مخلوقًا، لا ملكًا، ولا بشرًا، لا نبيًّا، ولا صالحًا، ولا غيرهما؛ كان أحق بشفاعته ممن يدعوه، أو يدعو غيره من المخلوقين؛ فإنَّ هؤلاء مشركون، والشفاعة إنَّما هي لأهل التوحيد.

وإذا كان كذلك فالذين يدعون المخلوقين، ويطلبون من الموتىٰ، والغائبين؛ من الملائكة، والبشر، الدعاء، والشفاعة؛ هم أبعد عن الشفاعة فيهم، والذين لا يدعون إلَّا الله هم أحق بالشفاعة لهم».

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٢٨).

المحاجة في تجريد العبادة لله

في مناظرة شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمشركين جادلهم في دعواهم أن دعاء الأولياء والصالحين ليس بعبادة، فقال[1]: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، وَهَذَا الِالْتِجَاءُ إِلَىٰ الصَّالِحِينَ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ.

فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؟

فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ.

فَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ، وَلَا أَنْوَاعَهَا؛ فَبَيِّنْهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا؛ فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً لِلَّهِ؟

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. «وَالدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ».

فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ لِلَّهِ، وَدَعَوْتَ اللهَ لَيْلًا وَنَهَارًا، خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا، أَوْ غَيْرَهُ؛ هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللهِ غَيْرَهُ؟

---

(١) كشف الشبهات (ص٢٣-٢٧).

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا عَلِمْتَ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]. وأَطَعْتَ اللهَ، وَنَحَرْتَ لَهُ؛ هَلْ هَذَا عِبَادَةٌ؟

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ: نَبِيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا؛ هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللهِ؟

فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ وَيَقُولَ: نَعَمْ.

وَقُلْ لَهُ - أَيْضًا -: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ؛ هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَالصَّالِحِينَ، وَاللَّاتَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ؟

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ، وَالذَّبْحِ، وَالِالْتِجَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؟! وَإِلَّا فَهُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عبيد الله، تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصَرُّفِهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ، وَالْتَجَئُوا إِلَيْهِمْ لِلْجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًّا.

فَإِنْ قَالَ: أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَتَبَرَّأُ مِنْهَا؟!

فَقُلْ: لَا أُنْكِرُهَا، وَلَا أَتَبَرَّأُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ ﷺ الشَّافِعُ وَالْمُشَفَّعُ، وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ، وَلَكِنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] الآية.

وَلَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِ اللهِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَلَا يَشْفَعُ النَّبِيُّ فِي أَحَدٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، كَمَا

قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وَهُوَ لَا يَرْضىٰ إِلَّا التَّوْحِيدَ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فَإِذَا كَانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، وَلَا يَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا غَيْرُهُ فِي أَحَدٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، وَلَا يَأْذَنُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ؛ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ؛ فَاطْلُبْهَا مِنْهُ وَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي شَفَاعَتَهُ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، وَأَمْثَالُ هَذَا.

فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ، وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وَطَلَبُكَ مِنَ اللهِ شَفَاعَةَ نَبِيِّهِ ﷺ عِبَادَةٌ، وَاللهُ نَهَاكَ أَنْ تُشْرِكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ أَحَدًا، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ ﷺ فِيكَ؛ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ، فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ قُلْتَ: لَا. بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

فالشفاعة من النبي ﷺ للناس في الدنيا في حياته بأن يُطلب منه أن يدعو الله لهم، وليس له شيء من ذلك بعد موته، ويوم القيامة يشفع بإذن الله الشفاعة العظمىٰ، ويشفع كذلك لأهل الكبائر من أمته.

أما ما يفعله القبوريون من الدعاء بالنبيِّ ﷺ، والاستشفاع والتوسل به بعد موته؛ فهذا ليس من الشفاعة المأذون فيها، بل هي من الشفاعة الشركية، ومن جعل الشفاعة الشرعية كالشركية؛ فهذا لجهله أو سوء قصده أو الاثنين جميعًا.

قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المشركون ضيَّعوا سبب الشَّفاعة وضادُّوه وخالفوه.

الشَّريعة بيَّنت أنَّ سبب إعطائه إيَّاها غير طلبها منه ﷺ، وإنَّما سببها الإيمان به ﷺ والإيمان بما جاء به».

وقد شرح هذا الموضع من «كشف الشبهات» العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال[(٢)]: «قد تقدَّم أنَّ الشفاعة التي ظنَّها المشركون حاصلة بدعاء الأنبياء والصالحين؛ قد نفاها القرآن، وأخبر تعالىٰ أنها بيده وملكه، كما له ملك السموات والأرض، وأن الشفاعة المثبتة في مثل هذه الأحاديث لم يفهمها هؤلاء الجهال، ولم يعرفوا حقيقتها؛ فهم في عماية الجهالة، وأودية الضلالة، لا تمييز عندهم بين النوعين، ولا فرق بين القسمين، ولو عرف هذا - عثمان بن منصور - أنَّ جمهور المشركين يحتجون بالشفاعة والجاه علىٰ شركهم، ويقررون ما للملائكة والأنبياء والصالحين من الجاه والمنزلة والشفاعة؛ لعرف أنه إلىٰ الآن في سلكهم وعلىٰ طريقتهم في هذا المبحث، وكثير من المباحث التي هي أصل دينهم وقاعدته».

(١) شرح كشف الشُّبهات (ص٩٥).

(٢) مصباح الظلام (ص٣٤٢).

والعبادة أنواع، وهؤلاء المجادلون عن الشرك ضلوا عن أجلِّ أنواع العبادة وهو الدعاء، والله عَزَّوَجَلَّ في القرآن العظيم ذكر العبادة بالدعاء؛ تعظيمًا لشأنها وبيانًا لمنزلتها وتوضيحًا لخصوصيتها من بين أنواع العبادات، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، وبالدعاء نعت الله عبودية أفضل خلقه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قيل: إن الصلاة في اللُّغة معناها الدُّعاء، والدُّعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع، كما أن السائل داعٍ، وبهما فسر قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]،قيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفُسر بهما قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والصواب: أنَّ الدعاء يعم النوعين، وهذا لفظ متواطئ، لا اشتراك فيه، فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالىٰ ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

والصحيح من القولين: لولا أنّكم تدعونه وتعبدونه؛ أي: أيَّ شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إيَّاه؟!».

---

(١) جلاء الأفهام (ص٢٥٤).

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال عن الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دعوته لأبيه وقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩]، فسمَّىٰ دعاءهم لغيره عبادة».

وعامة من يدعو المخلوقين أو يدعو ويتوسَّل ويستشفع بهم؛ إنَّما غرضه أن يجاب دعاؤه، وهذا قد ضل عن أسباب إجابة الدعاء؛ فإنَّ الشرك في الدعاء يوجب مقت الله وسخطه، وأسباب إجابة الدعاء الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أخبر سبحانه أنَّه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به، كما قال بعضهم: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ إذا دعوتهم، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ أنِّي أجيب دعوتهم. قالوا: وبهذين السببين تحصل إجابة الدعوة، بكمال الطاعة لألوهيته، وبصحة الإيمان بربوبيته، فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه؛ حصل مقصوده من الدعاء، وأجيب دعاؤه، كما قال تعالىٰ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورىٰ: ٢٦]؛ أي: يستجيب لهم، يقال: استجابه واستجاب له».

ومن شبهات القبوريين في اتخاذ الموتىٰ وسائط في دعاء الله؛ قولهم: إنَّ الأولياء صالحون ونحن مذنبون، نرجو استجابة الدعاء باتخاذ الصالحين

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٦٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٢١).

وسائط في دعاء الله، وهذا ضلال في الاعتذار عن شركهم، أَزِيلوا موانع إجابة الدعاء بترك الشرك؛ فإنَّه أعظم الذنوب، وكذلك بترك سائر الذنوب، وأخلصوا الدعاء لله، والله عند حسن ظن عبده به.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الدواء هو التوحيد والاستغفار قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] وفي الحديث: «**إنَّ الشيطان يقول: أهلك بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، وبـ(لا إله إلا الله)، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء**»، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولذلك كان الدعاء المفرِّج للكرب محض التوحيد، وهو: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا هو رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم**». وفي «الترمذي» وغيره عن النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون؛ ما دعاها مكروب إلا فرَّج الله كربه؛** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]» فالتوحيد يُدخل العبد علىٰ الله، والاستغفار والتوبة يرفع المانع ويزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه».

والذبح والنحر من أعظم العبادات؛ ولذلك شرعه الله لكل الأمم وفي كل الملل؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: ٣٤]، فأمر الله بتوحيده وذكر اسمه بالذبح له وحده لا شريك له، قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي

(١) شفاء العليل (ص٤٥٤).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الحكمة في جعل الله لكل أمة منسكًا لإقامة ذكره، والالتفات لشكره؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤]، وإن اختلفت أجناس الشرائع؛ فكلها متَّفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ﴾ [الحج: ٣٤]».

وشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ذكر أدلة كون الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، فقال[٢]: «ودليل الذبح قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وَمِنَ السُّنَّةِ: «**لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»».

وفي متن هذا الكتاب «كشف الشبهات»؛ ذكر ما يدل على وجوب تجريد الذبح لله وحده لا شريك له، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، فكما أنَّه لا يُصلَّىٰ إلا لله كذلك لا يُذبح إلا لله.

فالذبح لغير الله شرك أكبر، وهو أنواع[٣]:

١ - أن يذكر اسم غير الله عند الذبح.

٢ - أن يقصد غير الله بالذَّبح، وإن لم يذكر اسمه.

٣ - أن يذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٣) فتح المجيد (ص١٢٧ - ١٢٩).

٤ - أن يذبح عند القبور؛ فقد نهىٰ النبيُّ ﷺ عن العقر عند القبر، رواه أبو داود، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لأنَّه يشبه ما يُذبح علىٰ النصب».

وقال شيخ الإسلام أيضًا[٢]: «كان المشركون يذبحون للقبور ويقربون لها القرابين، وكانوا في الجاهليَّة إذا مات لهم عظيم ذبحوا عند قبره الخيل والإبل، وغير ذلك؛ تعظيمًا للميِّت؛ فنهىٰ النبيُّ ﷺ عن ذلك كله».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجادلة المشركين عن شركهم بنفيهم أن تكون أعمالهم الشركية شركًا، حيث قال[٣]: «إِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا؛ حَاشَا وَكَلَّا، وَلَكِنَّ الِالْتِجَاءَ إِلَىٰ الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ».

والمتوجهون الملتجئون إلىٰ الصالحين نجدهم يتوجهون إلىٰ موتىٰ الصالحين ويسألونهم ما لا يقدر عليه إلَّا الله، وهذا شركٌ، ومنهم من يتخذ الصالحين وسائط في دعائه لله، وهذا أيضًا شرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «الصلاة هي دعاء الله، دعاء عبادة، ودعاء مسألة، فإذا قُصد صاحب القبر لأن يدعىٰ، دعاء عبادة أو دعاء مسألة؛ فقد صارت الصلاة له، وإذا قُصد السفر إليه؛ فقد جعل النسك له».

وإذا عرف المسلم اعتقاد المشركين في أعمالهم في زيارة القبور؛ تحقَّق أنَّ اعتقادهم وعملهم شركي.

(١، ٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ٣٠٦).

(٣) كشف الشبهات (ص٢٨).

(٤) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٤١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّه عندهم إذا زار القبر، وتوجَّه إلىٰ الميِّت؛ فاض عليه من روحه، كما ذكروا ذلك في الشفاعة».

وهذا النوع من الشرك أدخله علىٰ المسلمين الفلاسفة، ومن اقتبس من شركهم وصاغه للمسلمين في قالب قوىٰ النفس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يقولون: إنه بنفس توجههم إلىٰ ما يدعونه ويحبونه يحصل مقصودهم، وإن كان ذلك المدعو لا يعرف أن هذا دعاه ولا توجه إليه، **وهذا قول المتفلسفة كابن سينا، وصاحب الكتب المضنون بها - أبي حامد الغزالي -**، ونحوهم، ويقولون: إذا توجَّه الإنسان إلىٰ ما يتوجه إليه من أرواح الموتىٰ فإنه يفيض عليه ما يفيض من غير علم من ذلك الشفيع، وشبهوا ذلك بشعاع الشمس؛ فإنه يظهر في المرآة، ثم ينعكس علىٰ ما يقابلها من حائط، أو ماءٍ، من غير شعور من المرآة.

وذلك أنَّ هؤلاء عندهم أنَّ الله لا يعلم الجزئيات، ولا يحدث في العالم شيئًا، وعندهم تأثير دعاء بني آدم كله من هذا الباب، وهو أنَّ الداعي إذا جمع همّه، وتوجه نحو ما يدعوه؛ قويت نفسه حتىٰ حصل بها المطلوب من غير أن يكون الله علم بذلك، والمؤثر عندهم هو النفس».

وهذا من أغلظ وأشنع وأبشع أنواع الشرك، تضمَّن كفرهم وشركهم هذا إنكار علم الله، وغلبة نفس المخلوق لحكم الله الشرعي وقضائه الكوني فهي

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٤٤).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٣٦).

التي تشاء، مع ما تضمَّنه هذا الشرك من التوجه والالتجاء إلىٰ المخلوق بدعائه؛ فهل يستريب مسلم في أنَّ هذا الضلال جمع أنواعًا من الشرك والكفر الأكبر؟!

والالتجاء إلىٰ الصالحين بحسب واقع القبوريِّين؛ يجمع أنواعًا من الشرك والبدع والضَّلالات؛ منها شدُّ الرِّحال إلىٰ القبور، واتِّخاذ قبور الأنبياء والصَّالحين والأولياء مساجد وعيدًا، ومنها الخضوع عند قبر المخلوق، ومنها الفرح أو الرضا أو في أقل الأحوال السكوت عما يكون من تشييد البناء علىٰ القبر، ومنهم من يذبح للقبر، ومنهم من يطوف به، ومنهم من يصلِّي عنده.

فالعكوف عند قبور الموتىٰ، والخضوع بين يديهم، ودعاؤهم؛ شرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ العلة التي نهىٰ النبيُّ ﷺ لأجلها عن الصلاة عندها – القبور –؛ إنَّما هو لئلا تُتخذ ذريعة إلىٰ نوع من الشرك بالعكوف عليها، وتعلق القلوب بها رغبةً ورهبةً».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ بعض القبور يُجتمع عندها في يوم من السنة، ويُسافر إليها، إمَّا في المحرَّم، أو رجب، أو شعبان، أو ذي الحجة، أو غيرها. وبعضها يجتمع عنده في يوم عاشوراء، وبعضها في يوم عرفة، وبعضها في النصف من شعبان، وبعضها في وقت آخر، بحيث يكون لها يوم من السنة تُقصد فيه، ويُجتمع عندها فيه كما تُقصد عرفة ومزدلفة ومنىٰ، في أيام معلومة من السنة، أو كما يقصد مصلىٰ المصر يوم العيدين، بل رُبَّما كان الاهتمام بهذه

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٩٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٥٦ – ٢٥٨).

الاجتماعات في الدين والدنيا أهم وأشد.

ومنها: ما يسافر إليه من الأمصار، في وقت معيَّن، أو في وقت غير معيَّن؛ لقصد الدعاء عنده، والعبادة هناك، كما يُقصد بيت الله لذلك، وهذا السفر لا أعلم بين المسلمين خلافًا في النهي عنه، إلا أن يكون خلافًا حادثًا.

وإنَّما ذكرت الوجهين المتقدمين في السفر المجرد لزيارة القبور. فأما إذا كان السفر للعبادة عندها بالدعاء أو الصلاة، أو نحو ذلك؛ فهذا لا ريب فيه.

حتىٰ إن بعضهم يسميه الحج ويقول: نريد الحج إلىٰ قبر فلان وفلان.

ومنها ما يُقصد الاجتماع عنده في يوم معيَّن من الأسبوع.

وفي الجملة: هذا الذي يُفعل عند هذه القبور هو بعينه الذي نهىٰ عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**لا تتخذوا قبري عيدًا**»».

وأمَّا الخضوع للميِّت من الأولياء والصالحين؛ فهذا لا يجوز أن يأتي به المسلمون؛ فالحنيف الموحِّد يصمد لله الأحد الصمد الذي انفرد بالكمال كله، سبحانه لا شريك له، لا يصمد لمخلوق مثله لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكه لغيره.

قال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا ريب أنَّ الدعاء يجتمع فيه من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات، والنداء كذلك؛ كتوجه الوجه والقلب واللسان للمدعوِّ، تذللًا له وخضوعًا واستكانة ورغبة، وهذا هو العبادة؛ لأنَّ أصل العبادة وأساسها أن يخضع غاية الخضوع

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٧٣).

والتذلل للمعبود، ولا بُدَّ مع ذلك من المحبة، وأنت ترىٰ ما يفعله المشركون من إقبالهم علىٰ الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلل وإسلام الوجه والقلب والجوارح لسؤال صاحب القبر ما لا يوجد مثله في المساجد».

والحنيف المسلم يلتجئ إلىٰ الله؛ فهو الذي يكشف الضر ويأتي بالخير، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، والموحِّد يقيم وجهه لله ويخضع له، ويقيم وجهه عند كل مسجد لا عند القبور والمشاهد.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولم يقل عند كل مشهد».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المشاهد إنَّما يعمرها من يخشىٰ غير الله ويرجو غير الله، لا يعمرها إلَّا من فيه نوع من الشرك».

وكل من له معرفة بما بُعث به النبيُّ ﷺ من دعوة التوحيد يتيقن أنَّ اتخاذ القبور أعيادًا، والعبادة فيها، واتِّخاذها مساجد بالصَّلاة فيها والذكر والدعاء، أو بناء المساجد عليها؛ هو مما نهت عنه الشريعة وكانت سببًا في ظهور الشرك في المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الصلاة عند القبور مطلقًا واتخاذها

(١، ٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٨٢).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٨٤).

مساجد، وبناء المساجد عليها؛ فقد تواترت النصوص عن النبيِّ ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه».

وأمة الإسلام أمَّة مرحومة بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ واتباع نبي الرحمة ﷺ، ومن أركسها في اتخاذ القبور مساجد؛ فقد أخرجها من أسباب رحمة الله إلىٰ لعنته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قالا:** لمَّا نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، رواه البخاري ومسلم.

فالنهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ أحاديثها رواها الصحابة وسادات آل البيت.

ودعاة التوحيد دعاة رحمة، ودعاة الغلو في القبور دعاة شرك ولعنة، ﴿**فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

وقول المجادل: إنَّ الالتجاء إلىٰ الصالحين ليس بشرك؛ هذا من جهله بالتوحيد وما يضاده من الشرك، قال تعالىٰ: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ [النمل: ٦٢].

فالذي يجيب المضطر ويكشف السوء وحده هو الله، ولن تجد من دونه ملتحدًا، ومن التجأ إلىٰ غير الله فقد اتخذه ندًّا وجعله إلهًا مع الله، كما قال الله في هذه الآية في الالتجاء لغيره: ﴿**أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ**﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العكوف على القبور، والتمسُّح بها، وتقبيلها، والدعاء عندها وفيها، ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»».

فالموحِّدون متوكلون على الله في السراء والضراء، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يقدِّر المقادير، وهو الذي يضر وينفع، ويرزق ويعطي ويمنع، وهو الذي يكشف السوء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فالملجأ إليه في كل حال، في السراء والضراء، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]، قال مجاهد: ملجأً، وقال قتادة: وليًّا ولا مولًى[٢].

فالموحدون قلوبهم متعلِّقة بالله، متوكِّلون عليه، قبل الأخذ بالأسباب ومع الأخذ بها وبعدها.

ومن ذهب إلى قبور الأولياء والصَّالحين للعبادة؛ فقد جعل قبر المخلوق ومنزله البرزخيّ كبيت الله الذي يُقام فيه ذكره وحده، ناهيك أنَّ كثيرًا من مشاهد القبور ومزاراتها مكذوبة.

وتوحيد الله هو عبادته وحده لا شريك له بما أمر، لا بما نهى عنه وزجر، فالمتعبِّدون بأنواع العبادات من الذِّكر والدُّعاء والصَّلاة في المقابر؛ ضادوا الله في شرعه وحكمه، وخرجوا من عبوديَّته، فلم يطيعوه حيث نهى عن اتِّخاذ القبور مساجد، وما كان النَّهي فيه لحفظ توحيد النَّاس من الشِّرك؛ فمن أذن فيه فقد

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٩)، بواسطة أهمية توحيد العبادة (ص٥٧)، للعلَّامة المحدِّث عبد المحسن العبَّاد.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١١٧).

ساق النَّاس للشِّرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه المشاهد الباطلة؛ إنَّما وُضعت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيمًا لما لم يعظِّمه الله، وعكوفًا علىٰ أشياء لا تنفع ولا تضرّ، وصدًّا للخلق عن سبيل الله، وهي عبادته وحده لا شريك له بما شرعه علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله عليه وسلَّم تسليمًا».

فالغلوُّ في القبور من أعظم أسباب الشِّرك؛ لذلك نهىٰ النبيُّ ﷺ عن الصَّلاة في المقبرة، ولم يأذن أن يُبرز قبره خارج حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا خشية أن يُتَّخذ وثنًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لأنْ يُشرك بقبر الرَّجل الذي يُعتقد نبوَّته أو صلاحه؛ أعظم من أن يُشرك بخشبة أو حجر علىٰ تمثاله.

ولهذا نجد أقوامًا كثيرين يتضرَّعون عندها، ويخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السَّحَر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تُشد إليها الرحال.

فهذه المفسدة - التي هي مفسدة الشرك؛ كبيره وصغيره -؛ هي التي حسم النبيُّ ﷺ مادَّتها، حتىٰ نهىٰ عن الصَّلاة في المقبرة مطلقًا».

وهؤلاء المبطلون الضَّالون المضلُّون؛ عكفوا علىٰ القبور وخضعوا عند الموتىٰ وأقاموا العبادات حيث نهىٰ الله عنها، ومنهم من عبد غير الله فدعا الميت وسأله؛ فكان شركه أغلظ ممَّن اتَّخذ الصَّالحين وسائط في دعائه.

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٦٥).

(٢) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٩٢).

نهىٰ النَّبي ﷺ أمَّته عن اتِّخاذ قبره عيدًا؛ لئلَّا يقعوا في الشِّرك وهذا الحكم عام لكل قبر.

فهؤلاء العاكفون في المقابر؛ قد اتَّخذوها عيدًا، وعادوا إليها كل حين بما نهىٰ ربنا عنه ولم يأذن به الله.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ؛ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، رواه أبو داود[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر علىٰ وجه الأرض، وقد نهىٰ عن اتخاذه عيدًا؛ فقبر غيره أولىٰ بالنهي كائنًا من كان، ثم إنَّه قرن ذلك بقوله ﷺ: «**ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا**»؛ أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة؛ فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهىٰ عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارىٰ ومن تشبَّه بهم».

فتشييد القبور لاتِّخاذها مزارًا لدعاء المقبورين بها شرك،

قال العلَّامة حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إذا أتيت قباب المقابر والمساجد المبنية عليها؛ رأيت بها من الزينة والزخارف، والأعطار والزبرقة، والستور

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد حسن»، وقال: «كل جملة من هذا الحديث رويت عن النبي ﷺ بأسانيد معروفة»، اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٧٠).

(٢) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٧٢).

(٣) معارج القبول (١/ ٤٣١).

المنقشة المعلمة المرصعة، والأبواب المفصَّصة المحكمة، ولها من السدنة والخدام، ما لم تجده في بيت الله الحرام، والداخل إليها والخارج منها من الزوار ما لا تحصيهم الأقلام، وعليها من الأكسية والرايات والأعلام ما لو قُسم لاستغنىٰ به كثير من الفقراء والأرامل والأيتام؛ فما ظنك بالوقوف المُحبَّسة عليها، والأموال المجبية إليها من الثمار والنقود والأنعام، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فأي فاقرة علىٰ الدين أصعب من هذه الأفعال؟! وهل جنىٰ الأخابث علىٰ الدين أعظم من هذا الضلال؟! وهل استطاع الأعداء من هدم قواعد الدين ما هدمه هؤلاء الضُّلال؟! وهل تلاعب الشيطان بأحد ما تلاعب بهؤلاء الجهَّال؟! فأي مُناف للتوحيد وأي مناقض له أقبح من هذا الشرك والتنديد؟! تالله ما قوم نوح ولا عاد ولا ثمود ولا أصحاب الأيكة بأعظم شركًا ولا أشد كفرًا من هؤلاء الملاحيد، وليس أولئك بأحق منهم بالعذاب الشَّديد، وليس هؤلاء المشركون خيرًا من أولئك، ولا براءة لهم من ذلك الوعيد».

فمن الشِّرك دعاء الموتىٰ أو الدُّعاء بهم باتِّخاذهم شفعاء في دعاء الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لو شُرع أن يُطلب من الميِّت الدعاء، والشفاعة، كما كان يطلب منه في حياته؛ كان ذلك مشروعًا في حق الأنبياء، والصالحين، فكان يسنُّ أن يأتي الرجل قبر الرجل الصالح، نبيًّا كان، أو غيره، فيقول: ادع لي بالمغفرة، والنصر، والهدىٰ، والرزق، اشفع لي إلىٰ ربك، فيتخذ الرجل الصالح شفيعًا بعد الموت، كما يفعل ذلك النصارىٰ، وكما تفعل

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص١٢٠، ١٢١).

كثير من مبتدعة المسلمين، وإذا جاز طلب هذا منه؛ جاز أن يطلب ذلك من الملائكة، فيقال: يا جبريل، يا ميكائيل، اشفع لنا إلىٰ ربك، ادع لنا.

ومعلوم أنَّ هذا ليس من دين المسلمين، ولا دين أحد من الرسل، لم يسنَّ أحد من الأنبياء للخلق أن يطلبوا من الصالحين الموتىٰ، والغائبين، والملائكة، دعاءً، ولا شفاعة، بل هذا **أصل الشرك**؛ فإنَّ المشركين إنما اتخذوهم شفعاء، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس: ١٨]».

وقال العلَّامة عبد المحسن العبَّاد البدر حفظه الله[(١)]: «دعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم، وسؤالهم قضاء الحاجات وكشف الكربات، وكذا دعاء الغائبين من الإنس والجن والملائكة؛ شرك مخرج من الملَّة؛ لأنَّ فيه صرف حق الله إلىٰ غيره، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن: ١٨]، وروىٰ الترمذي في جامعه (٢٩٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، عن النعمان بن بشير عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، قال: «**الدعاء هو العبادة**، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ إلىٰ قوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

والنبيُّ ﷺ نهىٰ عن شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور، والمشركون يشدُّون الرِّحال إليها، ويسافر أحدهم إلىٰ المشاهد يقصد الاستغاثة بالمقبور الميِّت ودعائه أو الدُّعاء به، ويطلب من الميِّت ما لا يقدر عليه إلَّا الله من جلب النَّفع ودفع الضّرّ

(١) أهميَّة توحيد العبادة (ص٦٥، ٦٦).

والنَّصر والرِّزق، ومنهم من يخضع ويخشع عند قبر المخلوق تضرُّعًا وهو يدعوه أو يدعو به، ومنهم من يتَّخذ المشهد مصلًّىٰ، يصلِّي عنده ويركع ويسجد، وقد نهىٰ النَّبيُّ ﷺ عن اتِّخاذ القبور مساجد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الذين يحجُّون إلىٰ القبور هم من جنس الذين يحجُّون إلىٰ الأوثان، والمشركون يدعون مع الله إلهًا آخر يدعونه كما يدعون الله. وأهل التوحيد لا يدعون إلَّا الله، لا يدعون مع الله إلهًا آخر، لا دعاء سؤال وطلب، ولا دعاء عبادة وتألُّه، والمشركون يقصدون هذا وهذا، وكذلك الحُجَّاج إلىٰ القبور يقصدون هذا وهذا، ومنهم من يصوِّر مثال الميت ويجعل دعاءه ومحبته والأنس به قائمًا مقام صاحب الصورة، سواء كان نبيًّا أو رجلًا صالحًا أو غير صالح، وقد يصوّر المثال له أيضًا - كما يفعل النصارىٰ - وكثيرًا ما يظنون في قبر أنَّه قبر نبيٍّ أو رجل صالح، ولا يكون ذلك قبره بل قبر غيره، أو لا يكون قبرًا، وربما كان قبر كافر. وقد يحسنون الظن بمن يظنونه رجلًا صالحًا وليًّا لله ويكون كافرًا أو فاجرًا، كما يوجد عند المشركين وأهل الكتاب وبعض الضُّلَّال من أهل القبلة».

❁ ❁ ❁

(١) الإخنائية (ص١٣٦).

حقيقة الشِّرك ومعناه

بيَّن الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاجَّته للمشركين ما جهلوه من معنىٰ الشِّرك؛ فإنَّ من أخلص لله وعرف الشِّرك اجتنبه، ومن ضلَّ بسبب جهله أو سوء قصده وقع فيه.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ.

فَقُلْ لَهُ: وَمَا مَعْنَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يُونُس: ٣١].

وَإِنْ قَالَ: هُوَ مَنْ قَصَدَ خَشَبَةً، أَوْ حَجَرًا، أَوْ بِنْيَةً عَلَىٰ قَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، وَيَدْفَعُ اللهُ عَنَّا بِبَرَكَتِهِ أَوْ يُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ.

فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَىٰ الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا.

فَهَذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَيُقَالُ لَهُ - أَيْضًا -: قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ

---

(١) كشف الشُّبهات (ص٢٩-٣٤).

مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟

فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَىٰ أَوِ الصَّالِحِينَ.

فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَهُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللهِ. فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ؟ فَسِّرْهُ لِي.

فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. فَقُلْ: وَمَا مَعْنَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ. فَقُلْ: مَا مَعْنَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟

وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ؛ بَيَّنْتَ لَهُ الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَىٰ الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَه فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا، وَيَصِيحُونَ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنَّما يكفرون لمَّا قالوا: الملائكة بنات الله. فإنَّا لم نقل: عبد القادر ابنُ الله ولا غيره.

فالجواب: إنَّ نسبة الولد إلىٰ الله كفر مستقلٌّ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، والأحد: الذي لا نظير له، والصَّمَدُ: المقصود في الحوائج.

فمن جحد هذا فقد كفر، ولو لم يجحد السُّورة، وقال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ففرَّق بين النَّوعين، وجعل كلًّا منهما كُفْرًا مُسْتقلًّا، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، فَفَرَّقَ بين كُفْرَين.

والدليلُ علىٰ هذا أيضًا: أنَّ الذين كفروا بدعاء اللَّات مع كونه رجلًا صالحًا لم يجعلوه ابنَ الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك. وكذلك أيضًا العلماء في جميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب «حكم المرتَدِّ» أنَّ المسلمَ إذا زعم أنَّ لله ولدًا فهو مرتد، ويُفرِّقون بين النَّوعين، وهذا في غاية الوضوح».

كلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله» نفسها فيها بيان معنىٰ التَّوحيد وما يضادّه من الشِّرك، وأنَّ الله وحده هو المستحق للعبوديَّة الذي تتألّهه قلوب الموحِّدين محبَّة وتعظيمًا ورغبة ورهبة ورجاءً، وتكفر بكل ما يُعبد من دون الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا ريب أنَّ الله ألزم الخلق التوحيد، وأمرهم به، و قضىٰ به، وحكم، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]: وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وهذا كثير في القرآن يوجب علىٰ العباد عبادته وتوحيده، ويُحرِّم عليهم

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٢/ ٤٥).

عبادة ما سواه، فقد حكم وقضىٰ: أنَّه لا إله إلَّا هو».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته؛ لأنَّه المألوه المعبود، الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشَّدائد، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبوديَّة، فكيف يصلح أن يكون إلهًا؟!

قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّخرُف: ١٥]».

وقال العلَّامة مبارك بن محمَّد الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يدخل المرء في الإسلام بقوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ثم قال[٣]: «محصّل الجملتين أن لا يُعبد إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وأن لا يُعبد إلَّا بما شرعه علىٰ لسان رسوله ﷺ، وعلىٰ هذين الأصلين انبنىٰ الإسلام، وكل ما في الكتاب والسُّنَّة تفصيل لما تضمَّنه هذان الأصلان».

وقال الميلي أيضًا[٤]: «الدَّاعي إلىٰ الكتاب والسُّنَّة وتفهُّمهما إنَّما هو داعٍ لتحقيق كلمتي الشَّهادة، ولهذا تجد فيهما وفي كلام السَّلف الحثُّ علىٰ تعلُّمهما واتِّباعهما وتحكيمهما عند النِّزاع، والتَّحذير من مخالفتهما».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشِّرك وأنواعه بتبيين معنىٰ التَّوحيد والألوهيَّة لله؛ لأن الشِّرك مضادّ للتَّوحيد، فبيَّن التَّوحيد بتبيين

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٨).

(٢، ٣) الشِّرك ومظاهره (ص٤٩).

(٤) الشِّرك ومظاهره (ص٥٠).

معنىٰ شهادة أن لا إله إلَّا الله وكذلك بتبيين معنىٰ شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن النبيَّ ﷺ لم يشرع لأمته أن تدعو أحدًا من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرَهم، بل نعلم أنَّه نهىٰ عن هذه الأمور كلِّها، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، **وهذا من معنىٰ «لا إله إلا الله»**؛ فإنَّ «لا» هذه النافية للجنس، فتنفي جميع الآلهة، و«إلا» حرف استثناء يفيد حصر جميع العبادة علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، و«الإله» اسم صفة لكل معبود بحق أو باطل، ثُمَّ غلب علىٰ المعبود بحق وهو الله تعالىٰ، وهو الذي يخلق ويرزق ويدبِّر الأمور، «والتألُّه» التعبُّد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم ذكر الدليل فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٤، ١٦٥] الآية.

وأمَّا متابعة الرسول ﷺ فواجب علىٰ أمته متابعته في الاعتقادات والأقوال والأفعال، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية، وقال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»، رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»، فتُوزن

(١) رسالة إلىٰ عبد الله الصَّنعاني (ص٦٠)، المجلَّد الثَّالث من مؤلَّفات الشَّيخ.

الأقوال والأفعال بأقواله وأفعاله؛ فما وافق منها قُبل، وما خالف رُدَّ علىٰ فاعله كائنًا من كان، فإنَّ شهادة أنَّ محمدًا رسول الله ﷺ تتضمن تصديقَه فيما أخبرَ به، وطاعته ومتابعته في كل ما أَمر به، وقد روىٰ البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ**». قيل: ومن يأبىٰ؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**».

والتَّوحيد هو عبوديَّة الله والتألُّه بالعمل له، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]».

والشِّرك هو عبوديَّة غير الله، أو ترك عبوديَّة الله، قال تعالىٰ ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلَت: ٦، ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم، أي: ليست زاكية، وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص، كأنه أراد - والله أعلم - أهل الرياء؛ فإنه شرك.

وعن الحسن: لا يؤمنون بالزكاة ولا يقرون بها.

وعن الضحاك: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة.

وعن ابن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم، قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون.

والتحقيق: أنَّ الآية تتناول كل ما يتزكىٰ به الإنسان من التوحيد والأعمال

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٥/ ٤٥٦).

الصالحة، كقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات: ١٨]، وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٤]، والصدقة المفروضة لم تكن فُرضت عند نزولها».

فمن تألَّه لله بعبادته وحده فهو من الموحِّدين، ومن لم يعبد الله فهو من الكافرين، والجهميَّة غاية توحيدهم هو المعرفة، فاحذرهم فإنَّهم ليسوا من أهل القبلة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمَّة السُّنَّة: أن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرَّده، ولا معرفة القلب مع ذلك، بل لا بد فيه من عمل القلب، وهو حبُّه لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وانقياده لدينه، والتزامه طاعته ومتابعة رسوله ﷺ».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لابُدَّ أن يكون الإنسان موحدًا بقلبه وقوله وعمله، فإن كان موحدًا بقلبه ولكنه لم يوحِّد بقوله أو بعمله فإنَّه غير صادق في دعواه؛ لأن توحيد القلب يتبعه توحيد القول والعمل؛ لقول النبي ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»».

والشِّرك ضدّ التَّوحيد، والتَّوحيد قسمان ونوعان: توحيد معرفة وإثبات، وتوحيد قصد وطلب، والشِّرك ما أبطل أو عطَّل أو ضادّ هذين النَّوعين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «علم التوحيد، الذي أساسه: إثبات الأسماء

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٥٩).

(٢) شرح كشف الشبهات (ص١٣١).

(٣) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٢٥).

والصفات، وضده: التعطيل والنفي والتجهم، فهذا التوحيد يقابله التعطيل.

وأما التوحيد القصدي الإرادي الذي هو إخلاص العمل لله وعبادته وحده؛ فيقابله الشرك، والتعطيل شرٌّ من الشرك؛ فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها، وهو جحد لحقيقة الإلهية».

ومن الشِّرك تشبيه الخالق بالمخلوق - تعالىٰ الله عن الندِّ والمثل والشَّبيه -، وطوائف وفرق المبتدعة في أسماء الله وصفاته ضلالهم في توحيد الأسماء والصِّفات يتفاوت تغليظه، فالغلاة منهم شبَّهوا الخالق بالمخلوق كالمقاتلية، ومن الغلاة من عطَّل الأسماء والصِّفات كالجهميَّة، والمعتزلة الغلاة أنكروا الصِّفات، وفروع المعتزلة كالأشاعرة حرَّفوا كثيرًا من معاني أسماء الله وصفاته؛ لأنَّها أوهمت عندهم مماثلة صفات الله، فجمعوا بين التَّعطيل والتَّمثيل والتَّحريف.

وأسماء الله كلُّها حسنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وصفاته كلُّها عليا، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فالواجب إثبات ما تمدّح الله به نفسه من كمال ذاته وأسمائه وصفاته.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل تثبت له الأسماء والصفات، وتنفي عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتك منزهًا عن التشبيه، ونفيك منزهًا عن التعطيل».

والشِّرك يرجع إلىٰ مضاهاة الله بخلقه وتعطيله عن حقِّه وكماله، فكمال الله

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٧٢).

الذي ليس كمثله شيء هو الذي أوجب حقَّه الخالص من عبوديَّته والتألُّه له وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وكماله هو الذي أوجب للموحِّدين الالتجاء إليه في السرَّاء والضرَّاء ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وكمال أسمائه وصفاته هي التي أوجبت للموحِّدين التألُّه له وعبوديَّته بمقتضاها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الشرك شركان:

شرك يتعلَّق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنَّه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والشرك الأول نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك؛ كشرك فرعون إذ قال: وما رب العالمين؟ وقال لهامان: ابن لي صرحًا لعلي أطلع إلىٰ إله موسىٰ وإني لأظنه كاذبًا. فالشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطِّل، وكل معطِّل مشرك، لكنَّ الشِّرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقِرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنَّه عطَّل حقَّ التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله، وتعطيل معاملته عمَّا يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد».

---

(١) الجواب الكافي (ص٢٩٨، ٢٩٩).

وكل من نسب إلىٰ مخلوق شيئًا من أفعال الله؛ فقد جعله إلهًا مع الله، تعالىٰ الله عما يشركون.

وكذلك من اعتقد في مخلوق أنَّه إله مع الله؛ فهذا شرك النَّصارىٰ، وهو أوضح من أن يُشار إليه.

فمن الشِّرك اعتقاد أنَّ الحوادث الأرضيَّة تقع بسبب الأحوال العلويَّة للكواكب والنُّجوم، ومن الشِّرك اتِّخاذ عيسىٰ ابن مريم وأمَّه إلهين مع الله.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر، ولم يعطِّل أسماءه وصفاته وربوبيَّته، كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا، وأمَّه إلهًا.

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ النور، وحوادث الشرِّ إلىٰ الظلمة.

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأنَّ الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنَّها تحدُث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته؛ ولهذا كانوا من أشباه المجوس.

ومن هذا شرك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذا جعل نفسه ندًّا للهِ، يحيي ويميت بزعمه، كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبراهيم أنَّ طرد قولك أن تقدر علي الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها. وليس هذا انتقالًا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزامًا علىٰ طرد

---

(١) الجواب الكافي (ص٣٠٠، ٣٠١).

الدليل إن كان حقًّا. ومن هذا: شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصائبة وغيرهم، ومن هذا: شرك عُبَّاد الشمس وعُبَّاد النار وغيرهم».

ومعرفة ما تستلزمه كلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله» من علم القلب واعتقاده وعمله، وقول اللِّسان، وعمل الجوارح، ونفي الإلهيَّة عمَّا سوىٰ الله؛ هو من أسباب معرفة حقيقة الشِّرك والكفر ومحاذرته.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن التصديق الحقيقي بـ«لا إله إلا الله» يستلزم التصديق بشُعَبِها وفروعها كلِّها، وجميع الدين - أصوله وفروعه - من شعب هذه الكلمة؛ فلا يكون العبد مصدِّقًا بها حقيقة التصديق حتىٰ يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه. ولا يكون مؤمنًا بأنَّ الله إلهُ العالمين حتىٰ يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله. ولا يكون مؤمنًا بأنَّه «لا إله إلَّا هو» حتىٰ يسلب خصائص الإلهيَّة عن كلِّ موجود سواه، ويسلبَها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفيَّة في الحقيقة والخارج.

ولا يكون مصدِّقًا بها مَنْ نفىٰ الصفات العُلَىٰ، ولا من نفىٰ كلامه وتكليمه، ولا من نفىٰ استواءه علىٰ عرشه، وأنَّه يصعد إليه الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصالح، وأنَّه رفع المسيح إليه، وأسرىٰ برسوله ﷺ إليه، وأنَّه يُدَبِّرُ الأمر من السماء إلىٰ الأرض ثم يَعْرُج إليه، إلىٰ سائر ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ.

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة مصدِّقًا بها علىٰ الحقيقة مَنْ نفىٰ عموم خَلْقِهِ

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩١ - ٩٣).

لكل شيء وقدرته على كلِّ شيء، وعِلْمِهِ بكلِّ شيء، وبعثه للأجساد من القبور ليوم النشور. ولا يكون مصدِّقًا بها من زعم أنه يترك خَلْقَه سُدًى، لم يأمرهم ولم يَنْهَهُم على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة؛ فالتصديق بجميع أخباره وامتثالُ أوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل «لا إله إلا الله»، فالمصدِّق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كلِّه، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدَّم - على الإطلاق - إلا بها، وبالقيام بحقِّها، وكذلك لا تحصل النَّجاة من العذاب - على الإطلاق - إلا بها وبحقِّها؛ فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها أو ترك حَقِّها».

وقال شيخنا العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا معنى توحيد العبادة وما يضادّها من الشِّرك(١): «العبادة: هي توحيده وطاعته بامتثال أوامره وترك نواهيه، وقد أمر الله بذلك في آيات كثيرات، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: ٢، ٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، كلها تدل على وجوب إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه من الأنبياء وغيرهم.

ولا ريب أنَّ الدعاء من أهم أنواع العبادة وأجمعها، فوجب إخلاصه لله وحده، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال

(١) الفتاوى البازيَّة (٢/ ١١٠، ١١١).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وهذا يعم جميع المخلوقات من الأنبياء وغيرهم؛ لأن «أحدًا» نكرة في سياق النهي، فتعم كل من سوىٰ الله سبحانه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وهذا خطاب للنبي ﷺ، ومعلوم أن الله سبحانه قد عصمه من الشرك، وإنَّما المراد من ذلك تحذير غيره، ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، فإذا كان سيد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لو دعا غير الله يكون من الظالمين، فكيف بغيره؟!

والظلم إذا أُطلق يُراد به الشرك الأكبر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فعُلم بهذه الآيات وغيرها أن دعاء غير الله من الأموات والأشجار والأصنام وغيرها شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ينافي العبادة التي خلق الله الثقلين من أجلها، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيانها والدعوة إليها، وهذا هو معنىٰ «لا إله إلا الله»؛ فإن معناها: لا معبود حق إلا الله، فهي تنفي العبادة عن غير الله وتثبتها لله وحده، كما قال الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وهذا هو أصل الدين وأساس الملة، ولا تصح العبادات إلا بعد صحة هذا الأصل كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمر: ٦٥، ٦٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]».

فالشِّرك قصد المخلوق بالدُّعاء، والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، وقصده بالصَّلاة وشدّ الرِّحال والحجّ إليه، والتضرُّع له، والخضوع والخشوع عنده.

ومن عرف معنىٰ القرآن والسنَّة، وحقيقة ما بُعث به النبيُّ ﷺ من الدَّعوة للتَّوحيد؛ لا يرتاب أن اتِّخاذ القبور مساجد مما يوجب لعنة الله وأنَّ دعاء المخلوق شرك أكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كثير من الناس لا يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين إلا مقاصد أهل الشرك، الذين يجعلونهم أوثانًا، وأندادًا لله، وهم شر من الذين اتخذوها مساجد، فإن أولئك يقصدون أن يصلوا فيها لله، ويدعون الله، وهؤلاء إنَّما يقصدون دعاءهم، والحج إليهم، فيجعلون صلاتهم ونسكهم للمخلوق، لا للخالق. يقصد أحدهم في زيارة قبر من يعظمه ما يقصده الحاج في الحج إلىٰ بيت الله، وما يقصده المصلي الذي يقصد مساجد الله، فالحاج والمصلي مسلم حنيف متبع لملة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦١- ١٦٣].

فالمسلم صلاته ونسكه لله، والمشرك يصلي لغير الله، وينسك لغير الله، ويدعو المخلوق، ويستغيث به، ويتضرع إليه، كما يفعل بالخالق، ويحج إلىٰ قبره كما يحج إلىٰ بيت الخالق، ويسمون ذلك نسكًا».

والذي أوقع النَّاس بالشِّرك جهلهم بمعناه، وهؤلاء ما أحوجهم إلىٰ طلب

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص٦٨).

علم التَّوحيد وتعليمهم ما يضادّه من أنواع الشِّرك.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيما يُروىٰ عنه: «**إنَّما تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليَّة**»، فمن عرف الكفر لا يمكن أن ينقض الإسلام».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «معرفة المسلم بدين الجاهلية هو ممَّا يُعرفه بدين الإسلام، الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ويعرف الفرق بين دين المسلمين الحنفاء أهل التوحيد والإخلاص، أتباع الأنبياء، ودين غيرهم، ومن لم يميِّز بين هذا وهذا؛ فهو في جاهلية، وضلال، وشرك، وجهل».

فالواجب علىٰ المسلم تعلُّم التَّوحيد، وهو فرض عين علىٰ كل مسلم.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «العلم بتوحيد الله فرض عين علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلىٰ ذلك. والطريق إلىٰ العلم بأنه لا إله إلا هو أمور:

أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة علىٰ كماله وعظمته وجلالته؛ فإنَّها توجب بذل الجهد في التألُّه له، والتعبُّد للربِّ الكامل الذي له كل

(١) تفسير سورة الأنعام (ص٢٣٩).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص١٣٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن بتفسير كلام المنان (ص٨٣٦، ٨٣٧).

حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالىٰ المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية؛ فإنَّ ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتألُّه له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإنَّ هذا داعٍ إلىٰ العلم، بأنه تعالىٰ وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنَّها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شرٍّ؛ فإنَّ العلم بذلك يوجب العلم بأنَّه لا إله إلا هو وبطلان إلهيَّة ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله علىٰ ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أنَّ خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا، وعلمًا - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيُّون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل علىٰ التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلىٰ أنَّه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها، عند تأمل العبد في بعضها، لا بُدَّ أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتَّفقت، وقامت أدلَّة التوحيد من كلِّ جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشُّبه والخيالات، ولا يزداد - علىٰ تكرر الباطل والشبه - إلا نموًا وكمالًا.

هذا، وإن نظرت إلىٰ الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبُّر هذا القرآن العظيم، والتأمُّل في آياته - فإنَّه الباب الأعظم إلىٰ العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجُمله ما لا يحصل في غيره».

ومن جوامع كلم النَّبيِّ ﷺ في تبيين التَّوحيد وما يضادُّه من الشِّرك قوله ﷺ: «**حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا**»، متَّفق عليه، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالتَّوحيد أداء العبادات خالصة لله وحده لا شريك له، ومن صرف شيئًا من العبادات لغير الله فقد أشرك، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جميع الرُّسل بُعثوا بهذا الأمر، بُعثوا يدعون النَّاس إلىٰ توحيد الله، إلىٰ عبادة الله، إلىٰ تخصيصه بالعبادة، هو الذي يدعىٰ ويرجىٰ، هو الذي يُسأل ويُستغاث به، هو الذي يُنذر له ويُذبح

(١) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٣٠٥، ٣٠٦).

له، ولا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله، هذا هو الشِّرك الأكبر، هذا هو أعظم الذُّنوب؛ كالذين يدعون الأولياء، أو الجنَّ، أو الكواكب، أو الملائكة، أو الأنبياء يستغيثون بهم، أو ينذرون لهم، ويذبحون لهم، هذا هو الشِّرك الأكبر، هذا الشِّرك الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال فيه سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال فيه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال فيه سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]».

وعلم التَّوحيد هو أوَّل ما يجب تعلُّمه وتعليمه، هكذا كانت دعوة المرسلين جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وبعث النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ داعيةً إلىٰ اليمن وقال له: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**» متَّفق عليه.

وكلمة التَّوحيد هي كلمة التَّقوىٰ وأساسها، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، وهكذا كان النبيُّون عليهم السلام أوَّل ما يعظون النَّاس من أمر التَّقوىٰ كلمة التَّوحيد؛ لأنَّها هي الأساس، قال تعالىٰ:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات: ١٢٣-١٢٦].

وأول ما ينصح ويعظ الحكماء المصلحين أقوامهم هو التوحيد ويحذِّرونهم الشِّرك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٢، ١٣].

ومن رُزق قراءة القرآن وتدبُّره؛ تعلَّم منه التَّوحيد وحقائقه، فمن تحقَّق بذلك؛ علم أضداده من الشِّرك الأكبر والأصغر فاجتنبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «التَّوحيد وإخلاص الدِّين لله هو مقصود القرآن، وهو الذي يعظم أمره ويكثر ذكره؛ فإنَّ العبد محتاج إليه في كلِّ وقت، وفي كل شيء».

فمن اهتدىٰ بالقرآن هداه الله، ومن تعامىٰ عن معانيه فذلك المعرض عن الله، ومن أعرض عن الله هدايةً واستهداءً مال إلىٰ الشِّرك، إلَّا أن يتوب فيتوب الله عليه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أي: تغافلوا، وتعامّوا، وتصامموا، عن قبول الهدىٰ واتِّباع الحقِّ».

وإنَّما ضلَّ المشركون عن معاني التَّوحيد بسبب التَّقليد ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

---

(١) جواب الاعتراضات المصريَّة علىٰ الفتيا الحمويَّة (ص٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٤).

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٢]، ومنهم من ضلَّ بسبب هجره للقرآن أو قراءته هذًّا بلا تدبُّر، ولو اهتدوا به لجرَّدوا التَّوحيد لله وحده لا شريك له.

فلا يرتاب عالم بمعاني القرآن والسنَّة أنَّ سؤال المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «منهم من يطلب من الميت ما يطلب من الله، فيقول: اغفر لي، وارزقني، وانصرني، ونحو ذلك؛ كما يقول المصلي في صلاته لله تعالىٰ، إلىٰ أمثال هذه الأمور التي لا يشك مَن عَرَف دين الإسلام أنَّها مخالفة لدين المرسلين أجمعين؛ فإنَّها من الشرك الذي حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، بل من الشِّرك الذي قاتل عليه الرسول ﷺ المشركين».

ومن غلط في معنىٰ التَّوحيد وما يضادّه من الشِّرك؛ بيَّنه له النَّبيُّ ﷺ بيانًا يوضِّح التَّوحيد وينبِّه به علىٰ معنىٰ الشِّرك، فإنَّ عديَّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما تلا النبيُّ ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما عبدناهم؛ فأجابه النبيُّ ﷺ قائلًا: «**ألم يحلوا لكم الحرام فأحللتموه، ويُحرِّموا عليكم الحلال فحرَّمتموه؟**»، قال عدي: بلىٰ؛ فقال النبي ﷺ: «**فتلك عبادتهم**»، رواه أحمد والتِّرمذيّ وحسَّنه[٢].

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص٧٠).

(٢) وصحَّحه أبو المظفَّر السَّمعاني في تفسيره (٢/ ٣٠٣)، وحسَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦٧).

وما قاله النبيُّ ﷺ لعديِّ بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورىٰ: ٢١].

وهذا الشِّرك الذي يتحسَّر المشركون علىٰ ما كان منهم في الدُّنيا إذا وردوا الدَّار الآخرة وكان عاقبة أمرهم خسرًا، ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨]، فأعظم الشِّرك تسوية المخلوق بالخالق بالخضوع والحبِّ والتذلُّل، وما أعظم نصيب عبَّاد القبور من هذا النَّوع من الشِّرك، يخضعون لميِّت ويدعونه أو يدعون به.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «ومعلوم أنَّهم ما سوَّوهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سوَّوهم به في الحب والتألُّه والخضوع لهم والتذلُّل، وهذا غاية الجهل والظلم. فكيف يُسَوَّىٰ التراب بربِّ الأرباب؟! وكيف يسوىٰ العبيد بمالك الرِّقاب؟! وكيف يسوَّىٰ الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟!

فأي ظلم أقبح من هذا؟! وأي حكم أشد جورًا منه حيث عدل من لا عَدْل له بخلقه! كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١] فعَدل المشرك مَنْ خلق السموات والأرض وجَعَل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال

---

(١) الجواب الكافي (ص٣٠٤، ٣٠٥).

ذرَّة في السموات ولا في الأرض، فيا لك من عَدْلٍ تضمَّن أكبرَ الظلم وأقبحه!».

وكان النبيُّ ﷺ يُعلِّم الصِّغار فضلًا عن الكبار معاني التَّوحيد في أحسن أسلوب وأوضح عبارة وأنفعها في إفادة تجريد الإخلاص لله الموجب لدفع ما يضادُّه من الشِّرك، يُبيِّن أنواعه بما يفيد إخلاص الدُّعاء لله، فيكون المهتدي بتعليمه مجرِّدًا إرادته القلبيَّة لله لا يدعو مع الله أحدًا، ومتعلِّقًا بالله وحده حفظًا وكفاية وتدبيرًا، فقد قال النبيّ ﷺ لابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يا غلام! إنِّي مُعلِّمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضرُّوك لن يضرُّوك إلَّا بشيء قد كتبه الله عليك**»، رواه أحمد والتِّرمذي وقال: حديث حسن صحيح.

أفيرتاب بعد هذا البيان النبوي أحد في أنَّ دعاء غير الله من موتىٰ المخلوقين ومن الأحياء فيما لا يقدر عليه إلَّا الله؛ أنَّه شرك.

وقد بيَّن النبي ﷺ أنَّ الشِّرك يكون في الإرادات، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجَّال؟**» قالوا: بلىٰ؛ قال: «**الشِّرك الخفي، يقوم الرَّجل فيصلِّي فيزيِّن صلاته، لما يرىٰ من نظر رجل**»، رواه أحمد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مبيِّنًا بعض أنواع الشِّرك في العبادة[1]: «لا يُخلِص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظِّ نفسه تارةً، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب

(١) الجواب الكافي (ص٣٠٢، ٣٠٣).

الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة؛ فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظِّه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال كثير من الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبيُّ ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: «**الشرك في هذه الأمَّة أخفىٰ من دبيب النمل**» قالوا: وكيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»، فالرِّياء كله شرك».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمَّا الشِّرك في الإرادات والنيَّات؛ فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه.

فمن أراد بعمله غيرَ وجه الله، أو نوىٰ شيئًا غيرَ التقرُّب إليه وطلبِ الجزاء منه؛ فقد أشرك في نيَّته وإرادته. والإخلاص أن يُخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونيته، وهذه هي الحنيفيَّة ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلَّهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء».

وكان تعليم النبيِّ ﷺ للصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ - وهو تعليم للأمَّة من بعدهم - معاني التَّوحيد تعليمًا فيه بيان حقيقة التَّوحيد، وفصل ما بينه وبين الشِّرك، تعليمًا يجعل المُتعلِّم يُدرك التَّوحيد بأصوله وقواعده الكليَّة ومعانيه المقصودة، ويفهم منه الشِّرك بأنواعه وفروعه.

---

(١) الجواب الكافي (ص٣١٢، ٣١٣).

ففي الصَّحيحين من حديث خالد بن زيد الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** صلَّىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصُّبح بالحديبية علىٰ إثر سماء كانت من اللَّيل، فلما انصرف أقبل علىٰ النَّاس فقال: «**أتدرون ماذا قال رَبُّكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأمَّا من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**».

فهذا تعليم من النبيِّ ﷺ توحيد الله بأفعاله، وتحذير من شرك من نسب شيئًا من أفعال الله وحده لغيره من مخلوقاته.

والنبيُّ ﷺ بيَّن ما يكون من الشِّرك باتِّخاذ سببٍ لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا، فقال «**من تعلَّق تميمة فقد أشرك**».

وهذا بيان للحكم مهما كان نوع التميمة، سواء من حجر أو جلد أو وتر، والحكم للمعنىٰ العام لكل ما ليس بسبب شرعي ولا قدري، فهذا المعنىٰ الذي من أجله علَّل النبيُّ ﷺ الشِّرك بتعليق التمائم.

وكان المشركون في الجاهليَّة يثبتون الأسباب الشركيَّة في المخلوقات باعتقاداتهم الباطلة، كاعتقادهم أنَّ المرض فاعل مؤثِّر بنفسه يُعدي، فقال لهم النبيّ ﷺ: «**لا عدوىٰ ولا طيرة**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيِّنًا معنىٰ إنكار النبي** ﷺ[1]: «نفىٰ ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل، ووقوع النفي والإثبات علىٰ وجهه؛ فإن القوم كانوا

(١) مفتاح دار السَّعادة (٣/ ١٥٩٠).

يثبتون العدوىٰ علىٰ مذهبهم من الشرك الباطل، كما يقوله المنجِّمون من تأثير الكواكب في هذا العالم وسعودها ونحوسها كما تقدَّم الكلامُ عليهم، ولو قالوا: أنها أسباب أو أجزاء أسباب إذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وإرادته وحكمته، وأنَّها مسخَّرةٌ بأمره لما خُلقت له، وأنَّها في ذلك بمنزلة سائر الأسباب التي ربط مسبَّباتها وجعل لها أسبابًا أخرَ تعارضها وتمانعها، وتمنعُ اقتضاءها لِمَا جُعلت أسبابًا له، وإنَّها لا تقضي مسبباتها إلا بإذنه مشيئته وإرادته، ليس لها من ذاتها ضرٌّ ولا نفْعٌ ولا تأثير البتَّة، إنْ هي إلا خلقٌ مسخَّرٌ مصرَّفٌ مربوب، لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته، وغايتها أنَّها جزء سبب ليست سببًا تامًّا».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله سبحانه يجعل من ذلك سببًا ما يشاء، ويبطل السببيَّة عمَّا يشاء، ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه. فهم لو أثبتوا العدوىٰ علىٰ هذا الوجه لما أُنكر عليهم، كما أن ذلك ثابت في الداء والدواء، وقد تداوىٰ النبيُّ ﷺ وأمر بالتَّداوي، وأخبر أنه ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواءً إلا الهرم؛ فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها، وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب».

وقاعدة الأسباب فهمها من أسباب تحقيق التَّوحيد وإخلاص الرَّغبة والرَّهبة لله، والتوكُّل عليه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وعلىٰ هذا قيام مصالح الدارين، بل الخلق

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٥٩٠، ١٥٩١).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٣/ ١٥٩١).

والأمر مبنيٌّ علىٰ هذه القاعدة؛ فإنَّ تعطيلَ الأسباب وإخراجها عن أن تكون أسبابًا تعطيلٌ للشرع ومصالح الدنيا، والاعتماد عليها والركون إليها واعتقاد أنَّ المسبَّبات بها وحدها، وأنَّها أسباب تامَّة؛ شركٌ بالخالق عَزَّوَجَلَّ، وجهل به، وخروج عن حقيقة التوحيد، وإثبات سببيَّتها علىٰ الوجه الذي خلقها الله عليه وجعلها له؛ إثباتٌ للخلق والأمر، للشرع والقدر، للسبب والمشيئة، للتوحيد والحكمة. فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه، وينفي ما عليه المشركون من اعتقادهم في ذلك».

وبيَّن النبيُّ ﷺ بعض أنواع الشِّرك، وهو التشاؤم بما لا حقيقة له، فقال ﷺ: «**من ردَّتْه الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك**»، رواه أحمد من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وذلك أنَّ بناء الاعتقاد علىٰ الأوهام يُضعف القلب، ويقطع الإنسان عن العمل، والمؤمن متوكِّل علىٰ الله ساعٍ في مصالحه، إقدامه أو إحجامه عن الفعل هو حكمُ الله في ذلك الفعل؛ فإن كان مشروعًا أقدم، وإن كان ممنوعًا أحجم، والقضاء الكوني لابُدَّ أن يُدرك الإنسان ولو كان في جوف بيته، ولو لم يخرج إلىٰ حاجة؛ قال تعالىٰ: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ٥١].

ومن تبيين الرَّسول ﷺ معاني التَّوحيد وما يضادّه من الشِّرك توضيحه أنَّ تعظيم المخلوق بما لا يجوز إلَّا لله شرك، كما في قوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، رواه أحمد، وذلك أنَّ حقيقة اليمين توكيد المحلوف عليه بذكر مُعظَّم، ولا يجوز تعظيم الأيمان إلا بالله وحده لا شريك له.

ومهما عظمت رتبة المخلوق فإنَّه مربوب لله، فمن صرف إليه شيئًا من حقوق الله، أو نسب إليه شيئًا من أفعاله، أو جعله في رتبة ربِّ العالمين؛ فقد جعله ندًّا لله وأشرك بالله.

قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من جعل لله ندًّا من خلقه فيما يستحقه عَزَّوَجَلَّ من الإلهيَّة والربوبيَّة؛ فقد كفر بإجماع الأمَّة».

والله عَزَّوَجَلَّ فصَّل معنىٰ الشِّرك وبيَّنه في القرآن زجرًا عنه، واتِّخاذ المخلوقين شفعاء في دعاء الله دلَّ القرآن بمنطوقه علىٰ أنَّه شرك في العبوديَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]، فقد حكم الله بأنَّ اتخاذ الشُّفعاء وسائط في دعاء الله هو من عبادة من دون الله، ومن عبد من دون الله فقد أشرك شركًا أكبر.

وتدبَّر أيُّها المسلم بقلب حاضر وأذن واعية قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٥-١٠٧]،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٨).

فما أعظم القرآن كلّه في تبيين التَّوحيد، وما أعظم هذه الآيات في تناسقها، وبلاغتها ومعانيها في الدَّلالة علىٰ معنىٰ التَّوحيد وما يضادّه من الشِّرك! فقد أمرت أولًا بإقامة الوجه لله وحده والميل عمَّا سواه؛ تحقيقًا للتَّوحيد، ونهيًا عن الشِّرك، ثم أبانت عن أعظم أنواع الشِّرك وهو دعاء وعبادة غير الله ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، فبيَّنت أنَّ دعاء غير الله شرك وهو أعظم الظُّلم، وبيَّنت الآيات أنَّ النَّافع الضَّار الذي إليه يُرجع الأمر كله هو الله، وكُلُّ هذا فيه بيان ما يستلزمه توحيد الربوبيَّة والأسماء والصِّفات من عبوديَّة الله وحده لا شريك له.

والمشركون قد اتَّخذوا ربًّا وإلهًا من البشر، يسألونه ما لا يقدر عليه إلا الله من الرِّزق والنَّصر والتَّدبير، وينذرون له ويذبحون، ومنهم من يخضع للميِّت من المخلوقين ويخشع له، ثم يقول هؤلاء المشركون: هذا ليس بشرك!

والنبيُّ ﷺ في حمايته لجناب التَّوحيد حذَّر من ذرائع الشِّرك، وكان تحذيره من الشِّرك أكبر، فنهيه عن عبادة الله عند قبور الصَّالحين فيه أوضح تبيين لشرك عبادة الصَّالحين ودعائهم، فإنَّه ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنَّصارىٰ، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، رواه البخاري ومسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّه ﷺ لعن مَن يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ونهىٰ أمته أن يتخذوا القبور مساجد، فإذا كان هو ﷺ لَعَن من يصلي عندها لله، ويدعو الله - لأن ذلك ذريعة إلىٰ الشرك - فكيف بمن

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص٥٧).

يصلي لها، ويسجد لها، أو يدعوها، ويستغيث بها، ويطلب منها ما يطلب من ربِّ العالمين؛ فإنَّ هذا من أعظم الشرك، وجعلها أوثانًا وأندادًا لله ربِّ العالمين، كما فعل قوم نوح، ومن ضاهاهم من مشركي أهل الكتاب».

وفي قول النَّبي ﷺ «**اللَّهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**» - رواه مالك في الموطَّأ - تبيين لمعنىٰ الوثنيَّة والشِّرك، وهو عبادة قبور الأنبياء والصَّالحين بدعائهم والاستغاثة بهم.

ومَن تحقَّق بالتَّوحيد وجرَّد العبوديَّة لله، والاستعانة به وحده لا شريك له؛ فذاك الذي برئ من الشِّرك وعرف معناه فاجتنبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيه إخلاص العبادة لله، والاستعانة به، وأنَّ المؤمنين لا يعبدون إلا الله، ولا يستعينون إلَّا بالله، فمن دعا غير الله من المخلوقين أو استعان بهم من أهل القبور أو غيرهم؛ لم يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ولا يحقق ذلك إلَّا مَن فرَّق بين الزيارة الشرعيَّة و الزيارة البدعيَّة؛ فإن الزيارة الشرعية عبادة لله عَزَّوَجَلَّ وطاعة لرسوله ﷺ وتوحيد لله، وإحسان إلىٰ عباده، وعمل صالح من الزائر يثاب عليه. والزيارة البدعية شرك بالخالق، وظلم للمخلوقات، وظلم للنفس.

فصاحب الزيارة الشرعية: هو الذي يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، ألا ترىٰ أن اثنين لو شهدا جنازة، فقام أحدهما يدعو للميت ويقول: اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله،

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (١/ ٨٨، ٨٩).

واغسله بماء وثلج وبرد، ونقِّه من الذنوب والخطايا كما يُنَقَّىٰ الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وأعذه من عذاب النار وعذاب القبر، وأفسح له في قبره ونوِّر له فيه، ونحو ذلك من الدعاء له، وقام الآخر فقال: يا سيدي أشكو لك ديوني وأعدائي وذنوبي، أنا مستغيث بك مستجير بك، أجرني، أغثني ونحو ذلك؛ لكان الأول عابدًا لله ومحسنًا إلىٰ خلقه، محسنًا إلىٰ نفسه بعبادة الله ونفع عباده، وهذا الثاني مشركًا بالله، مؤذيًا ظالمًا معتديًا علىٰ هذا الميت ظالمًا لنفسه».

ودعاة الشِّرك روجوا شركهم وإضلالهم الخلق بتسميتهم الشِّرك والاستغاثة بالموتىٰ توقيرًا للصَّالحين، وتبرُّكًا وتوسُّلًا بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذكر سبحانه أنَّهم يستعينون علىٰ مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بِصَغْوها وميلها إليه، ورضاها به لما كُسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولًا وعملًا، فتأمَّل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنىٰ العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه علىٰ مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار بها. وإذا تأملت مقالات أهل

(١) الصَّواعق المرسلة (١/ ٤٣٧).

الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيَّروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلىٰ قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة».

وقال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا حكم الاستغاثة بالموتىٰ ودعائهم أو اتِّخاذهم شفعاء في دعاء الله إلىٰ غير ذلك من أنواع شرك المعاصرين[1]: «إنَّ هذا الذي وقع فيه النَّاس من هذا الشِّرك، إنَّه الشِّرك الذي بعث الله رسله - عليهم السَّلام - وأنزل كتبه بالنَّهي عنه، وإنَّه الشِّرك الذي لا يغفره الله لمن لم يتب منه».

وقال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيِّنًا أنواع الشِّرك**[2]: «إنَّ الشرك نوعان: شرك في ربوبيته، بأن يُجعل لغيره معه تدبير، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فبيَّن سبحانه أنهم لا يملكون ذرة استقلالًا، ولا يشركونه في شيء من ذلك، ولا يعينونه علىٰ ملكه، ومن لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عونًا فقد انقطعت علاقته.

وشرك الألوهية بأن يدعىٰ غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

وقال العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيِّنًا حقيقة الشِّرك**[3]: «الاعتبار

---

(١) المقامات (ص١٠).

(٢) منهاج التأسيس والتَّقديس في الردِّ علىٰ داود بن جرجيس (ص١٥٩).

(٣) الفتاوىٰ البازيَّة (٣/ ١٣٩).

بالحقائق والمعنىٰ لا باختلاف الألفاظ، فإذا قالوا: ما نعبدهم وإنَّما نتبرَّك بهم، لم ينفعهم ذلك، ما داموا فعلوا فعل المشركين من قبلهم، وإن لم يسمُّوا ذلك عبادة، بل سمَّوه توسُّلًا أو تبرُّكًا، فالتعلُّق بغير الله، ودعاء الأموات والأنبياء والصالحين والذَّبح لهم أو السجود لهم، أو الاستغاثة بهم، كل ذلك عبادة ولو سمَّوها خدمة، أو سموها غير ذلك، لأنَّ العبرة بالحقائق لا بالأسماء، كما تقدَّم.

ومن هذا القبيل قول الجماعة الذين خرجوا مع النبيِّ ﷺ إلىٰ حنين لما رأوا المشركين يعلِّقون أسلحتهم علىٰ سدرة. قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**»، فجعل المقالة واحدة، مع أنَّ هؤلاء قالوا: اجعل لنا ذات أنواط، فجعل قولهم مثل قول بني إسرائيل؛ لأنَّ العبرة بالمعنىٰ والحقائق، لا بالألفاظ».

❁ ❁ ❁

موالاة الصَّالحين بلا غلو

ذكر الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من شبهات القبوريِّين؛ أن المستغاث بهم أولياء الله ولهم كرامات.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنْ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

فقل: هذا هو الحق، ولكن لا يعبدون، ونحن لم ننكر إلا عبادتهم مع الله وشِرْكهم معه، وإلا فالواجب عليك حبُّهم واتِّباعهم والإقرار بكراماتهم ، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال، ودين الله وسط بين طرفين، وهُدًى بين ضلالتين، وحقٌّ بين باطلين».

وذكر الشيخ أيضًا أنَّ من المشركين في زماننا من يدعو مع الله فسقةً لا أولياءَ لله، فقال[2]: «وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزِّنا والسَّرقة، وترك الصلاة، وغير ذلك».

وتحقيق التَّوحيد ليس انتقاصًا للأولياء، وانتقاص الله هو الشِّرك، والواجب توقير الصَّالحين بلا غلوٍّ فيهم، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

---

(١) كشف الشُّبهات (ص٣٤، ٣٥).

(٢) كشف الشبهات (ص٣٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا قال القائل: لا يجوز التوكُّل إلَّا علىٰ الله وَحْدَه، ولا العبادة إلا لله وَحْدَه، ولا يُتَّقىٰ ولا يُخشىٰ إلا الله وحده - لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم -؛ كان هذا تحقيقًا للتوحيد، ولم يكن هذا سبًّا لهم ولا تنقصًا بهم ولا عيبًا لهم، وإن كان فيه بيان نقص درجتهم عن درجة الربوبية، فنقص المخلوق عن الخالق من لوازم كلِّ مخلوق، ويمتنع أن يكون المخلوق مثل الخالق، والملائكة والأنبياء كلهم عباد لله يعبدونه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]. فإذا نفىٰ عن مخلوق - ملك أو نبي أو غيرهما - شيئًا من خصائص الربوبية، وبيَّن أنه عبد لله؛ كان هذا حقًّا واجب القبول، وكان إثباته من إطراء المخلوق، فإن رفعه عن ذلك كان عاصيًا بل مشركًا».

والرُّسل عليهم السلام خاطبوا أقوامهم بمقدارهم الذي يليق بهم كأنبياء ورسل مبلِّغين عن الله شرعه، محذِّريهم الانحراف والغلوَّ عن رتبتهم، فليس لهم رتبة الألوهيَّة ولا الرُّبوبيَّة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) الإخنائية (ص٣٩١).

ومع بيان النبي ﷺ مرتبته كبشر، كان يزجر عن الغلوِّ فيه وعن رفعه فوق درجته، ففي الصَّحيحين من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النَّصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، فإنَّما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وروىٰ أحمد من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ ﷺ: ما شاء الله وشئْت، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟ ما شاء الله وحده**».

فالنَّبيُّ ﷺ لم يرضَ أن يُرفع فوق درجته وأن يُجعل ندًّا لله، فمن يزعم توقير النبيّ ﷺ فليتَّبعه ولا يجعله لله ندًّا ولا يصرف له شيئًا من حقوق الله.

والأنبياء والرُّسل - صلوات الله وسلامه عليهم - موالاتهم وتوقيرهم يكون باتِّباعهم فيما بُعثوا به من دعوة التَّوحيد، قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فمن اتَّبعهم في توحيد الله الذي دعوا إليه فهو الحنيف المسلم، الموقِّر للأنبياء سادات الصَّالحين، ومن عصاهم ولم يتَّبعهم في توحيد الله فلم يوقِّرهم ولم يقدِّر الله حق قدره، ولم يعرف لله حقَّه، ولم يتَّبع رسل الله - صلى الله عليهم وسلم - فيما بلَّغوه من حقّ الله وقدره.

فالذي وقَّر النَّبيَّ ﷺ هو الذي أطاعه في قوله: «**إنَّه لا يستغاث بي**».

والمقصود أنَّ ما وقع من بعض المشركين من عبادة النبيِّين يوجب علىٰ الموحِّدين البراءة من عبادتهم لأنَّ هذا من موالاة النبيِّين فيما دعوا إليه من توحيد الله.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الملائكة والأنبياء إذا نفىٰ

(١) الإخنائية (ص٣٩٦).

عنهم كونهم آلهة معبودين، وبيّن أن عبادتهم عمل باطل لا ينتفع به؛ لم ينف ذلك ما يستحقونه من الإكرام والإجلال، وعلوّ قدرهم عند الله تعالىٰ؛ والتبرّي من عبادتهم، ومن كونهم معبودين، لا من موالاتهم والإيمان بهم».

وفي الحقيقة فإنَّ القبوريِّين قلبوا الحقائق، فمن أشرك مع الله فقد انتقص الله، ومن صرف شيئًا من حقِّ الله الخالص إلىٰ مخلوق؛ فهذا ما قدر الله حقَّ قدره، وما في الأنبياء ولا الملائكة أحد إلَّا وهو يقدِّر الله حقَّ قدره، وينهىٰ عن الشِّرك بالله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنهم يجعلون من قال الحقَّ في المخلوق سابًّا له شاتمًا، وهم يسبُّون الله ويشتمونه ويؤذونه، ولا يخافون من سبِّ الخالق وشتمه والشِّرك به ما يخافونه من قول الحق في حق المخلوق، كما قال الخليل لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]، وكما قال تعالىٰ عن المشركين: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٣٩).

ﵟٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ﵞ [الأنبياء: ٣٦]، فلا يغضبون من ذكر الرحمن بالباطل كما يغضبون من ذكر آلهتهم بالحق».

قال تعالىٰ: ﵟوَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ﵞ [الأنبياء: ٢٧-٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذكر هذا الوعيد في الملائكة، وخصَّهم بالذِّكر، تنبيهًا علىٰ أنَّ دعوىٰ الإلهيَّة لا تجوز لأحد من المخلوقين، لا مَلَك ولا غيره، وإنَّه لو قُدِّر وقوع ذلك من الملائكة لكان جزاؤه جهنَّم، فكيف من دونهم!».

وكذلك ذكر الله وعيد من أشرك به ولو كان نبيًّا أو رسولًا، تحذيرًا للكافَّة منه، مع امتناع وقوعه من النبيِّين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالىٰ بعد أن ذكر النبيِّين عليهم السلام: ﵟوَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨ﵞ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الأنبياء معصومون من الشِّرك، ولكن المقصود بيان أنَّ الشِّرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله، فكيف بغيره؟!».

---

(١) الرّدّ علىٰ البكري (ص٢٣٣).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ٥٢).

وقال أيضًا[١]: «إنَّه - الشِّرك - إذا قُدِّر وجوده كان مستلزمًا لحبوط عمل المشرك وخسرانه، كائنًا من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذَّنب لا لغضّ قدر المخاطب».

والملائكة والنبيُّون والرُّسل عليهم السلام حقُّهم الإيمان بهم والموالاة والتوقير لهم من غير غلوّ، والنَّاس فيهم طرفان ووسط: طرف يكفر بهم أو يتنقَّصهم، وطرف يغلو فيهم ويجعلهم أندادًا لله يعبدهم ويسألهم ما لا يقدر عليه إلا الله، والوسط هم الذين آمنوا بهم ووقَّروهم بما يستحقُّونه لا بما يستحقُّه الله الذي لا ندَّ ولا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هو سبحانه مع هذا قد نهانا عن الشرك بهم - عليهم السلام - والغلو فيهم، وميَّز بين حقه تعالىٰ وحقهم، فقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]؛ فهذا بيان أنَّ اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا كفر، مع وجوب الإيمان بهم، ولهذا حصل في أهل الكتاب من الشِّرك بهم ما لم يحصل بعبادة الأوثان؛ فإن الأوثان تستحق الإهانة وأن تُكسر كما كسّر إبراهيم الأصنام، وكما حرّق موسىٰ العجل ونسفه، وكما كان نبينا ﷺ يكسر الأصنام ويهدم بيوتها،

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ٥٢).

(٢) الإخنائية (ص٣٨٧).

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ فإهانتها من تمام التوحيد والإيمان.

وأمَّا الملائكة والأنبياء بل والصالحون يستحقون المحبة والموالاة والتكريم والثناء، مع أنه يحرُم الغلوّ فيهم والشِّرك بهم، فلهذا صار بعض الناس يزيد في التعظيم علىٰ ما يستحقُّونه فيصير شركًا، وبعضهم يقصِّر عما يجب لهم من الحق فيصير فيه نوع من الكفر.

والصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو القيام بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسله - عليهم السلام - في هذا وهذا».

قال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا فرق ما بين حقّ الله عَزَّوَجَلَّ وحق رسوله ﷺ(١): «إن رجعنا إلىٰ الأصل الأصيل، ونظرنا إلىٰ الكتاب والسنَّة؛ عرفنا ما يليق بمنصبه ﷺ من الإيمان به والتصديق له، وتعزيره وتوقيره ومحبته وتحكيمه، والرضىٰ بحكمه والتسليم له، ونصرته والذَّبِّ عن سنَّته، وجهاد من أشرك به وغلا فيه، وطلب منه ما لا يليق إلا بالحي الحاضر؛ كالدعاء والاستغفار، وعرفنا أيضًا ما هو اللائق برتبة الربوبية وما هو المختص لمستحق الألوهية والعبودية من الحب والذل، والتعظيم، والاستغاثة، والاستعاذة والاستعانة، والخوف والرجاء، ونحو ذلك من العبادات المختصة اللائقة بالله».

---

(١) منهاج التَّأسيس (ص١٣٥).

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا أنَّه مهما علت وارتفعت رتبة المخلوق في الفضل فإنَّه لا يكون ربًّا[١]: «إنَّ من آتاه الله فضلًا من العلم والنبوَّة لم يخرج به عن أن يكون عبدًا، إذًا لا يرتقي إلىٰ منزلة الرُّبوبيَّة، فالرَّسول ﷺ عبد من عباد الله، فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنَّه يرتفع حتىٰ يكون ربًّا يملك النَّفع والضَّرر، ويعلم الغيب».

وحذَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تعظيم أي مخلوق تعظيم الربّ فإنَّه هو الشِّرك، فقال[٢]: «عندهم - الغلاة - تعظيم للأنبياء والصالحين من جنس تعظيم النصارىٰ والمشركين، يعظمونهم تعظيم ربوبيَّة من جهة ما يرجونه من حصول مطالبهم من جهتهم، لا يعظمونهم لكونهم رسل الله الذين أُمروا بطاعتهم، فيجب أن يطاعوا فيما أَمروا به، وأن يقتدىٰ بهم فيما شُرع التأسِّي بهم فيه، يعرضون عن بعض طاعتهم والتأسي بهم، ويُقبلون علىٰ نوع من دعائهم وسؤالهم والإشراك بهم، وهؤلاء بالنصارىٰ أشبه منهم بالصابئة الفلاسفة، لكن الجميع فيهم شرك».

ولا أحد أعظم تقديرًا لرعاية قدر سيد ولد آدم محمَّد ﷺ من الله، وهو الذي تعبَّدنا بتوقير النَّبيِّ ﷺ في نصوص كثيرة في الوحي المبين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

---

(١) تفسير سورة البقرة (١/ ٢٩٥).

(٢) الردّ علىٰ البكري (ص٢٧٤).

﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وقد خاطب صفوة خلقه ورسوله ﷺ بما يدلُّ علىٰ مرتبته كبشر ليس له شيء من الرُّبوبيَّة ولا من الألوهيَّة، قال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وهذا قاله الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ فيمن كان يقنت عليهم ويلعنهم بأعيانهم، لشدَّة أذاهم وعدوانهم للمسلمين، لأنَّ هداية الخلق إلىٰ الإسلام لله وحده.

وخاطب الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ مبيِّنًا له أنَّه لا يملك النَّفع لأحد، ولو كان من أخصِّ النَّاس به وأعظمهم قيامًا بنصرته، خصوصًا في وقت الضَّعف والقلَّة من الأعوان: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]، فقد اجتهد النَّبيُّ ﷺ في هداية عمِّه أبي طالب ولم يُسلم؛ لأنَّه لا يملك هدايته للحقِّ وإن كان قد بيَّن له طريق الهداية.

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذا البيان أوضح البرهان علىٰ أنَّه ﷺ لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا عطاءً ولا منعًا، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيد الله؛ فهو الذي يهدي من يشاء، ويعذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويكشف الضرّ عمَّن يشاء، ويصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرَّحيم».

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا الحديث يقطع وسائل

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التَّوحيد (ص٢٩٨).

(٢) شرح كتاب التَّوحيد، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٣٤٥).

الشِّرك بالرَّسول ﷺ وغيره».

فالله عَزَّوَجَلَّ لم يجعل السُّؤال بالصَّالحين سببًا لإجابة الدُّعاء، وإن كان الصَّالح ذا جاه عظيم عند الله.

قال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الدعوىٰ كون الوجيه من الرسل والملائكة والصالحين يُدْعَىٰ ويُسأل علىٰ أنه واسطة بين الله وبين عباده، ويُعظَّم بالنحر والنذر، وهذه دعوىٰ المشركين القائلين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. فالمقصود هو: الجاه لكل مشرك، والقرآن ردَّ هذه الدعوىٰ وأبطلها، وأخبر أنَّ ذا الجاه لا يملك كشف الضرِّ ولا تحويله، وأنَّ الصالحين من الأنبياء والمقربين يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، وكلما عَظُمَ الجاه اشتد الخوف والخشية، وليس الأمر كما ظنَّ العراقي - داود بن جرجيس - من أنَّ أصحاب الجاه يكونون واسطة وشفعاء يقصدهم العباد للمهمَّات والحاجات؛ فإنَّ هذا عين الشرك، وحجَّة هؤلاء المشركين هي كون الأنبياء والصالحين لهم جاه، والقرآن كله يرد علىٰ هؤلاء الضلال، ويكشف شُبهتهم، ويُخبر أنَّه لا يلزم من وجود الجاه كونهم آلهة يَقْصِدهم العباد، ويصرفون لهم شيئًا من خالص حقِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

والنَّهي عن الشِّرك ليس سبًّا للصَّالحين؛ فإنَّ الصَّالح مَن وحَّد الله، وعبده ودعاه وحده لا شريك له، والصَّالحون لا يرضون بأن يُشرك بهم مع الله.

---

(١) منهاج التَّأسيس (ص٣٦٧).

قال العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا قيل للناس: إنَّ هؤلاء الضرائح والمزارات من الأوثان، قالوا: إنكم تسبُّون الصالحين!!

يا إخواننا! افهموا لغة العرب والدِّين؛ تجدوا أنَّ ذلك ليس من الطعن علىٰ الأولياء؛ فإنَّ كُلَّ ما نُصب ليُعبد من دون الله؛ فهو وثن أو صنم، وكل من عبده؛ فهو هالك، وليس كل معبود من دون الله هالكًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠١]؛ فتلك المزارات والضرائح من الأوثان، وإن كانت منسوبة إلىٰ ولي صالح».

والنَّاس في موالاة الصَّالحين طرفان ووسط: طرف غلا فيهم، وصرف لهم ما ليس لهم من حقوق الله من أنواع العبادات، وغلا فيهم إطراءً حتىٰ نعتهم بما هو من أوصاف الله وحده لا شريك له، مثل النَّصارىٰ جعلوا المسيح ابن مريم إلهًا.

وصنف جفاهم ولم يعرف لهم حقَّهم كبشر صالحين وأولياء متَّقين وأنبياء مصطفين، ولم يرع هؤلاء الجفاة قدرهم، مثل اليهود الذين قتلوا أنبياء الله.

والأمَّة الوسط هي التي عرفت للصَّالحين قدرهم من غير غلوٍّ فيهم ولا جفاء لقدرهم.

قال تعالىٰ عن اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالىٰ عن النَّصارىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ

(١) الشِّرك ومظاهره (ص٢٢٨).

ﭐلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ ﴾ [المائدة: ١٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن النصارىٰ عظموا الأنبياء حتىٰ عبدوهم، وعبدوا تماثيلهم، واليهود استخفُّوا بهم حتىٰ قتلوهم، والأمة الوسط عرفوا مقاديرهم؛ فلم يغلوا فيهم غلوَّ النصارىٰ، ولم يجفوا عنهم جفاء اليهود؛ ولهذا قال ﷺ فيما صحَّ عنه: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فمن غلا فيهم واتخذهم أربابًا فهو كافر، ومن كذَّب شيئًا مما جاءوا به أو سبَّهم أو عابهم، أو عاداهم؛ فهو كافر، فلا بد من رعاية هذا الأصل وهذا الأصل.

وهذا المعترض - الإخنائي - وأمثاله التفتوا إلىٰ جانب التعظيم دون جانب التوحيد لله والنهي عن الشرك، فوقعوا في الغلوِّ وفي الشرك؛ فبقوا مشابهين للنصارىٰ، وهذا مخالف لدين الإسلام، كما أنَّ من لم يؤمن بهم وبما جاءوا به، ومن لم يجعل الطريق إلىٰ الله هو اتباعهم وموالاتهم، ومعاداة من خالفهم؛ فهو مخالف لدين الإسلام».

وأعظم الخلق توقيرًا وموالاة للنَّبي ﷺ؛ من أخذ بوصيَّته التي أوصىٰ بها أمَّته قبل أن يودِّعهم، حيث حذَّرهم من اتِّخاذ القبور مساجد.

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٩٣).

(٢) الإخنائية (ص٣٧٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا ريب أن في أهل القبلة من يشبه اليهود والنصارىٰ في بعض الأمور كما في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن؟**»، وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لتأخذنَّ أمتي مأخذ الأمم قبلها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع**»، قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: «**فمن الناس إلا هؤلاء؟!**».

ومشابهتهم في الشرك بقبور الأنبياء والصالحين؛ هو من مشابهتهم التي حذَّر منها أمته قبل موته في صحته ومرضه».

فالمقصود هو رعاية أقدار الصَّالحين من غير غلوّ فيهم، فإنَّ أوَّل شرك وقع في الأرض كان سببه الغلوّ في الصَّالحين.

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أوّل ما حدث الشِّرك في قوم نوحٍ بسبب الغلو - مجاوزة الحد في محبة الصالحين وتعظيمهم فوق ما شرعه الله -، عظَّموهم تعظيمًا غير سائغ لهم، بأن عكفوا علىٰ قبورهم، ثم صوَّرا تماثيلهم، وإن كانوا ما عبدوهم، وإنَّما عبدوا الصور، لأنَّهم لم يأمروهم بعبادتهم، وإن كانوا أيضًا لم يعبدوا الصور إنما عبدوا الشَّيطان في الحقيقة، لأنَّه الذي أمرهم.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٨٦).

(٢) شرح كشف الشُّبهات (ص٢٧).

وبه تُعرَف مضرَّة الغلوّ في الصَّالحين، فإنَّه الهلاك كل الهلاك، فإنَّ الشِّرك بهم أقرب إلىٰ النُّفوس من الشِّرك بالأشجار والأحجار، وإذا وقع في القلوب صعب إخراجه منها، ولهذا أتت الشَّريعة بقطع وسائله وذرائعه الموصلة إليه، والمقرِّبة منه».

❁ ❁ ❁

المقارنة بين شرك الأوَّلين والمعاصرين

قارن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين شرك المعاصرين والأوَّلين، وفي ذلك تبيين لنوع شرك المعاصرين، ودرجة تغلُّظه، وبشاعته، فيظهر بهذه المقارنة سفه المشركين الأوَّلين والمعاصرين، وأنواع ما اشتركوا فيه من الضَّلال.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اعْلَمْ أَنَّ شِرْكَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْأَوَّلِينَ لَا يُشْرِكُونَ وَلَا يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَالْأَوْثَانَ مَعَ اللهِ إِلَّا فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ للهِ الدُّعَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]

وَقَوْلُهُ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ

(١) كشف الشُّبهات (ص٣٥-٣٩).

قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

فَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَّحَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ؛ وَهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَىٰ وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الضُّرِّ وَالشِّدَّةِ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْسَوْنَ سَادَاتِهِمْ؛ تَبَيَّنَ لَهُ الفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهلِ زَمَانِنَا وَشِرْكِ الأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللهِ: إِمَّا أَنْبِيَاءَ، وَإِمَّا أَوْلِيَاءَ، وَإِمَّا مَلَائِكَةً، وَيَدْعُونَ أَشْجَارًا، أَوْ أَحْجَارًا، مُطِيعَةً للهِ وَلَيْسَتْ عَاصِيَةً.

وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاسًا مِنْ أَفْسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُمُ الْفُجُورَ مِنَ الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَتَرْكِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ، أَوِ الَّذِي لَا يَعْصِي - مِثْلَ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ -؛ أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهِدُ فِسْقُهُ وَفَسَادُهُ وَيَشْهَدُ بِهِ.

فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ أَصَحُّ عُقُولًا وَأَخَفُّ شِرْكًا مِنْ هَؤُلَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا».

وفي المقارنة بين شرك الأوَّلين والمعاصرين تجدهم اشتركوا في الجهل واجتمعوا علىٰ الشِّرك ومحاربة التَّوحيد ودعاته، قال العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا فرق

(١) الشِّرك ومظاهره (ص١٠٩، ١١٠).

بينهما في الجهل بما ينافي التوحيد، ولا في الابتلاء بالمبتدعين والدجالين، ولا في التبرك بالآثار احتماءً من الأقدار، ولا في التقرب من الأحجار، والنفور من المرشدين الأخيار، ولا في عصيان من خلقهم وعبادة ما نحتوه، ولا في افتراق الكلمة والانقسام إلىٰ شيع متعادية، أما الذل والخوف والفقر؛ فحظ زماننا منها أوفر».

واشترك المشركون المعاصرون مع أشباههم من المشركين السَّابقين في الاستخفاف بالتَّوحيد ودعاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الضالُّون مستخفُّون بتوحيد الله تعالىٰ، يعظمون دعاء غيره من الأموات، وإذا أُمروا بالتوحيد ونُهوا عن الشرك استخفوا به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١]، فاستهزءوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك، وما زال المشركون يسبُّون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلىٰ التوحيد؛ لما في أنفسهم من عظيم الشرك.

وهكذا تجد من فيه شبه منهم، إذا رأىٰ من يدعو إلىٰ التوحيد استهزأ بذلك؛ لما عنده من الشرك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فمن أحبَّ مخلوقًا مثل ما يحبُّ الله فهو مشرك، ويجب الفرق بين الحب في الله والحب مع الله.

فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثانًا تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله وعبادته، ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء، ويحلف أحدهم اليمين

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ٣٤٢).

الغموس كاذبًا، ولا يجترئ أن يحلف بشيخه كاذبًا».

وشرك المعاصرين عن جهل بمعنىٰ كلمة التَّوحيد، وشرك الأوَّلين كان عن كفر بما علموه من معنىٰ كلمة التَّوحيد.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصَّافَّات: ٣٥، ٣٦]، علموا أنَّ «لا إله إلا الله» تنفي الشِّرك الذي وقعوا فيه، وأنكروا التَّوحيد الذي دلَّت عليه، فصار أولئك المشركون أعلم بمعنىٰ هذه الكلمة «لا إله إلا الله» من أكثر متأخِّري هذه الأمَّة».

وقال العلَّامة المجدِّد محمَّد ناصر الدِّين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقارنًا بين شرك المعاصرين والسَّابقين[2]: «الفرق جوهري جدًّا بين العرب الأولين الذين كانوا إذا دعاهم رسول الله ﷺ أن يقولوا: لا إله إلا الله، يستكبرون، كما هو مبيّن في صريح القرآن العظيم، لماذا يستكبرون؟ لأنهم يفهمون أنَّ معنىٰ هذه الكلمة: أن لا يتخذوا مع الله أندادًا وألَّا يعبدوا إلا الله، وهم كانوا يعبدون غيره، فهم ينادون غير الله، ويستغيثون بغير الله، فضلًا عن النذر لغير الله، والتوسُّل بغير الله، والذبح لغيره، والتحاكم لسواه... إلخ.

هذه الوسائل[3] الشركية الوثنية المعروفة التي كانوا يفعلونها، ومع ذلك

(١) قرَّة عيون الموحِّدين (ص١٩).

(٢) التَّوحيد أولًا (ص١٣ - ١٥).

(٣) صرف العبادة لغير الله شرك أكبر؛ كالذَّبح والنَّذر لغير الله ودعاء غيره، ولعلَّه سبق لسان من الشيخ بتسميته وسائل الشِّرك.

كانوا يعلمون أن من لوازم هذه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» من حيث اللغة العربية أن يتبرؤوا من كل هذه الأمور؛ لمنافاتها لمعنىٰ «لا إله إلا الله».

أما غالب المسلمين اليوم الذين يشهدون بأن «لا إله إلا الله»؛ فهم لا يفقهون معناها جيدًا، بل لعلهم يفهمون معناها فهمًا معكوسًا ومقلوبًا تمامًا؛ أضرب لذلك مثلًا: بعضهم أَلَّفَ رسالة في معنىٰ «لا إله إلا الله» ففسرها: «لا ربَّ إلا الله!!» وهذا المعنىٰ هو الذي كان المشركون يؤمنون به وكانوا عليه، ومع ذلك لم ينفعهم إيمانهم هذا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

فالمشركون كانوا يؤمنون بأنَّ لهذا الكون خالقًا لا شريك له، ولكنهم كانوا يجعلون مع الله أندادًا وشركاء في عبادته، فهم يؤمنون بأنَّ الربَّ واحد، ولكن يعتقدون بأنَّ المعبودات كثيرة، ولذلك ردَّ الله تعالىٰ - هذا الاعتقاد - الذي سماه عبادة لغيره من دونه بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

لقد كان المشركون يعلمون أنَّ قول: «لا إله إلا الله»؛ يلزم له التبرُّؤ من عبادة ما دون الله عَزَّوَجَلَّ، أما غالب المسلمين اليوم؛ فقد فسروا هذه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» بـ: «لا رب إلا الله»!! فإذا قال المسلم: «لا إله إلا الله»، وعبد مع الله غيره؛ فهو والمشركون سواء».

وشرك المعاصرين أغلظ من جهة شركهم بدعاء غير الله في السرَّاء والضرَّاء، أمَّا المشركون الأوَّلون فإنَّهم لا يدعون إلَّا الله في الضرَّاء لأنَّهم يعلمون أنَّ الله

وحده الذي يكشف الضُرّ والسُّوء.

وشرك المعاصرين أغلظ في تعظيم مشاهد القبور فوق مساجد الله التي أمر الله بإقامتها وذكره ودعائه فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنهم اعتقدوا أنَّ دعاء الميت الذي بني له المشهد والاستغاثة به؛ أنفع لهم من دعاء الله والاستغاثة به في البيت الذي بُنِيَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ ففضلوا البيت الذي بني لدعاء المخلوق علىٰ البيت الذي بني لدعاء الخالق، وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف؛ كان **وقف الشرك أعظم عندهم** مضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله حالهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كما يجعلون لله زرعًا و ماشية ولآلهتهم زرعًا وماشية؛ فإذا أُصيب نصيب آلهتهم أخذوا من نصيب الله فوضعوه فيه، وقالوا: الله غني وآلهتنا فقيرة. فيفضِّلون ما يجعل لغير الله علىٰ ما يجعل لله.

وهكذا الوقوف والنذور التي تبذل عندهم للمشاهد؛ أعظم عندهم مما تُبذل للمساجد ولعمارة المساجد وللجهاد في سبيل الله».

وشرك المعاصرين أشدّ من جهة الأموال الضَّخمة التي ينفقونها في تشييد القباب والمزارات؛ فمزار الخميني أُنفق فيه أكثر من مليار.

---

(١) الردّ علىٰ البكري (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤).

وسدنة القبور يتكسَّبون بأكل أموال النَّاس بالباطل ويُركسونهم في الشِّرك؛ قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

وغلوّ بعض المشركين المعاصرين في موتىٰ الأولياء والصَّالحين؛ أغلظ شركًا من المشركين السَّابقين؛ فإنَّ منهم من يعتقد أنَّ من موتىٰ الصَّالحين من له تصرُّف في الكون بكراماته، تعالىٰ ربنا عمَّا يشركون.

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «عُبَّاد القبور، فإنَّهم يعتقدون أنَّ الأولياء والطَّواغيت الذين يسمونهم المجاذيب ينفعون ويضرُّون ويمسُّون بالضُّرِّ ويكشفونه، وأنَّ لهم التَّصرُّفَ المطلق في الملك، إمَّا علىٰ سبيل الكرامة، وهذا فوق شرك كُفَّار العرب، وإما علىٰ سبيل الوساطة بينهم وبين الله بالشفاعة، وهذا شرك الذين قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المشركين المعاصرين أجهل بمعنىٰ التَّوحيد من المشركين السَّابقين، لأنَّ السَّابقين عرفوا معنىٰ التَّوحيد ورفضوه اتباعًا للآباء والأجداد، والمعاصرين جهلوا ما عرفه أولئك فأتوا بما يُضادُّ التَّوحيد ويُبْطله.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «التَّوْحِيدُ هُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِكَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَإِنَّ الْإِلَهَ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ لِأَجْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التَّوحيد (١/ ٥٠٦).

(٢) كشف الشُّبهات (ص٨-١٠).

سَوَاءً كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ شَجَرَةً، أَوْ قَبْرًا، أَوْ جِنِّيًّا، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَدَّمْتُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِالْإِلَهِ مَا يَعْنِي الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ «السَّيِّدِ»، فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا لَا مُجَرَّدُ لَفْظِهَا.

وَالْكُفَّارُ الْجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ: إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالتَّعَلُّقِ، وَالْكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⁽٥⁾﴾ [ص: ٥].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ؛ فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلَامَ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَالْحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: «**لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللهُ**».

فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَىٰ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»».

ومما توافق فيه المشركون المعاصرون مع المشركين الأوَّلين تحريش النَّاس علىٰ الموحِّدين بدعوىٰ انتقاص الأنبياء والصَّالحين، وهذا ما فعله المشرك ابن الزِّبَعْرىٰ حال شركه(١) حيث استطال علىٰ النَّبي ﷺ لتلاوته ما أوحي إليه من قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**

(١) **قال ابن الملقن** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزبعرىٰ: بكسر الزاي، وفتح الباء الموحدة، أسلم بعد الفتح، وحسن إسلامه، وهو عبد الله بن الزبعرىٰ بن قيس بن عدي بن سلامة، الشاعر»، غاية المأمول الرَّاغب (ص٣١٠).

أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، حيث قال هو وغيره من المشركين: إذا دخلت آلهتنا النار لكونها معبودة، فالمسيح عيسىٰ ابن مريم مستحقٌّ لهذا الوعيد[١].

وهذا من جهلهم وجدالهم بغير علم، فالمسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له الجنَّة والكرامة؛ لأنَّه داعية التَّوحيد، ولم يرضَ باتِّخاذه وأمّه إلهين، فلا يُعذَّب بذنب المشركين، وقد أبطل الله معارضة ابن الزّبعرىٰ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] [٢].

والذي تغلظ من شرك بعض المعاصرين دعوتهم مع الله أفسق النَّاس، وكان ذلك في الدِّرعيَّة، قال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشّيخ «في بلدتهم: رجل يدَّعي الولاية، يسمَّىٰ تاجًا، يتبرَّكون به، ويرجون منه العون والإفراج، وكانوا يأتون إليه، ويرغبون فيما عنده من المدد - بزعمهم - ولديه، فتخافه الحكَّام والظَّلمة، ويزعمون أنَّ له تصرُّفًا، وفتكًا بمن عصاه، وملحمة، مع أنَّهم يحكون عنه الحكايات القبيحة الشَّنيعة التي تدلُّ علىٰ انحلاله عن أحكام الملَّة والشَّريعة».

❁ ❁ ❁

(١) **قال الحافظ ابن الملقن** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديث مشهور في التَّفسير والمغازي، وممن ذكره ابن إسحاق، ورواه الحافظ ضياء الدين في المختارة من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا»، غاية مأمول الرَّاغب في معرفة أحاديث ابن الحاجب (ص٣٠٩).

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التَّفسير (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) الدُّرر السَّنيَّة (١/ ٣٨٠).

أعظم الشُّبهات

يجادل القبوريُّون ومن دعوا مع الله غيره، واتَّخذوا له ندًّا، بأنَّهم ليسوا كالمشركين الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وأنَّهم مؤمنون بالقرآن ليسوا كأولئك الكافرين به، وأنَّهم يصلُّون ويصومون ويحجُّون؛ فلا يجوز أن يُحكم عليهم بالكفر والشِّرك!!

وهذا جهل منهم بمعنىٰ التَّوحيد ونصوص القرآن الدَّالة علىٰ أنَّ نواقض الإسلام تبطله وتزيله.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إِنَّ لِهَؤُلَاء شُبْهَة يُورِدُونَهَا عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِم، فَاصْغِ سَمْعكَ لِجَوَابِهَا. فَهِيَ أَنَّهمْ يقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ﷺ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ، وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنُصَدِّقُ بالْقُرْآنِ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي، وَنَصُومُ؛ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أُولَئِكَ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ، وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ؛ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ

(١) كشف الشُّبهات (ص٣٩-٤٣).

بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ؛ كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وجُوبَ الْحَجِّ، وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ؛ أَنْزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧].

وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الْبَعْثَ؛ كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ، وَحَلَّ دَمُهُ، وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ؛ فَهُوَ الْكَافِرُ حَقًّا، وأنَّه يستحِقُّ ما ذكرَ؛ **زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا.**

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ؛ أَنَّهُ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا يَجْحَدُ هَذَا، ولا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ - كَمَا قَدَّمْنَا -.

فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ؛ فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ

دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟! سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ!!».

ولا ريب أنَّ اعتراض أهل الإحساء بهذه الشُّبهة؛ جهل بالدِّين وضلال عن معانيه؛ فمن دعا غير الله أو صرف شيئًا من العبادات لغير الله؛ فليس هو من أهل (لا إله إلا الله)، وما قيمة دعواه أنَّه يؤمن بالقرآن أي بألفاظه وهو مبطل لمعانيه كلّها، فإنّ القرآن كلّه في التَّوحيد.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ذكر نواقض الإسلام في مصنّفه الخاصّ في ذلك وابتدأ بأغلظها فقال[١]:

«**الأول**: الشِّرك في عبادة الله وحده لا شريك له؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومنه الذَّبحُ لغير الله كمن يذبح للجنّ أو للقبر.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط، يدعوهم، ويسألهم الشَّفاعة، ويتوكَّل عليهم؛ كفر إجماعًا».

وحاجّ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب في الردّ علىٰ شبهة الإحسائيِّين بإجماع الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنَّهم حكموا بردَّة من أنكر وجحد فرض الزَّكاة، ومن لم يؤدّ حقوق كلمة التَّوحيد، والشَّأن واحد لمن أبطل كلمة التَّوحيد بالشِّرك.

قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يجعلون من يهدم

---

(١) نواقض الإسلام (ص٢٣).

(٢) شرح كشف الشُّبهات (ص١١٩، ١٢٠).

أساس الدِّين صباحًا ومساءً أنَّه مسلم لكونه يدَّعي الإسلام، والذي يجحد وجوب الزَّكاة ولو كان يؤدِّيها كافر بالإجماع! سبحان الله! ما أعجب هذا الجهل».

وما أشبه محاجَّة الإحسائيين بتوحيد الجهميَّة الذين جعلوا الإيمان المعرفة؛ فكلمة التَّوحيد من لم يحقِّقها ويأتِ بها خالصة لله من الشِّرك خصوصًا الأكبر؛ فهذا معرفته ضالَّة عن معنىٰ التَّوحيد فضلًا عن تحقيقه؛ فلا يكفي قولهم: نحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ، ونؤمن بالقرآن ونصلِّي ونصوم، ثم هم يشركون في العبوديَّة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لو عرفت حدود ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ رسوله ﷺ، وعرفت الإيمان بحدِّه الشَّرعي، والتَّوحيد بحدِّه؛ لظهر لك أنَّ المعرفة لا تقتضي الإيمان والتَّوحيد».

وقال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله**».

ومعلوم أنَّ المراد هنا قولها علىٰ وجه يحصل به إفراد الله بالعبادة، وترك ما يعبد معه، والبراءة منه، وأما مجرد اللفظ مع المخالفة للحقيقة فليس مرادًا بإجماع أهل العلم؛ ولذلك جاء في حديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لمَّا بعثه إلىٰ اليمن: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**إلىٰ أن يوحِّدوا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات**».

---

(١) مصباح الظَّلام (ص٢١٢).

(٢) مصباح الظَّلام (ص٢٠٢).

والمقصود منه: أنه جعل الغاية توحيد الله بالعبادة والاستجابة لذلك، والتزامه هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، وأما مجرد القول والتلفُّظ فليس هو عين المراد.

وأما العلماء فقد وافقوا علىٰ ذلك، وقرَّروه، وذكروا الإجماع عليه، وأن الإيمان لا بدَّ فيه من اعتقاد الجنان، وإقرار اللسان، وعمل الأركان، وجَهَّلوا من اقتصر في تعريف مسمَّاه علىٰ أحد هذه الثلاثة».

ويُقال في جواب شبهة من حكم بإسلام من أزال حقيقته بالشِّرك وإن صلَّىٰ وصام: إنَّ التَّكفير حكمٌ شرعيٌّ يُتلقَّىٰ من القرآن والسُّنَّة، والعلماء مُبلِّغون عن الله حكمه، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلاميذه من أئمَّة الدَّعوة أبانوا عن منطوق نصوص القرآن والسُّنَّة في كفر من أشرك بالله وجعل معه ندًّا، أفيجهل هذا الحكم من له أدنىٰ معرفة بدعوة المرسلين ونصوص الوحي المبين؟!

قال العلَّامة المجدِّد عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الذي يشير إليه الشيخ، ويُعَرَّفُ به هو نصوص القرآن والسنة، وإجماع علماء الأمة، وما ذكره الفقهاء في كتبهم في تكفير من أشرك بالله، وجعل له ندًّا يعبده ويدعوه ويستجير بحماه، وأدلة هذا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفي سنة رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصر.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ

(١) مصباح الظَّلام (ص٢٠٠، ٢٠١).

تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وقال: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]. وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، والآية بعدها، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]. وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]».

أو يُحاجُّ أحد عن أن الشِّرك الأكبر ينافي ويزيل حقيقة الإسلام إلَّا من أراد أن يُبْطِل معاني نصوص القرآن والسُّنَّة علىٰ ما دلَّت عليه من ذلك.

۞ ۞ ۞

جعلوا لله أندادًا وقالوا: لسنا مشركين

من عظَّم المخلوق تعظيم الخالق أو جعله في رتبته؛ أو تألَّه لغير الله، أو صرف شيئًا من العبادات لغير الله فقد أشرك. وحاجَّ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ضلَّ عن فهم نوع هذا الشِّرك من اتِّخاذ الأنداد الذي استروح إليه المشركون بما يزجرهم عنه، وهي محاجَّة في بيان بعض أنواع الشِّرك الذي جهله أو غلطت فيه أفهام الضَّالِّين أو غالطوا فيه بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير، فقال الشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُقَالُ أَيْضًا: هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَيُؤَذِّنُونَ وَيُصَلُّونَ.

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ.

قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إِلَىٰ رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ، وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ (شَمْسَانَ)، أَوْ (يُوسُفَ)، أَوْ صَحَابِيًّا، أَوْ نَبِيًّا، إِلَىٰ مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟!

سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ! ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا

(١) كشف الشُّبهات (ص٤٣، ٤٤).

يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ [الروم: ٥٩]».

اتَّخذ المشركون مع الله آلهة باطلة، وقالوا: لسنا مشركين، قلوبهم تخضع لغير الله وترجو غيره، ويسألون غير الله ما لا يقدر عليه إلَّا الله، ومنهم من يعتقد في بعض الأولياء أنَّ له تصرُّفًا في الكون فيخافه، وهذا ما يُسمَّىٰ بخوف السرِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله ندًّا - أي مثلًا - في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه؛ قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب لأنهم أشركوا في الإلهية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣] الآية، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ [ق: ٢٤]، إلىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦]».

والشِّرك أن يتعلَّق قلبك قصدًا ورغبة وخوفًا ورجاءً بمخلوق، فتجعله ندًّا لله، فتألُّه القلب لغير الله من الشِّرك.

قال العلَّامة المجدِّد عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الشرك تشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ فإنَّ من خصائص الإلهية:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٩١).

(٢) منهاج التأسيس (ص٢٨٥، ٢٨٦).

التفرد بملك الضرِّ والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعلق: الدُّعاء والخوف والرَّجاء والتوكل به وحده. فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالىٰ، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا - فضلًا عن غيره - شبيهًا لمن الأمر كله له، فأزمة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع؛ بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يُمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد. فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات. ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحبِّ».

والشِّرك مسمَّاه حقيقته، ومن أتىٰ بحقيقة الشِّرك فهو مشرك، لا ينفعه دعواه أنَّه ليس كذلك، فعن عديّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنَّا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟**»، فقال عدي: بلىٰ؛ قال ﷺ: «**فتلك عبادتهم**»، رواه أحمد، وحسَّنه التِّرمذيُّ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الشِّركَ والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالنعم، أو هذا إكرام. لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودًا لغير الله، فليسمِّه بما شاء.

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرَّب إليه بما يحبُّ؛ فقد عبده، وإن لم يسمِّ ذلك عبادة، بل يسميه استخدامًا ما، وصدق؛ هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده كما يفعل هو به.

والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان، وإنما سمَّاه استخدامًا؛ قال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، فهؤلاء وأشباههم عُبَّاد الجنِّ والشَّياطين».

وغالب شرك المعاصرين بدعاء الموتىٰ وسؤالهم، وهم يجادلون عن أنفسهم بأنَّ هذا ليس بشرك، وهذه سفسطة.

ونصوص القرآن والسُّنَّة دلالتها منطوقة صريحة أن الدُّعاء عبادة.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠١).

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وعن النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال النَّبي ﷺ: «**إنَّ الدُّعاء هو العبادة**»؛ رواه التِّرمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله تعالىٰ فسَّر هذا الدعاء في مواضع أخرىٰ بأنه العبادة؛ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١، ٢]، وهو كثير في القرآن؛ فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها».

وقد سمَّىٰ المشركون الأولون دعاء غير الله أو الاستشفاع به عبادة، فالمشركون المعاصرون أكثر مغالطة في مسمَّىٰ الشِّرك وحقيقته من المشركين الأوَّلين.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ العلماء أجمعوا علىٰ أنَّ من صرف شيئًا من نوعي الدُّعاء لغير الله؛ فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا الله، محمَّدٌ رسول الله. وصلَّىٰ وصام؛ إذ شرط الإسلام مع التلفُّظ بالشهادتين: أن لا يُعبد إلا الله. فمن أتىٰ بالشهادتين وعبَدَ غير الله؛ فما أتىٰ بهما حقيقة وإنْ تلفَّظ بهما؛ كاليهود الذين يقولون: لا إله إلا الله. وهم مشركون، ومجرد التلفُّظ بهما لا

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٩٠).

يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا».

وما أغنىٰ عن المشركين زعمهم أنَّهم ليسوا مشركين، ولو نصحوا لأنفسهم لتركوا مغالطتهم هذه، وقصدوا العلم الذي يهديهم إلىٰ حقيقة التَّوحيد وصحيح الاعتقاد ويُجنِّبهم الشِّرك بأنواعه، أصغره وأكبره، وما كان منه في الإرادات والأقوال والأعمال.

ولن ينفعهم في الدَّار الآخرة ما كانوا يزعمون في الدُّنيا أنَّهم ليسوا مشركين.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧١، ٧٢].

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة، أذَّنَ مُؤَذِّنٌ: ليتَّبعْ كُلُّ أمة ما كانت تعبد، فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلَّا يتساقطون في النَّار**».

وما دعوىٰ المبطلين أنَّ أعمالهم الشِّركيَّة ليست كذلك إلَّا بسبب كبرهم عن قبول الحقِّ وبطره، وهو من إصرارهم علىٰ الباطل.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنَّ المكابرَ والمكذِّب يأتي بكلِّ شبهة، سواء كانت حقيقيَّة أم غير حقيقيَّة».

والمؤمنون عرفوا ربَّهم في الدُّنيا بكماله، فعبدوه لأجل ذلك وحده لا شريك له، ويعرفونه بذلك في الدَّار الآخرة؛ فيُكرمهم الله برؤيته ويحلُّ عليهم رضوانه.

---

(١) تفسير سورة الفرقان (ص١٦٦).

ففي «مُسند أحمد» من حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ الله يجمع الأمم يوم القيامة، ويأتي المسلمين، فيقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربَّنا، فيقول الله: من أين تعلمون أنَّه ربّكم؟ فيقولون: إنَّه لا عِدْل له. فيتجلَّىٰ لهم الله.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «ما سمعت في الإسلام حديثًا هو أحبُّ إليَّ منه».

ورواه الحارث ابن أبي أسامة في «مسنده» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «لهذا الحديث عِدَّة طرق، جمعها أبو بكر بن أبي داود في جزء».

❁ ❁ ❁

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٩٩).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١١٦).

اختلاف الندِّ لا ينفي الشِّرك

أبطل شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ شبهة من اعتقد أنَّ الشِّرك لا يتجاوز أعيان الأنداد التي أنكرها الله عَزَّوَجَلَّ ورسله صلوات الله وسلامه عليهم علىٰ المشركين، وبيَّن أنَّ ضلال الاعتقاد والعمل بالتوحيد حكمه واحد وإن اختلفت أعيان وأنواع الشُّركاء والأنداد.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلكِنِ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الِاعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ، وَشَمْسَانَ، وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟!

أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟!

أَتَظُنُّونَ أَنَّ الِاعْتِقَادَ فِي تَاجٍ[2] وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالِاعْتِقَادَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي

---

(١) كشف الشُّبهات (ص٤٤).

(٢) **تاج**: من أهل الخرج، تُصرف إليه النذور، ويُدعىٰ ويُعتقد فيه النَّفع والضّرّ.

وشمسان: من العارض، له أولاد يُعتقد فيهم.

وأما يوسف: كان علىٰ قبره وثن يعتقد فيه، وقبره في الإحساء أو الكويت.

[شرح العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ لكشف الشُّبهات ص١٢٢، حاشية (١).

طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُكَفِّرُ؟!».

الذين حرَّقهم عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هم من من تلقَّف أكاذيب عبد الله بن سبأ اليهودي مؤمنًا بألوهيَّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ونسبة هؤلاء في طلب العلم من عليٍّ والصَّحابة لعلَّه ممن لم يكن مخلصًا فيه أو لم يفهمه أو أهلكه في الردَّة غلوُّه، وقد كان النبيُّ ﷺ يُحذِّر أصحابه وأمَّته من الغلوِّ فيه؛ خشية أن يوقعهم في الشِّرك كما أوقع ذلك النَّصارىٰ بسبب غلوِّهم في المسيح عيسىٰ ابن مريم وأمّه عليهما السَّلام؛ فعن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تُطْروني كما أطرت النَّصارىٰ ابن مريم، إنَّما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»، رواه البخاري.

فالغلوُّ في الصَّالحين من أعظم أسباب الشِّرك، وقد ضمَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُٱللَّهُ التَّحذير من أسباب هذا الشِّرك في كتاب «التَّوحيد» «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلوّ في الصَّالحين»(١).

فمن أعظم الجهل بمعاني التَّوحيد وما يضادّه من الشِّرك؛ اعتقاد أنَّ الشِّرك مخصوص بعبادة اللَّات والعزَّىٰ ومناة، وأنَّه محصور فيها، وهذا جهل بمعاني القرآن والسُّنَّة وسيرة النَّبي ﷺ وأصحابه في اجتناب الشِّرك، وسدّ ذرائعه، وإنكار كل ما يُتَّخذ مع الله ندًّا، ولو كان أعظم المخلوقين جاهًا عند الله؛ فقد أنكر النبيُّ ﷺ علىٰ من قال: ما شاء الله وشئت، وقال له: «**أجعلتني لله ندًّا**».

وقام الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بتعمية قبر دانيال لئلَّا يُتَّخذ وثنًا يُعبد، وهكذا.

---

(١) كتاب التَّوحيد (ص٧٤).

وما اتِّخاذ الصَّالحين شفعاء في دعاء الله إلَّا نوع من الشِّرك الذي أنكره الله مهما كان صلاح المدعو، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نفىٰ سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلىٰ إلىٰ ما دونه؛ فنفىٰ الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفىٰ بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادِّه لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك».

والشِّرك أكبر الكبائر وأعظم الظُّلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا الحكم لكل ما أُشرك به من دون الله، لا يختصّ بنبيّ بعينه، ولا بملك بخاصَّته، ولا بحجر في ذاته فقط، فكل ما عُبد من دون الله فهو شرك وظلم عظيم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٢٨٠).

مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا فرق بين المعبودات، بل الكلُّ تسوية المخلوق بالخالق، والكل عدل به تعالىٰ سواه في العبادة، فالكلّ شرك، والكلّ مشركون».

وقال أيضًا العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «سبيلهم واحد، وإن تفرَّقت معبوداتهم، فكلّها راجعة إلىٰ شيء واحد، وهو عبادة غير الله مع الله».

والوعيد المترتِّب علىٰ الشِّرك؛ ينال من كان فيه موجب هذا الوعيد، وهو الشِّرك، وهذا مدلول ومعنىٰ النَّصّ، وهو ما فهمه السَّلف من معاني نصوص القرآن والسنَّة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي لكل مفتر من هذه الأمَّة إلىٰ يوم القيامة».

فمن عبد العجل أو تمثال العجل أو غيره من البهائم والحيوانات، أو عبد الشَّجر، أو عبد معظَّمًا من البشر، وكل من دون الله تناوله الوعيد، وهذا ما نبَّه عليه العلَّامة أبو بكر الطَّرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّه ذكر حديث ذات أنواط ثم قال(٣): «فانظروا –رحمكم الله! أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها النَّاس ويعظِّمون من شأنها ويرجون البرء والشِّفاء من قبلها وينوطون بها المسامير والخِرق فهي

(١) شرح كشف الشُّبهات (ص٧٩).

(٢) شرح كشف الشُّبهات (ص٨٠).

(٣) الحوادث والبدع (ص١٠٥).

ذات أنواط فاقطعوها!».

والنبيّ ﷺ في بيانه لحقيقة الشِّرك ومعناه وضَّح أنَّ معنىٰ الشِّرك لا يختصُّ بعين ما يُشرك به مع الله، فمعنىٰ الشِّرك يعمّ كل ما سوىٰ الله إذا صُرفت إليه حقوق الله من توحيده أو اتّخذ ندًّا مع الله، فالصَّحابة الذين سألوا النبيّ ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط يتبرَّكون بها؛ قال لهم النبيُّ ﷺ: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**».

والنبيّ ﷺ في إنكاره لشرك النَّصارىٰ بيَّن حقيقة شركهم الموجب للعنة الله لهم لنحذر ذلك، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرَّجل الصَّالح بنوا علىٰ قبره، أولئك شرار الخلق عند الله**». رواه البخاري ومسلم.

وفي الواقع أنداد المشركين القبوريِّين المعاصرين هي كأنداد المشركين السَّابقين؛ فشرك المعاصرين في قبور الموتىٰ هو كشرك مشركي الطَّائف في قبر اللَّات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ اللَّات كان سبب عبادتها تعظيم قبر رجل صالح».

وخطاب الله في القرآن للخلق كافَّة في كل وقت وكل مكان في موجب توحيد الله لتفرُّده بالرُّبوبيَّة ولكمال نعوته وأسمائه وكمال ذاته المستلزم لعبوديَّته وحده، والتألُّه له لا شريك له، وهذا الخطاب اقترن معه البيان الواضح في نقص كل ما يُعبد من دون الله، وهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أن تملكه

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٩١).

لغيرها، فكيف تُدعىٰ مع الله وتتَّخذ أندادًا له؟! سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عمَّا يشركون.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

وفي خصوص شرك القبوريِّين في اتِّخاذ الموتىٰ شفعاء قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾ [الزُّمَر: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال قتادة، والسُّدِّي، ومالك، عن زيد بن أسلم، وابنِ زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجُّوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، بردها والنهي عنها، والدعوة إلىٰ إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأنَّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهىٰ عنه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٥).

فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أنَّ الملائكة التي في السموات من المقرَّبين وغيرهم، كلَّهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضىٰ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبَّه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالىٰ الله عن ذلك».

وما شرك المعاصرين بالاستغاثة بالموتىٰ والغلو فيهم إلَّا من جنس شرك قوم نوح بغلوِّهم في الصَّالحين من قومهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوم نوح كان أصل شركهم العكوف علىٰ قبور الصَّالحين، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم عبدوهم».

وبنحو دعوىٰ المشركين أن اختلاف الندِّ ينفي الشِّرك دعوىٰ أشباههم بأنَّ النَّهي عن الشِّرك نصوصه خاصَّة فيمن سبق وخلا، وهذا ما جادل به بعض القبوريِّين من حذَّرهم الشِّرك ونصحهم بالتَّوحيد.

قال العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كان من تعللهم - القبوريين - تقولهم: إن ما جاء في قوم من المشركين وأهل الكتاب؛ فهو خاص بهم، لا يتناول المسلمين، وإن جاءوا بما هو أشنع وأضل».

ثم قال الميلي رادًّا عليهم[٣]: «إن تنزيل الآيات النازلة فيمن قبلنا علىٰ أهل

(١) التوسُّل والوسيلة (ص٦٦).

(٢) الشرك ومظاهره (ص٥٩).

(٣) الشِّرك ومظاهره (ص٦٠).

دينا هو تطبيق للنص على الحادثة، ونصيحة للمؤمنين أن لا يغتروا بالنعوت اللفظية، ويدعوا الصفات النفسانية التي هي أصل تلك النعوت؛ فلا يفيد المرء أن ينعت بالمسلم وصفاته النفسانية صفات مشرك ضال أو كتابي معاند».

وقال العلَّامة الميلي مبيِّنًا دلالة النُّصوص على حقائق الشِّرك الواقع من بعض المسلمين[(١)]: «روى الشيخان عن عائشة وابن عباس أنه - ﷺ - قال في مرض موته: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يحذِّر ما صنعوا.

فقد فهما – عائشة وابن عبَّاس - أنَّ اللعنة غير خاصة بأهل الكتابين، وأنَّ المقصود تحذير المسلمين من فعلهم؛ حتى لا تشملهم لعنتهم، ومنزلتهما في العلم والدين منزلتهما».

ثم قال في المقصود من تدبُّر نصوص الوحي[(٢)]: «الواجب أن نعتني بما نزل في غيرنا لنحفظ أنفسنا من مشابهتهم في: العقائد الزَّائفة، والأقوال المنكرة، والأفعال الخاطئة».

❁ ❁ ❁

(١، ٢) الشِّرك ومظاهره (ص٦٢).

كفر العبيديين

ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاجَّة من شغَّب بالموحِّدين زاعمًا أنَّهم يكفِّرون المسلمين، معاملة المسلمين للكفرة المرتدِّين من العبيديين، وإجماع العلماء علىٰ كفرهم بسبب شركهم، وذكر قبل ذلك معاملة أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للغلاة فيه؛ ليبيِّن أنَّ التكفير حكم شرعي بحسب موجبه الذي دلَّ عليه القرآن والسُّنَّة، وذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب فهم السَّلف لمقتضىٰ ذلك؛ ليكون المسلم علىٰ بصيرة في أحكام المرتدِّين والمشركين.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدٍ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكُوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَانِ بَنِي الْعَبَّاسِ؛ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَات، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ؛ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّىٰ اسْتَنْقَذُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ

---

(١) كشف الشُّبهات (ص٤٥، ٤٦).

وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْقُرْآنِ، وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَمَا مَعْنَىٰ البَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: «بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ»، وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ؟! ثُمَّ ذَكَرُوا منْها أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكَفِّرُ، وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ».

ودين العبيدين دعوة الكواكب، ومذهبهم تلقَّوه عن الفلاسفة، وما كانوا يظهرونه من الدِّين فهو مذهب الرَّافضة، وهذا كلُّه ظهر في آثار دولتهم من إقامة المشاهد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «دولة العُبيديين؛ وهم ملاحدة في الباطن، أخذوا من مذاهب الفلاسفة والمجوس ما خلطوا به أقوال الرافضة، فصار خيار ما يظهرونه من الإسلام دين الرافضة، وأما في الباطن فملاحدة شر من اليهود والنصارىٰ؛ وإلا من لم يصل منهم إلىٰ منتهىٰ دعوتهم، فإنه يبقىٰ رافضيًّا داخل الإسلام؛ ولهذا قال فيهم العلماء: «ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض»، وهم من أشد الناس تعظيمًا للمشاهد ودعوة الكواكب، ونحو ذلك من دين المشركين، وأبعد الناس عن تعظيم المساجد التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وآثارهم في القاهرة تدلُّ علىٰ ذلك».

وأفادنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الرَّافضة إذا تمكَّنوا في بعض نواحي وديار الإسلام أقاموا الشِّرك، وأبطلوا معنىٰ الشَّهادتين.

وأفادنا شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما يجب علىٰ المسلمين من الجهاد لاستنقاذ ديار الإسلام من الرَّافضة المشركين.

---

(١) الردّ علىٰ البكري (٢/ ٤٩٤، ٤٩٥).

ولا ريب أنَّ الشِّرك مبناه علىٰ الكذب، والرَّافضة كذبوا علىٰ الله بشركهم، ونصروا بالمرويَّات الموضوعة وبسيف الضَّلالة الشِّرك والباطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الشرك وسائر البدع مبناها علىٰ الكذب والافتراء؛ ولهذا: كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد؛ كان إلىٰ الشرك والابتداع والافتراء أقرب؛ كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركًا، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد منهم، حتىٰ إنَّهم يخربون مساجد الله التي يُذكر فيها اسمه، فيعطلونها عن الجماعات والجمعات، ويعمرون المشاهد التي علىٰ القبور، التي نهىٰ الله ورسوله عن اتخاذها، والله سبحانه في كتابه إنما أمر بعمارة المساجد لا المشاهد، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤]، ولم يقل: مشاهد الله، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ولم يقل: عند كل مشهد».

والسَّيف إذا لم يكن مهتديًا بنور الوحي واتِّباع المرسلين؛ فإنَّه يقهر النَّاس علىٰ الشِّرك والكفر، وتعود قوَّته علىٰ الإسلام إفسادًا وظلمًا وشركًا وإضلالًا للخلق.

وقد حذَّرنا الله من اتِّباع المغضوب عليهم والضَّالِّين الذين إذا كان لهم سلطان أقاموا بناء المساجد علىٰ قبور الأنبياء والصَّالحين، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

وهذا دين النَّصارىٰ ومن ضاهاهم من الرَّافضة والصوفيَّة؛ ففي الصَّحيحين

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ٢٨١، ٢٨٢).

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها ذكرت للنَّبي ﷺ كنيسةً رأتها، وما فيها من التَّصاوير، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرَّجُل الصَّالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك التَّصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله**».

هذا المبدل من دين اليهود والنَّصارىٰ، وإلَّا فإنَّ أنبياءهم موسىٰ وعيسىٰ كانوا موحِّدين؛ فموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حرَّق العجل الصَّنم الذي عبده طائفة من قومه، وعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ تبرَّأ من غلوِّ النَّصارىٰ بشركهم فيه وفي أمِّه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

والنَّبيُّ ﷺ الذي جدَّد ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأقام دولة الإسلام؛ أظهر التَّوحيد، وأبطل الشِّرك، وأزال الأصنام من حول الكعبة، وبعث أصحابه بهدم أوثان الشِّرك.

وبقيت الأمَّة في قرونها الفاضلة علىٰ التَّوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لم يكن في عهد: الصَّحابة، والتَّابعين، بل وتابعي التَّابعين؛ كمالك وأبي حنيفة وغيرهما، في بلاد الإسلام؛ قبر ولا مشهد يسافر إليه، وإنَّما حدثت المشاهد علىٰ القبور بعد القرون الثَّلاثة».

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الكفر والنِّفاق (ص٤٥).

وأصاب الأمَّة الإسلاميَّة في فترات ظهور دول الشِّرك والبدع والضَّلال غربة شديدة طُمست فيها أعلام الهدىٰ وارتفعت رايات الجهل والشِّرك والباطل، حتىٰ هيَّأ الله من أمراء وعلماء الحق من ينصر التَّوحيد والسُّنَّة.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد ظهر الشِّرك في هذه الأمَّة بعد القرون المفضَّلة، بظهور الدُّول بالمشرق والمغرب؛ كالأزارقة، وبني بويه، والقرامطة، وبني عبيد القدَّاح، والإسماعيليَّة، ونحوها، فاشتدَّت غربة الإسلام، وصار أهل السُّنَّة غرباء، كما قال النبيُّ ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ؛ فطوبىٰ للغرباء**»».

والدَّولة الخمينيَّة في هذا العصر تقيم الشِّرك وتبني المشاهد والمزارات علىٰ القبور، وتنصر هذا الشِّرك، وتحشد النَّاس للقتال دونه، تبثُّ فيهم الحميَّة للشِّرك والانتصار له، وتغرُّهم بنصرة الإسلام والأولياء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): « من استقرأ أحوال الناس رأىٰ أن عامة من ينتصر للبدع - الشركية - مظهرًا أنه ينصر الرسول ﷺ؛ هو بالعكس، ليس له في نصر الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيله؛ سعي مشكور، ولا مقام مذكور، بل هم معرضون عن الجهاد المأمور به، وعن نصر كتاب الله، ودينه، ورسوله ﷺ، وكثير منهم هو محاد لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، يكذب بما أخبر به الرسول ﷺ، وينفي ما أثبته، ويثبت ما نفاه، ويأمر بما نهىٰ عنه، وينهىٰ عما أمر به».

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص١٩٠).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنِّفاق (ص١٤٥).

الكفر يكون بالاعتقاد والقول والعمل

من أعظم الشبهات التي اعترض بها المخالفون لدعوة التوحيد؛ قولهم: أَنَّكم تُكفِّرون من المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويصلون ويصومون، وحاجَّهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر أحكام الردَّة.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فَمَا مَعْنَىٰ البَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: «بَابِ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ»، وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكَفِّرُ، وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا؛ مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْمُزَاحِ وَاللَّعِبِ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ اللهَ كَفَّرَهُمْ بِكَلِمَةٍ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيُزَكُّونَ وَيَحُجُّونَ، وَيُوَحِّدُونَ؟!

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

(١) كشف الشبهات (ص٤٥-٤٧).

لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

فَهؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللهُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ؛ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْمُزَاحِ.

فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكَفِّرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُنَاسًا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ!

ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَهَا؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ».

ختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجواب عن هذه الشبهة بذكر قاعدة في التوحيد تبيِّن حقيقته وما يُضاده، فقال(١): «لِنَخْتِمِ الْكَلَامَ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ - بِمَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا تُفْهَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ، وَلَكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الْكَلَامَ لِعِظَمِ شَأْنِهَا، وَلِكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِيهَا.

فَنَقُولُ: لَا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْعَمَلِ، فَإِنِ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا؛ فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ وَأَمْثَالِهِمَا.

وَهَذَا يَغْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَقُولُونَ: هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا، وَنَشْهَدُ أَنهُ الْحَقُّ، وَلَكِنَّا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ. أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ.

وَلَمْ يَدْرِ الْمِسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الْأَعْذَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]. وَغَيْرَ

---

(١) كشف الشبهات (ص ٥٨-٦٠).

ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا، وَهُوَ لَا يَفْهَمُهُ، أَوْ لَا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ؛ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْخَالِصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]».

التوحيد اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».

فأساس التوحيد وأصله اعتقاد القلب بالتألُّه لله وحده لا شريك له، وهو مستلزم لعمل الجوارح، وهذا منطوق حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**شهادة أن لا إله إلا الله**»، المتضمِّن لبيان حقيقة الإيمان من اعتقاد القلب وقول اللسان وهو من عمل الجوارح، وتمام الحديث أكَّد علىٰ معنىٰ أوله: «**إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، فهو من عمل الجوارح، وأفاد الحديث أنَّ حقيقة التوحيد أداء حق الله وحقوق عباده.

فشجرة التوحيد أصلها وأساسها مبني علىٰ اعتقاد القلب المستلزم قول اللسان وعمل الجوارح، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ما يظهر علىٰ البدن

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٢٧، ٤٢٨).

من الأقوال والأعمال؛ هو موجب ما في القلوب ولازمه».

والذي يدل على أنَّ الإيمان اعتقاد وقول وعمل؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]؛ فعطف الأعمال على الإيمان هو من عطف الخاصِّ على العامِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «القلب يصدق ما جاءت به الرسل، واللسان مصدق ما في القلب، والعمل يصدق القول، كما يقال: صدق قوله عمله».

والذي يدل على أنَّ الإيمان اعتقاد وقول وعمل؛ حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]؛ يدل على أن العمل من الإيمان.

والقلب له عمله وكسبه، وهو الأساس المستلزم لعمل الجوارح؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وحديث جبريل المتَّفق عليه في سؤاله النبيَّ ﷺ عن الإيمان؛ أجابه النبيُّ ﷺ بأنَّه: «**الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»، وهذا اعتقاد القلب، وفي سؤاله عن الإسلام؛ أجابه أن تشهد: «**أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، وهذا اعتقاد القلب وعلمه وعمله وقول اللسان وعمل الجوارح، وهو

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٤٧).

كذلك في بيان النبيِّ ﷺ معنىٰ الإحسان لجبريل: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ التوحيد - وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله» - هو أن يعبد الله، وهو تعالىٰ إنَّما يُعبدُ بما أمر به، فهو العمل لله بأمر الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

فكل عمل من أعمال البر؛ فهو جزء من التوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله وتوحيده».

وآية البِرِّ دالة علىٰ أن الإيمان اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فالإيمان اعتقاد القلب، وذلك الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيِّين، وهو قول اللسان ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهو عهد بالقول ووفاء بالعمل، بل كل أعمال البر لا تكون إلا باعتقاد القلب وعمل الجوارح.

وعمل الجوارح دلَّ عليه في آية البر قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (٣/ ١٢١).

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»، رواه أحمد والنسائي وأبو داود(١)؛ دالٌّ علىٰ أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل؛ فاعتقاد فرض الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا هذا من اعتقاد القلب الواجب، ويصدقه قول اللسان وعمل الجوارح؛ لذلك قال النبيُّ ﷺ: «**من مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو؛ مات علىٰ شعبة من نفاق**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسابه علىٰ الله**»، رواه مسلم، دالٌّ علىٰ أنَّ الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فاعتقاد القلب بتوحيد الله والكفر بما يُعبد من دونه، ونطق اللسان بالتوحيد وعمل الأركان بعبودية الله؛ هو معنىٰ «لا إله إلا الله» الذي دلَّ عليه الحديث.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاجته للمجادلين عن شرك عبَّاد القبور، ذكر حقيقة الإيمان أنَّه اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح؛ ليبيِّن لهم أحكام الله في كفر وشرك من لم يكفر بما يُعبد من دون الله، وشرك من صرف أنواعًا من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله، وكفر من سبَّ الدين واستهزأ بالموحدين لتجريدهم الإخلاص لله وحده لا شريك له.

---

(١) قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده علىٰ رسم مسلم»، المحرر في الحديث (٢/ ٤٣٩).

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا عُرف هذا؛ فمعلوم ما قد عمت به البلوىٰ من حوادث الأمور التي أعظمها: الإشراك بالله، والتوجُّه إلىٰ الموتىٰ وسؤالهم النصر علىٰ الأعداء، وقضاء الحاجات، وتفريجَ الكربات، التي لا يقدر عليها إلا ربُّ الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد، إلىٰ غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله».

والمقصود إزالة تلبيس عُباد القبور علىٰ العامة بدعوىٰ: أنهم يصلون ويصومون فكيف يُكَفَّرون؟!

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنه لا يُشترط في التكفير أن يكفر المكلَّف بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، بل يكفي في الكفر والردَّة - والعياذ بالله - أن يأتي بما يوجب ذلك، ولو في بعض الأصول».

وقال العلَّامة المجدِّد محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنَّ الردَّة ردَّتان:

ردَّة مطلقة وهي: الرُّجوع عمَّا جاء به الرَّسُول ﷺ جملة.

والثَّاني: أن يكفر ببعض ما جاء به، فإنَّه إجماع بين أهل العلم أنَّ الذي يرتدّ عن بعض الدِّين كافر، بل يرون أن الاعتقاد الواحد والكلمة الواحدة قد تخرج صاحبها عن جملة الدِّين».

---

(١) رسالة إلىٰ أهل المغرب (ص٦٣)، المجلد الثالث من مجموع مؤلفات الشيخ.

(٢) منهاج التأسيس (ص٧٢).

(٣) شرح كشف الشُّبهات (ص١١٧).

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كفر مَن استهزأ بالله عَزَّوَجَلَّ وآياته ورسوله ﷺ، وهو حال من يسب التوحيد وممن يتدين بالشرك ويبرِّره وينصره، ويجاهد دونه، في العدوان علىٰ دعاة التوحيد.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شأن هؤلاء**[١]: «يقصون علىٰ الناس الحكايات التي ترسِّخ الشرك في قلوبهم، وتبغِّض إليهم التوحيد، ويُكفِّرون أهل العارض - الدرعية ونواحيها - لما قالوا: لا يُعبد إلا الله».

وقال شيخ الإسلام عنهم[٢]: «وإنَّما كفَّرنا هؤلاء الطواغيت؛ أهلَ الخرج وغيرهم، بالأمور التي يفعلونها هم؛ منها: أنهم يجعلون آباءهم وأجدادهم وسائط. ومنها: أنهم يدعون الناس إلىٰ الكفر. ومنها: أنهم يُبغِّضون عند الناس دين محمد ﷺ، ويزعمون أن أهل العارض - الدرعية ونواحيها - كفروا لما قالوا: لا يُعبد إلا الله».

ودعاء غير الله من الموتىٰ أو الأحياء الغائبين؛ هو غالب شرك الناس المعاصرين، جمعوا فيه أنواع الشرك من اعتقاد القلب وتألهه لغير الله، وخضوع الجوارح لغير الله، ولهج اللسان بالشرك والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لا ريب أن الدعاء يجتمع فيه من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات، والنداء كذلك؛ كتوجُّه الوجه والقلب واللسان للمدعوِّ، تذللًا له وخضوعًا واستكانة

(١، ٢) رسالة إلىٰ سليمان بن سحيم (ص١٢٩)، مجموع مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

(٣) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٧٣).

ورغبة، وهذا هو العبادة؛ لأن أصل العبادة وأساسها أن يخضع غاية الخضوع والتذلل للمعبود، ولا بد مع ذلك من المحبة، وأنت ترىٰ ما يفعله المشركون من إقبالهم علىٰ الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلل وإسلام الوجه والقلب والجوارح لسؤال صاحب القبر ما لا يوجد مثله في المساجد، وهذا لا يخفىٰ علىٰ من عرف حال هؤلاء المشركين مع من كانوا يقصدون لإغاثة لهفاتهم وتفريج كرباتهم، فيقع منهم من الشرك بالله ما يجل عن الوصف، فعبدوا غير الله بالقول والاعتقاد، وأقبلوا عليه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وهذا الواقع لا يقدر أحد أن يجحده، فقد عمت به البلوىٰ في الأمصار، وأكثر الأقطار، والله أعلم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه؛ يبكي عنده ويخضع ويدعو ويتضرَّع، ويحصل له من الرِّقة والتواضع والعبودية وحضور القلب ما لا يحصل له مثله في الصلوات الخمس والجمعة وقيام الليل وقراءة القرآن؛ فهل هذا إلا من حال المشركين المبتدعين، لا الموحدين المخلصين المتبعين لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ؟!!».

❁ ❁ ❁

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٥٨٤).

مضاهاة قوم موسى في الشرك

ناقش شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ شبهة من استطال على الموحِّدين بدعوى تكفير المسلمين الذين قالوا إنَّ النفر من قوم موسى الذين قالوا له: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: ١٣٨]، من الأصنام؛ ما كفروا، وكذلك الذين استأذنوا النبيَّ ﷺ بالتبرك بالسدرة ذات الأنواط؛ ما كفَّرهم رسول الله ﷺ.

قال الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حَكَىٰ اللهُ تعالىٰ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ -، أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وَقَوْلُ أُنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ...»؛ فَحَلَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَهِيَ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ». لَمْ يَكْفُرُوا.

فَالْجَوَابُ: أَنْ نَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا

---

(١) كشف الشبهات (ص٤٧-٤٩).

النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسرَائِيلَ لَوْ فَعلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا.

وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الَّذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ، وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ؛ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَلَكِنْ هَذِهِ الْقِصَّةُ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ - بَلِ الْعَالِمَ - قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشِّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ».

ولا حجة للمغالطين بحديث ذات أنواط ولا ما صنعه قوم موسىٰ في نفي الشِّرك والكفر عمَّن عبد الأصنام والحجارة، بل الحجَّة فيهما علىٰ أنَّ التبرك بالشجر والحجر شرك، ومن انتهىٰ عن إرادة الشرك بعد نصيحة وإنكار الأنبياء وورثتهم فقد انتفىٰ عنه موجب التكفير، أما من استروح إلىٰ الشرك وأصرَّ علىٰ التبرك بالحجر والشجر؛ فهو مشرك.

وقول شيخ الإسلام عن بني إسرائيل (مع علمهم) أراد به العلم النِّسبي، أي مقارنة بغيرهم، قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المراد بعلمهم بالنِّسبة إلىٰ غيرهم في زمنهم، يعني: أنَّهم أتباع موسىٰ ويقتبسون من علمه وممَّا جاء به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فإنَّه دالٌّ علىٰ أنَّ صدور ذلك منهم عن جهل».

ودين سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنكار عبادة الحجارة، وكسرها؛ تحقيقًا للتوحيد ولإظهار عجزها وعدم استحقاقها للعبودية.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ

(١) شرح كشف الشُّبهات (ص١٣٣).

أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٧].

والحجارة إن كانت مصنوعة ومبنيَّة علىٰ صورة آدمي؛ فهي صنم، كأصنام قوم نوح يغوث ويعوق ونسر.

وقد بعث النبيُّ ﷺ أصحابه بكسر الأصنام؛ ففي «صحيح مسلم» عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ لا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته، ولا تمثالًا إلا طمسته».

وقد خشي أمير المؤمنين الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الغلو والتبرك بالشجرة التي حصلت عندها بيعة الرضوان، فقطعها.

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ثبت عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه رأىٰ رجالًا ينتابون مكانًا يصلون فيه فقال: ما هذا؟ قالوا: مكان صلىٰ فيه رسول الله ﷺ، قال: أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا، من أدركته الصلاة فليصلِّ، وإلَّا فليمض. فقد نهاهم عن اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد».

ولم يشرع الله لنا عبادة نتبرَّك بها بمسِّ الحجارة، لم يُشرع لنا إلا استلام الحجر الأسود، والركن اليماني، واستلامهما نسك وعبادة، وليس تبركًا.

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٣٠٢).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحكمة من تقبيل الحجر بيَّنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك» فالحكمة التعبُّد لله عَزَّ وَجَلَّ باتباع النبي ﷺ في تقبيل هذا الحجر وإلا فهو حجر من الأحجار لا يضر ولا ينفع كما قال أمير المؤمنين؛ فهذه الحكمة، ومع ذلك فإنه لا يخلو من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن المشروع أن يُكبِّر الإنسان عند ذلك؛ فيجمع بين التعبد لله تعالىٰ بالتكبير والتعظيم، والتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بتقبيل هذا الحجر؛ اتباعًا لرسول الله ﷺ.

وبه يُعرف أن ما يفعله بعض الناس من كونه يمسح الحجر بيده، ثم يمسح علىٰ وجهه وصدره تبركًا بذلك؛ أنه خطأ وضلال، وليس بصحيح، وليس المقصود من استلام الحجر أو تقبيله؛ التَّبرُّك بذلك؛ بل المقصود به التعبد لله باتباع شريعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وكذلك يقال في استلام الركن اليماني، إن المقصود به التعبد لله باتباع النبي ﷺ؛ حيث كان يستلمه؛ ولهذا لا يُشرع استلام بقية الأركان.

فالكعبة القائمة الآن فيها أركان أربعة: الحجر، والرُّكْن اليماني، والركن الغربي، والركن الشمالي، فالحجر يستحب فيه الاستلام والتقبيل، فإن لم يمكن فالإشارة والركن اليماني يُسَنُّ فيه الاستلام دون التقبيل، فإن لم يمكن الاستلام فلا إشارة والركن الغربي والشمالي لا يُسَنُّ فيهما استلام ولا تقبيل ولا إشارة، وقد رأىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

---

(١) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (٨/ ١٧٧، ١٧٨).

يطوف ويستلم الأركان الأربعة فأنكر عليه، فقال له معاوية بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنه ليس شيء من البيت مهجورًا - يعني: كل البيت معظَّم -[١]؛ فقال له ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقد رأيت النبي ﷺ يستلم الركنين اليمانيين؛ يعني الحجر الأسود والركن اليماني. فتوقف معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وصار لا يستلم إلا الركنين اليمانيين؛ اتباعًا لسنَّة النبي ﷺ، وهذا واجب على كل أحد سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، كل الناس أمام الشرع صغار، وفيه فضيلة ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وفضيلة معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «لَا يُسَنُّ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ أَنْ يُقَبِّلَ الرَّجُلُ أَوْ يَسْتَلِمَ رُكْنَيِ الْبَيْتِ - اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحَجَرَ - وَلَا جُدْرَانَ الْبَيْتِ وَلَا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَلَا صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَا قَبْرَ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ. حَتَّىٰ تَنَازَعَ الْفُقَهَاءُ فِي وَضْعِ الْيَدِ عَلَىٰ مِنْبَرِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا كَانَ مَوْجُودًا[٣]، فَكَرِهَهُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ؛ لِأَنَّهُ بِدْعَةٌ، وَذُكِرَ أَنَّ مَالِكًا لَمَّا رَأَىٰ عَطَاءً فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَأْخُذْ عَنْهُ الْعِلْمَ وَرَخَّصَ فِيهِ أَحْمَد وَغَيْرُهُ؛ لِأَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فَعَلَهُ. وَأَمَّا التَّمَسُّحُ بِقَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقْبِيلُهُ فَكُلُّهُمْ كَرِهَ ذَلِكَ وَنَهَىٰ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا مَا قَصَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حَسْمِ مَادَّةِ الشِّرْكِ ،وَتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ

(١) يعني: حرمتها في النفوس.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٧٩، ٨٠).

(٣) منبر النبي ﷺ أصابه حريق بعد عهد الصَّحابة، وصُنع للمسجد منبر جديد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «احترق المسجد والمنبر سنة بضع وخمسين وستمائة، وظهرت النَّار بأرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرىٰ»، «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (٢/ ١٩٨).

الدِّينِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لَمْ يَأْمُرِ اللهُ أَنْ يُتَّخَذَ مَقَامُ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُصَلًّىٰ إِلَّا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالِاسْتِلَامِ وَالتَّقْبِيلِ لِحَجَرٍ مِنَ الْحِجَارَةِ إِلَّا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، وَلَا بِالصَّلَاةِ إِلَىٰ بَيْتٍ إِلَّا الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَاسَ غَيْرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَعَلَ لِلنَّاسِ حَجًّا إِلَىٰ غَيْرِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، أَوْ صِيَامَ شَهْرٍ مَفْرُوضٍ غَيْرِ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ. فَصَخْرَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَا يُسَنُّ اسْتِلَامُهَا وَلَا تَقْبِيلُهَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ لَيْسَ لِلصَّلَاةِ عِنْدَهَا وَالدُّعَاءِ خُصُوصِيَّةٌ عَلَىٰ سَائِرِ بِقَاعِ الْمَسْجِدِ. وَالصَّلَاةُ وَالدُّعَاءُ فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ الَّذِي بَنَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ عِنْدَهَا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا(٢): «حُجْرَةُ نَبِيِّنَا ﷺ وَحُجْرَةُ الْخَلِيلِ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْمَدَافِنِ الَّتِي فِيهَا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالِحٌ: لَا يُسْتَحَبُّ تَقْبِيلُهَا وَلَا التَّمَسُّحُ بِهَا بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ؛ بَلْ مَنْهِيٌّ عَنْ ذَلِكَ. وَأَمَّا السُّجُودُ لِذَلِكَ فَكُفْرٌ، وَكَذَلِكَ خِطَابُهُ بِمِثْلِ مَا يُخَاطَبُ بِهِ الرَّبُّ؛ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي أَوِ انْصُرْنِي عَلَىٰ عَدُوِّي، وَنَحْوَ ذَلِكَ».

والمسلم الذي يريد النصيحة لنفسه يأخذ عقيدته من القرآن وصحيح الأحاديث المرويَّة عن النبيِّ ﷺ، أمَّا من أخذ بالأكاذيب وما يخالف القرآن

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٣٦).

والفطرة والعقل الصريح؛ فهذا الذي رضي لنفسه بالوثنيَّة والشِّرك واتَّبع دعاة جهنم.

فعبَّاد القبور والحجارة التفتوا عن القرآن ولم يهتدوا به، واختاروا لأنفسهم عبادة الموتىٰ والحجارة بالأخبار المكذوبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لهم حديث مشهور بينهم، سألني عنه غير واحدٍ من أعيان الشيوخ وكُبراء الناس، فكانوا يعتمدون عليه، وهو قوله: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»، وقد بيَّنتُ لمن سألني عنه مرَّة بعد مرَّة؛ أن هذا كذب منكر، ليس هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الحديث، ولا ذكره أحدٌ من علماء الإسلام، ولا إمام من أئمَّة المسلمين، وإنَّما هذا الحديث من الأكاذيب التي وضعت ليقام بها دين أهل الشِّرك، كما يقولون: لو أحسن أحدكم ظَنَّه بحجر لنفعه الله به، وإنَّما يُحْسِنُ الظن بالأحجار المشركون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]».

فالشرك مبنيٌّ علىٰ الجهل، والكذب بالاحتجاج بالموضوعات، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هؤلاء المشركون يضمون إلىٰ الشِّركِ الكذبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ مَقْرُونٌ بِالشِّرْكِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«عدلت شهادة الزور الإشراك بالله»**؛ مرتين أو ثلاثًا. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٤١، ١٤٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٨٢).

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]».

فالتبرُّك بالأحجار والأشجار والتبرُّك بما يُعلَّق عليها من الخرق هو من البدع الشِّركيَّة ومن اتِّخاذها ذات أنواط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أَمَّا الْأَشْجَارُ وَالْأَحْجَارُ وَالْعُيُونُ وَنَحْوُهَا مِمَّا يَنْذِرُ لَهَا بَعْضُ الْعَامَّةِ، أَوْ يُعَلِّقُونَ بِهَا خِرَقًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، أَوْ يَأْخُذُونَ وَرَقَهَا يَتَبَرَّكُونَ بِهِ، أَوْ يُصَلُّونَ عِنْدَهَا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ: فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْبِدَعِ الْمُنْكَرَةِ، وَهُوَ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ كان للمشركين شجرة يعلقون بها أسلحتهم يسمُّونها «ذات أنواط»، فقال بعض الناس: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: **«الله أكبر! قلتم كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ: شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ، وَحَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي الطَّرِيقِ لَفَعَلْتُمُوهُ»**. وَقَدْ بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنَّ قَوْمًا يَقْصِدُونَ الصَّلَاةَ عِنْدَ «الشَّجَرَةِ» الَّتِي كَانَتْ تَحْتَهَا بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ الَّتِي بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ تَحْتَهَا، فَأَمَرَ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ فَقُطِعَتْ. وَقَدِ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الدِّينِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ نَذَرَ عِبَادَةً فِي بُقْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْبِقَاعِ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَذْرًا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَلَا مَزِيَّةَ لِلْعِبَادَةِ فِيهَا».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٣٦، ١٣٧).

تغرير الشيطان الناس بفهم التوحيد

ذكر الإمام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ وقوع الجاهلين في الشرك سببه غرور التعالم بفهم التوحيد، وهذا حال مضادٌّ لحال سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي خشي علىٰ نفسه وبنيه الشِّرك؛ فقال مبتهلًا إلىٰ الله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن يأمن علىٰ نفسه بعد إبراهيم؟!».

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إِنَّ قَوْلَ الْجَاهِلِ: «التَّوحِيدُ فَهِمْنَاهُ»: إِنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَائِدِ الشَّيْطَانِ».

وأعداء التَّوحيد الذين أصرُّوا علىٰ شركهم وحاربوا التَّوحيد يظنُّون أنَّهم من العلماء والمحقِّقين لكلمة التَّوحيد، وهم ممَّن هدمها ولم يعرف حقيقتها.

وهناك صنف من طلبة العلم قالوا لشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن درسوا عليه عدَّة متون في التَّوحيد «التَّوحيد فهمناه» يريدون الانتقال إلىٰ مدارسة أنواع أخرىٰ من علوم الشَّريعة لا منابذة علم التَّوحيد ودعوته، فهؤلاء ليسوا كالمشركين.

---

(١) كشف الشبهات (ص٤٩).

قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه الكلمة صدرت من بعض الطَّلبة لمَّا كثر التَّدريس في التَّوحيد - متنه، أو كتب نحوه - ، سئموا وأرادوا القراءة في كتب أخرىٰ. وقيل: إنَّه من المراسلين، فنقم عليه المصنّف في هذا القول، يعني: أنَّك ما فهمته حتىٰ الآن، فقال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك لينبِّههم».

وقال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم[2]: «لا يزهد في التَّوحيد، فإنَّ الزُّهد فيه يقع في ضدّه، وما هلك من هلك ممَّن يدَّعي الإسلام إلا بعدم إعطائه حقّه، ومعرفته حقَّ المعرفة».

وشأن المسلم التواضع، وهضم النفس، وعدم الاغترار، ولو كان متحققًا بالعلم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، فكيف بمن كان جاهلًا ومتعالمًا!!

وما الإعراض عن تعلُّم التوحيد بدعوىٰ فهمه إلَّا مِنْ نقص العلم بالتوحيد، وإلا فشأن الموحِّد الإقبال علىٰ طلب العلم عمومًا، وعلم التوحيد خصوصًا، طاعةً وتحقيقًا لعبودية الله، وحفظًا للتوحيد من أسباب فساده، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [محمد: ١٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «المصيبة العظيمة هي الغفلة عن دين الله، وعدم التفقُّه فيه، فربَّما وقع العبد في الشرك والكفر بالله وهو لا يبالي؛ لغلبة الجهل، وقلَّة العلم بما جاء به الرسول ﷺ من الهدىٰ ودين الحقِّ.

(١، ٢) شرح كشف الشبهات (ص١٣٧).

(٣) الفتاوىٰ البازية (٢/ ٢٧).

فانتبه لنفسك أيُّها العاقل، وعظِّم حرمات ربك، وأخلص لله العمل، وسارع إلىٰ الخيرات، واعرف دينك بأدلَّته، وتفقَّه في القرآن والسنَّة بالإقبال علىٰ كتاب الله، وبحضور حلقات العلم وصحبة الأخيار، حتىٰ تعرف دينك علىٰ بصيرة.

وأَكْثِر من سؤال ربِّك الثباتَ علىٰ الهدىٰ والحق، ثم إذا وقعْتَ في معصية فبادر بالتوبة «**فكل بني آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون**»، كما جاء في الحديث الصحيح؛ لأن المعصية نقص في الدين، وضعف في الإيمان».

وغرور التعالم بمعرفة التوحيد هو الذي أصاب كثيرًا من الخلق بالشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

ومن زعم أنه «فهم التوحيد» وكفاه ذلك عن التزود من العلم وتحريره وتحقيقه؛ فقد عدل عمَّا أمر الله به سبحانه مَنْ هو أعلم الخلق رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وما دعوىٰ من زعم أنه فهم التوحيد إلَّا دلالة علىٰ خسارته، فمن ظنَّ أن علمه بلغ النهاية بحيث لا يطلب العلم ولا يتزود منه بعد ذلك؛ فقد تمَّت خسارته(١)، وهو من الحرمان من أسباب الخير، قال النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدِّين**»، رواه البخاري ومسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقد حثَّنا الله علىٰ طلب الزيادة من العلم والفقه في دينه، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

---

(١) **قال ابن أبي غسَّان** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تزال عالمًا ما كنت متعلِّمًا، فإذا استغنيت كنت جاهلًا»، جامع بيان العلم وفضله (ص١٥٦).

وكُلَّما تحقَّق العالم وطالب العلم بالعلم تحقَّق بالتوحيد، فالتزود من العلم من أعظم أسباب تحقيق التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

والراغب في طلب العلم خصوصًا العلم الشرعي سالك طريق الجنة، والراغب عنه راغب عن أعظم أسباب دخول الجنة، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنَّة**»، رواه مسلم، وطريق الجنة يكون بتحقيق التوحيد وإقامة حقوقه من شرائع الإسلام وشعائره، وذلك لا يكون إلا بالعلم به.

والتَّزهيد في التزوّد من طلب العلم تثبيط عن أفضل الطَّاعات ومن أسباب اندراس العلم، فاحذروا من الصدِّ عن سبيل الله.

ومن زعم أنه اكتفىٰ بفهم التوحيد عن تعلُّمه؛ فهذا ما أُراه اهتدىٰ بمعاني أمِّ القرآن التي أُمرنا بقراءتها في كلِّ صلاة وكلِّ ركعة، ولا تصحُّ صلاة إلا بقراءتها، في كل ركعة من كل صلاة مفروضة نصلِّيها، فضلًا عن رواتب المفروضات؛ نقول فيها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٥، ٦]، فلا أحد يستغني عن هداية الله له في كل وقت ليلًا ونهارًا، كلُّنا نسأل الله الهداية إلىٰ صراطه المستقيم، وتعلمه والعمل به.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «إذا كان هذا شأن الهداية، عُلِمَ أنَّ العبدَ أشدُّ شيءٍ

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

اضطرارًا إليها، وأنَّ ما يُورده بعض النَّاس من السُّؤال الفاسد، وهو أنَّا إذا كنَّا مهتدين فأيُّ حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! وهل هذا إلَّا تحصيل حاصل؟ أفسد سؤال وأبعدُه عن الصَّواب، وهو دليل علىٰ أنَّ صاحبه لم يحصِّل معنىٰ الهداية، ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسمَّاها، فلذلك تكلَّفَ من تكلَّفَ الجواب عنه بأنَّ المعنىٰ: ثَبِّتنا علىٰ الهداية وأدِمْها لنا.

ومن أحاط علمًا بحقيقة الهداية، وحاجة العبد إليها، عَلِمَ أنَّ الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنَّه كلَّ وقت محتاج إلىٰ هداية متجدِّدة، لا سيَّما والله تعالىٰ خالقُ أفعال القلوب والجوارح، فهو كلَّ وقت محتاج إلىٰ أن يخلق الله له هدايةً خاصَّة، ثم إن لم تُصْرَف عنه الموانع والصَّوارف التي تمنع موجب الهداية وتَصْرِفُها لم ينتفع بالهداية، ولم يتمَّ مقصودُها له، فإنَّ الحكم لا يكفي فيه وجودُ مقتضيه، بل لابُدَّ مع ذلك من عدم مانعه ومُنافيه.

ومعلومٌ أنَّ وساوس العبد وخواطرَه وشهوات الغيِّ في قلبه كلٌّ منها مانع من وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدًىٰ تامًّا ، فحاجته إلىٰ هداية الله له مقرونة بأنفاسه، وهي أعظم حاجة للعبد».

وقال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «كُلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته فاستهدوني أهدكم»، رواه مسلم من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في فوائد الحديث[1]: «الحثُّ علىٰ طلب العلم».

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص٣٠٠).

والنبيُّ ﷺ في حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخبر أمته بما يكون من الخلاف بعده، وحثَّهم علىٰ أسباب معرفة الحق والأخذ به؛ لحفظ أديانهم من الخلاف علىٰ الحقِّ، وقال: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»، وهذا يحتاج إلىٰ طلب علم سنَّته وسُنَّة صحابته، خصوصًا خلفاءه الأربعة من بعده، وقد رأىٰ الناس ما وقع من الخلاف علىٰ الحقِّ في التوحيد فضلًا عن سائر أحكام وعلوم الشريعة ممَّا يوجب علىٰ كل طبقات المتعلمين المداومة علىٰ طلب العلم، وسلوك الصراط المستقيم حتىٰ نوافي ربَّنا بموجبات رضاه.

وما شأن من زعم أنَّه انتهىٰ من فهم التوحيد إلا كأولئك الذين بكَّتهم الله بقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، وأمرهم الله أن يقولوا: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]؛ لأنَّهم لم يحقِّقوا الإيمان.

ونبيُّنا محمَّد ﷺ سيد ولد آدم، أفضل الخلق علمًا وتحققًا بالتوحيد، كان في كل يوم يُصلِّي فيه الفجر يسأل الله علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ورزقًا طيبًا.

وما قول من أراد لنفسه وللمسلمين الاكتفاء بقليل العلم غير المُحقَّق إلا أن يورث الأمَّة الجهل والضلال، وربما كانت هذه الدعوة من أسباب وقوع الأمة في الشِّرك والبدع، وهذه الكلمة في الحقيقة قاطعة طريق عن أسباب الخير؛ فإنَّ خير الأمة بأخذها بالعلم النافع والعمل الصالح، قال النبيُّ ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدِّين**»، متفق عليه، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «لا يتم

(١) التعليقات البازية علىٰ شرح الطحاوية (١/ ٩).

الصلاح إلا بها - الشريعة -، وقد أسست للبشر أصولًا عظيمة، متىٰ اعتبروها صلحت لهم دنياهم كما صلح لهم دينهم، فإنَّ الشريعة تشتمل علىٰ شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حقٌّ وإنشاءاتها عدل، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح».

وما الدعوة إلىٰ الاكتفاء بمقدار التَّعالم الذي أدركه من جادل بالباطل عن الشرك، أو كفَّ عن إنكاره إلا دعوة لإضلال الخلق وهدم الإسلام، قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الدِّين لا يقوم إلَّا بالعلم، والناس اليوم محتاجون إلىٰ العلم الشرعي، محتاجون إلىٰ العلم الراسخ؛ لئلا يهلك العلماء فيتَّخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، يفتون بغير علم فيَضِلُّون ويُضِلُّون».

والأمر تجاوز الجهل بالتوحيد إلىٰ قيام الأئمَّة المضلين بالدعوة للشِّرك والانتصار له، وعظم الشر بذلك إلىٰ رعاية الدولة الرافضية الخمينية للشرك.

وهناك أحزاب دعوية كجماعة التبليغ من منهجها منع الدعوة للتوحيد، يتواصون بالباطل، ويتلقَّىٰ هذا الباطل بالطَّاعة أعوانهم علىٰ هذه المضادة لدعوة الأنبياء عليهم السلام.

والنَّاس في طلبهم العلم طبقات في كل أنواع العلوم وفي علم التوحيد أيضًا، دلَّ علىٰ ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه سأل النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أسعد الناس بشفاعته؛ فقال له النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد ظننت أن لا يسألني عن ذلك أحد قبلك،**

---

(١) اللقاءات الشهرية (١/ ٥٦٦).

لحرصك على العلم، من قال: لا إله إلا الله، خالصًا، من قلبه»، رواه مسلم.

والشفاعة من أخصِّ مسائل التوحيد التي ضلَّ فيها من استغاث بالموتى ودعاهم، أو جعلهم شفعاء في دعائهم لله، ﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

والنبيُّ ﷺ كان يشحذ أذهان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ليُنمِّيَ أفهامهم بمعاني التوحيد بسؤالاته لهم، من ذلك سؤاله لهم عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، فتنوعت واختلفت أجوبة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فمنهم من قال: لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، ومنهم من قال: لعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئًا، الحديث رواه البخاري ومسلم؛ فلا ريب أن من بعدهم أولى بطلب العلم والمداومة على ذلك، والله يقول لنا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومن كان هذا شأنه فإنَّه لا يزال يطلب العلم.

وطبقات المتعلمين كلٌّ منهم كلَّما ازداد طلبًا للعلم واستقراءً له؛ فإنَّه يتحقق به أكثر، فيكون هذا من أسباب إدراكه الصواب وهدايته للحق، قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم يُغذي بعضه بعضًا».

ومن غرور الجاهلين المشركين المقلِّدين للآباء استطالتهم على علماء أهل السنَّة، ورميهم بالجهل والإتيان بدين جديد، فهذا من إصرارهم على التقليد للآباء بالباطل.

فهؤلاء المغرورون بجهل الشرك زعموا أنَّ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتى بشيء جديد.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا قام من يبيِّن للناس التوحيد قلتم: إنَّه غيَّر الدين وآت بمذهب خامس».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الوهابية نسبة إلىٰ مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يظنون أنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتدع مذهبًا جديدًا، وهو صحيح، هو مذهب جديد بالنسبة لهم ولشركهم، لكن بالنسبة لأهل السنَّة ليس مذهبًا مستقلًّا».

وقال العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حقيقة دعوة علماء التوحيد والسنَّة[(٣)]: «أما ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلم يبتدع ضلالة، وإنَّما أحيا السنَّة، ودعا إلىٰ الهدىٰ، واجتهد في النصح، وليست الدعوة إلىٰ التوحيد بمذهب خاص، ولكنَّه دين الله العام.

وما جعل العوام يستخفون بما وقعوا فيه من الشِّرك الجلي إلا الاعتياد، وجبن جلِّ العلماء[(٤)] عن الجهر بالإرشاد، والعادة - كما يقال - طبيعة ثانية، والإسرار بالعلم إقبار له.

ففي كتاب العلم من «صحيح البخاري»: أنَّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب إلىٰ أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه؛ فإنِّي

---

(١) رسالة إلىٰ سليمان بن سحيم (ص١٢٦)، المجلد الثالث، من مؤلفات الشيخ.

(٢) تفسير سورة المائدة (٢/ ١٢٥).

(٣) الشرك ومظاهره (ص٦٩).

(٤) الناصح للإسلام والمسلمين لا يكتم العلم خصوصًا علم التوحيد، وحديثه عن علماء بلده في وقته.

خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبيِّ ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتىٰ يعلم من لا يُعلَّم، فإنَّ العلم لا يهلك حتىٰ يكون سرًّا»».

ومن فهم التوحيد وتحقَّق به؛ فواجب عليه تعاهد توحيده بالحفظ وتجديد إيمانه، والتزوُّد بالعلم الذي يُبصِّر بالشبهات، ويدل علىٰ التوحيد ولوازمه من شرائع الإسلام وأركانه وواجباته ونوافله.

ومدارسة العلم تزيد في الفهم، وهي من أسباب زيادة الإيمان وتجديده، وكبار علماء المسلمين كانوا أئمَّةً في التواضع في تعاهد إيمانهم بالتجديد والحفظ.

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أُثْني عليه في وجهه يقول(١): «والله! إنِّي إلىٰ الآن أجدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيدًا».

وتكرار مدارسة العلم ومذاكرة متون التوحيد وشروحاتها؛ تورث الفهم والإتقان له.

قال شيخ الإسلام(٢): «الإنسان يقرأ السورة مرات، حتىٰ سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتىٰ كأنَّها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كلِّ من قرأ القرآن بتدبُّر، بخلاف من قرأ مع الغفلة، ثم كلما فعل شيئًا ممَّا أُمر به؛ استحضر أنَّه أُمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلًا عنه، وإن لم يكن مكذِّبًا».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص٢٢٣، ٢٢٤).

والنبيُّ ﷺ وهو يودِّع أصحابه بعد أن علَّمهم التوحيد الخالص، حذَّرهم الشرك حتىٰ لا يغتروا بحالهم التي هم عليها، فقال: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، قال الصَّحابة: يُحذِّر ما صنعوا.

وقال سيد الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن يأمن علىٰ نفسه بعد إبراهيم»، وعرض الشيطان للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في احتضاره، يقول له: «فُتَّنِي يا أحمد»، فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس بعد، ليس بعد».

وأول شرك وقع في الأرض في قوم نوح سببه اندراس العلم، والنبيُّ ﷺ خشي علىٰ أمَّته الشِّرك الذي كان في قوم نوح، فنهىٰ أن يُتخذ قبره عيدًا، ودُفن في حجرته ولم يبرز للناس حتىٰ لا يقع الناس في أسباب الشرك، فجاء من يزعم أنَّه فهم التوحيد وأمر بشدِّ الرحال إلىٰ قبر الرسول ﷺ، وأمر باتخاذه عيدًا والدعاء عنده.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ؛ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، رواه أبو داود، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «بإسناد حسن»، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»، رواه مالك.

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «معلوم أنه لو اتُّخذ قبره عيدًا ومسجدًا ووثنًا صار الناس يدعونه ويتضرعون إليه، ويسألونه ويتوكلون عليه، ويستغيثون ويستجيرون به، وربما سجدوا له وطافوا به

(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص٤١٩).

وصاروا يحجُّون إليه، وهذه كلُّها من حقوق الله وحده الذي لا يشركه فيها مخلوق.

وكان من حكمة الله دفنه في حجرته، ومنع الناس من مشاهدة قبره، والعكوف عليه والزيارة له، ونحو ذلك؛ لتحقيق توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدِّين لله».

ولا شيء أحب وأفرح لدعاة الشِّرك والبدع من سكوت العلماء وطلبة العلم عن تعليم التوحيد والتحذير من الشرك، فإذا سكت دعاة التوحيد عمَّ الجهل وتلقَّىٰ الناس ضلال الشِّرك والبدع بالقبول، وارتكس الناس في الذنب الذي لا يغفره الله، والذنب المحبط للأعمال وهو الشِّرك.

وتعليم الناس التوحيد وتحذيرهم من الشرك؛ هو حفظ لأديانهم وأوطانهم، وهو من أسباب قوتهم وأسباب تمكين الله لهم، ومن أسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية.

قال العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه آيات التنزيل، ليس لتكررها في موضوع الشرك مثيل، وهذه أحاديث الرسول ﷺ تحذِّر من كل ما هو منه بسبيل، ألا تدل تلك العناية علىٰ أنَّ جناية الشرك أفظع جناية، وأنَّ وقاية المجتمع منه أمتع وقاية؟».

❁ ❁ ❁

---

(١) الشرك ومظاهره (ص٦٥).

معاملة المشركين

ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيفية معاملة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للمشركين الذين ينتسبون إلىٰ القبلة، فقال[١]: «الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ».

وكذلك ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيفية معاملة الأُمَّة من بعد الصحابة للعبيديين؛ حيث قال[٢]: «أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ».

وبنحو استدلال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب بمعاملة عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للغلاة فيه، الذين ادَّعوا فيه الألوهيَّة؛ استدلَّ الحفيد العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوجوب معاملة من كان فيه هذا الشِّرك ممن ينتسب إلىٰ القبلة، حيث قال ناقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال[٣]: «عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حرَّق الغالية من الرافضة، وأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كندة وقذفهم فيها، واتفق الصحابة علىٰ قتلهم، لكنَّ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق، وهو قول أكثر العلماء،

(١) كشف الشبهات (ص٤٤).

(٢) كشف الشبهات (ص٤٥).

(٣) مصباح الظَّلام (ص٥٤٦)، باختصار عن مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٩٤، ٣٩٥).

وقصتهم معروفة، وكذا الغلو في بعض المشايخ؛ بل الغلو في عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بل الغلو في الشيخ عدي ونحوه؛ فكل من غلا في نبيٍّ أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الْإِلهيَّة، مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني، وأغثني، وارزقني، واجبرني. أو: أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال؛ فكلُّ هذا شركٌ وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلَّا قُتل، فإنَّ الله إنَّما أرسل الرسل وأنزل الكتبَ ليُعبد وحده، لا يُجعل معه إله آخر».

وشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُٱللَّهُ عامل الناس في وقته بمقتضىٰ فقه حديث ذات أنواط، فمن قبل الحجَّة وانتصح بالتوحيد وترك الشرك؛ عامله معاملة المؤمنين، بخلاف المُصرِّين علىٰ التبرُّك بالحجارة والأشجار.

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «شيخنا رَحِمَهُٱللَّهُ - محمَّد بن عبد الوهَّاب - ما خرج عن طريقتهم - الأنبياء -، ولا فارق منهاجهم، وقد قام أحسن قيام علىٰ من أراد ذلك ونصح وبلَّغ، وقرر واستدلَّ، فمن قبلَ وأطاعَ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ سار فيه بسيرة المؤمن مع أخيه، وأكرمه وأحبه لله وفيه، كما فعل رسول الله ﷺ بأبي واقد الليثي وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وكما فعل موسىٰ بن عمران عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع بني إسرائيل.

والنزاع فيمن ردَّ علىٰ الأنبياء - عليهم السلام -، ولم يقبل منهم، وتبرَّك بالشجر والحجر، وعاند وقاتل علىٰ ذلك، وهذا المعترض - عثمان بن منصور - خلط المسألتين، وجعل مَن عَبَدَ الأشجار وعاند وأصرَّ، بمنزلة من استفتىٰ ثم

---

(١) مصباح الظَّلام (ص٢٢٤).

تاب واستغفر، وزعم أنَّ طريقة رسل الله ترك المُصِرِّ المعاند، وعدم تكفيره، كما هي سيرتهم في المنيب التائب، فكذب على رسل الله، ولبَّس على خلق الله، واستباح لحوم العلماء، وبهرج على الجهَّال».

والإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُكفِّر بالمعاصي، وإنَّما يُكفِّر بالشِّرك الأكبر الذي يبطل الإسلام، وحاجَّ شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جادل في أنَّ الشرك ليس له أثر في أحكام التكفير، وقال(١): «إنَّ تصوُّر هذه المسألة تَصَوُّرًا حسنًا يكفي في إبطالها من غير دليل خاص؛ لوجهين:

الأول: أنَّ مقتضى قولهم: إن الشرك بالله وعبادة الأصنام لا تأثير لها في التكفير؛ لأن الإنسان إن انتقل عن الملَّة إلى غيرها وكذَّب الرسول ﷺ والقرآن فهو كافر، وإن لم يعبد الأوثان كاليهود؛ فإذا كان من انتسب إلى الإسلام لا يكفر إذا أشرك الشرك الأكبر، لأنه مسلم يقول: لا إله إلا الله، ويصلي ويفعل كذا وكذا؛ لم يكن للشرك وعبادة الأوثان تأثير، بل يكون ذلك كالسواد في الخلقة أو العمى أو العرج، فإن كان صاحبها يَدَّعي الإسلام فهو مسلم، وإن ادعى ملَّة غيرها فهو كافر، وهذه فضيحة عظيمة كافية في رد هذا القول الفظيع.

الوجه الثاني: أنَّ معصية الرسول ﷺ في الشرك وعبادة الأوثان بعد بلوغ العلم كفر صريح بالفطر والعقول والعلوم الضروريَّة، فلا يتصور أنك تقول لرجل ولو من أجهل الناس وأبلدهم: ما تقول فيمن عصى الرسول ﷺ ولم ينقد له في ترك عبادة الأوثان والشرك مع أنَّه يَدَّعي أنه مسلم مُتَّبع؟ إلَّا ويبادر بالفطرة الضروريَّة

---

(١) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، مجموع مؤلفات الشيخ (٦/ ٢١٤).

إلىٰ القول بأنَّ هذا كافر، من غير نظر في الأدلَّة أو سؤال أحد من العلماء».

وشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ بفقه الصحابة في معاملة المرتدِّين الذين أبطلوا حقيقة كلمة التوحيد، فقال[١]: «نقاتل عبَّاد الأوثان كما قاتلهم ﷺ، ونقاتلهم علىٰ ترك الصلاة وعلىٰ منع الزكاة كما قاتل مانعها صدِّيق هذه الأمة أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «في «الصحيحين» أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما أشكل عليه قتال مانعي الزكاة لأجل قوله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها**»، قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فإنَّ الزكاة من حقِّها، فإذا كان منعُ الزكاة من منع حقِّ «لا إله إلا الله»، فكيف بعبادة القبور والذبح للجنِّ ودعاء الأولياء وغيرهم، مما هو من دين المشركين».

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن بن حسن آل الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وفيه - القتال - ما هو حقّ، كقتال أهل التَّوحيد لأهل الشِّرك بالله وجهادهم علىٰ ترك الشِّرك، وقد منَّ الله بذلك علىٰ من أقامهم في آخر هذا الزَّمان بالدَّعوة إلىٰ توحيده، لكن أهل الشِّرك بدأوهم بالقتال وأظهرهم الله عليهم، كما لا يخفىٰ علىٰ من تدبَّر

(١) رسالة من عبد العزيز بن محمَّد بن سعود ومحمَّد بن عبد الوهَّاب إلىٰ أحمد البكبلي صاحب اليمن (ص٥٦)، مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

(٢) رسالة إلىٰ عبد الله بن سحيم مطوع المجمعة (ص٧٨)، مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

(٣) قرَّة عيون الموحِّدين (ص١٣٣، ١٣٤).

آيات هذا الدِّين في هذه الأزمنة».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه ما كان بدعًا من العلماء بمعاملة المشركين والمرتدِّين بالأحكام التي دلَّ عليها الشرع، ونقل هذه الأحكام عمن سبقه من العلماء، فقال[١]: «قال في «الإقناع»[٢] في باب حكم المرتد في أوله: فمن أشرك بالله أو جحَدَ ربوبيَّته أو وحدانيَّته؛ إلىٰ أن قال: أو استهزأ بالله أو رسله، أو كان مبغضًا لرسوله ﷺ أو لما جاء به اتفاقًا، **أو جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكَّل عليهم ويسألهم؛ كُفِّر إجماعًا**».

وحاجَّ شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جادل عن شرك اتخاذ الوسائط في دعاء الله، فقال[٣]: «قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] الآية، ذكر المفسرون في تفسيرها أن جماعة كانوا يعتقدون في عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعُزير، فقال تعالىٰ: هؤلاء عبيدي كما أنتم عبيدي، ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي.

فيا عبادَ الله، تَفكَّروا في كلام ربكم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا كان ذكر عن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أنَّ دينهم الذي كفَّرهم به هو: الاعتقاد في الصالحين، وإلا فالكفار يخافون الله ويرجونه، ويحجُّون ويتصدقون، ولكنهم كفروا بالاعتقاد في

(١) رسالة إلىٰ عبد الله بن سحيم مطوع المجمعة (ص٣٩)، المجلد الثالث من مجموع مؤلفات الشيخ .

(٢) الإقناع (٤/ ٢٨٥)، للعلامة موسىٰ بن أحمد الحجَّاوي المقدسي.

(٣) جواب سؤال ابن صياح (ص٣١)، المجلد الثالث من مجموع مؤلفات الشيخ.

الصالحين، وهم يقولون: إنَّما اعتقدنا فيهم ليقرِّبونا إلىٰ الله زُلفىٰ، ويشفعوا لنا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

فيا عباد الله، إذا كان الله ذكر في كتابه أن دين الكفار هو: الاعتقاد في الصالحين، وذكر أنهم اعتقدوا فيهم ودعَوهم وندبوهم لأجل أنهم يقرِّبونهم إلىٰ الله زلفىٰ، هل بعد هذا البيان بيان؟».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أقوامًا تغلَّظ في حقهم الكفر لأكثر من سبب، منها الشرك وكذلك سب دين الله، قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أهل حريملاء ومن وراءهم يُصرِّحون بمسبة الدين، وأن الحقَّ ما عليه أكثر الناس، يستدلُّون بالكثرة علىٰ حسن ما هم فيه من الدِّين، ويفعلون ويقولون ما هو من أكبر الردَّة وأفحشها. فإذا قالوا: التوحيد حق والشرك باطل، وأيضًا لم يُحدثوا في بلدهم أوثانًا؛ جادل الملحد عنهم، وقال: إنهم يُقِرُّون أنَّ هذا شرك، وأنَّ التوحيد هو الحق، ولا يضرهم عنده ما هم عليه من السبِّ لدين الله، وبَغي العِوَج له، ومَدْح الشرك، وذَبِّهم دونه بالمال واليد واللسان. والله المستعان».

وأبان شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أقوامًا حكم بردتهم لتصنيفهم المؤلفات في إنكار توحيد الألوهية والدعوة إلىٰ قتال التوحيد، وصد

(١) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، مجموع مؤلفات الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب (٦/ ٢٠٩، ٢١٠).

الناس عن التوحيد.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خطابه إلىٰ محمَّد بن عبَّاد مطوع ثرمداء[١]: «ابن إسماعيل نقض ما أبرمت في التوحيد، وتعرف أن عنده الكتاب الذي صنفه رجل من أهل البصرة، كله من أوله إلىٰ آخره في إنكار توحيد الألوهيَّة، وأتاكم به ولد محمَّد بن سليمان راعي وثيثية، وقرأه عندكم وجادل به جماعتنا؛ وهذا الكتاب مشهور عند المويس وأتباعه، مثل ابن سحيم وابن عبيد، يحتجُّون به علينا ويدعون الناس إليه، ويقولون: هذا كلام العلماء.

فإذا كنت تعرف أنَّ النبيَّ ﷺ ما قاتل الناس إلا عند توحيد الألوهيَّة، وتعلم أن هؤلاء قاموا وقعدوا، ودخلوا وخرجوا، وجاهدوا ليلًا ونهارًا في صدِّ الناس عن التوحيد، يقرؤون عليهم مصنفات أهل الشرك، لأي شيء لم تظهر عداوتهم وأنهم كفار مرتدُّون؟!».

وقال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اعتقاده في معاملة المسلمين[٢]: «ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنَّة ولا نار، إلا من شهد له رسول الله ﷺ، ولكنِّي أرجو للمحسن وأخاف علىٰ المسيء، ولا أُكفِّرُ أحدًا من المسلمين بذنب، ولا أخرجه من دائرة الإسلام».

وأفاد شيخ الإسلام أنَّه لا يُكفِّر بنواقض الإسلام مجازفةً، فالتكفير أحكامه تُبنىٰ علىٰ اليقين، حيث قال[٣]: «من أظهر الإسلام وظننا أنه أتىٰ بناقض لا

---

(١) رسالة الشيخ إلىٰ محمَّد بن عبَّاد (ص١١)، مجموع مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

(٢) رسالة الشيخ إلىٰ أهل القصيم (ص٧)، مجموع مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

(٣) رسالة الشيخ إلىٰ محمَّد بن عيد مطوع ثرمدا (ص١٣)، مجموع مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

نكفِّره بالظن؛ لأنَّ اليقين لا يرفعه الظنُّ، وكذلك لا نكفِّر من لا نعرف منه الكفر بسبب ناقض ذُكر عنه، ونحن لم نتحققه».

وشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر معاملته لمن ضادَّ دعوة التوحيد وقاتل لنصرة الشرك، فقال(١): «أمَّا التكفير، فأنا أُكفِّر من عرف دين الرسول ﷺ، ثم بعدما عرفه سبَّه ونهىٰ الناس عنه، وعادىٰ مَن فعله؛ فهذا هو الذي أكفِّره، وأكثر الأمَّة - ولله الحمد - ليسوا كذلك.

وأما القتال، فلم نقاتل أحدًا إلىٰ اليوم، إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنًا، ولكن قد نقاتل بعضهم علىٰ سبيل المقابلة، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وكذلك من جاهر بسبِّ دين الرسول ﷺ بعدما عرفه».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواعًا من البُهتان الذي رماه به أهل الباطل للصدِّ عن دعوة التوحيد، وقال(٢): «ما ذُكر لكم عني: أنِّي أُكفِّر بالعموم؛ فهذا من بهتان الأعداء، وكذلك قولهم: إنِّي أقول: من تبع دين الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وهو ساكن في بلده، أنَّه ما يكفيه حتىٰ يجيء عندي؛ فهذا أيضًا من البهتان. إنَّما المراد: اتباع دين الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ في أيِّ أرض كانت. ولكن نُكفِّر من أقر بدين الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ ثم عاداه وصدَّ الناس

---

(١) رسالة الشيخ إلىٰ عالم العراق عبد الرحمن بن عبد الله السويدي (ص٢٢، ٢٣)، مجموع مؤلفات الشيخ، المجلد الثالث.

(٢) رسالة إلىٰ من يصل إليه من المسلمين (ص٣٣)، المجلد الثالث من مؤلفات الشيخ.

عنه، وكذلك من عبد الأوثان بعدما عرف أنها دين للمشركين وزينة للناس؛ فهذا الذي أُكفِّره. وكل عالم على وجه الأرض يكفِّر هؤلاء، إلا رجلًا معاندًا أو جاهلًا».

وبيَّن شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أظهره عباد الأوثان من العداوة للتوحيد والقتال دون الشرك لتثبيته، فقال[1]: «التوحيد دين الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، ويبغضونه أكثر من بغض اليهود والنصارىٰ، ويسبونه، ويصدُّون الناس عنه، ويجاهدون في زواله وتثبيت الشرك بالنفس والمال، خلاف ما عليه الرسل وأتباعهم؛ فإنهم يجاهدون حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كلُّه لله».

وذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب للجاهلين بحاله مع المحاربين للتوحيد من السعي في قتله والفتيا بذلك والاستهزاء بالموحدين، فقال[2]: «إن كنت تزعم أنَّ الإنسان إذا أظهر الإسلام لا يُكفَّر إذا أظهر عبادة الأوثان، وزعم أنها الدين، وأظهر سبَّ دين الأنبياء، وسمَّاه دين أهل العارض[3]، وأفتىٰ بقتل من أخلص لله الدين وإحراقه وحلِّ ماله».

والفرق ما بين شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ والمبتدعة في معاملة المسلمين معلومٌ، فالشيخ يعامل المسلم والكافر بما تقتضيه أدلة الكتاب والسنَّة، والمبتدعة يعاملون الناس بضلال أهوائهم، يكفِّرون الناس لمخالفتهم لهم لا لوجود مقتضىٰ ذلك من أحكام الشريعة.

---

(١) رسالة إلىٰ أحمد بن إبراهيم مطوع مرات من الوشم، (ص١١٤)، المجلد الثالث من مؤلفات الشيخ.

(٢) رسالة إلىٰ أحمد بن عبد الكريم الإحسائي (ص١٢٠)، المجلد الثالث من مؤلفات الشيخ.

(٣) **العارض**: الدِّرعيَّة ونواحيها.

قال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ من كفَّر المسلمين لمخالفة رأيه وهواه، كالخوارج والرافضة، أو كفَّر من أخطأ في المسائل الاجتهاديَّة أصولًا أو فروعًا؛ فهذا ونحوه مبتدع ضال، مخالف لما عليه أئمَّة الهدىٰ ومشايخ الدين. ومثل شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب لا يُكفر أحدًا بهذا الجنس ولا من هذا النوع. وإنَّما يكفر من نطق بتكفيره الكتاب العزيز، وجاءت به السنَّة الصحيحة، وأجمعت علىٰ تكفيره الأمة؛ كمن بدَّل دينه، وفَعَل فعل الجاهلية الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين، ويدعونهم مع الله».

علىٰ كل حال جهل الجاهلين بشرك دعاء غير الله أو الدعاء بالمخلوق لا ينفي حكمه، والأحكام تتلقَّىٰ من الكتاب والسنَّة بفهم السلف، وما جدال المبطلين بما أجمعت عليه الأمة من الأحكام إلا من اتباع غير سبيل المؤمنين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «معلوم أن الشرك بالله وعبادة ما سواه أعظم الذنوب، والدعاء إليه والأمر به من أعظم الخطايا، ومعاداة من ينهىٰ عنه ويأمر بالتوحيد وطاعة الرسول ﷺ أعظم من معاداة من هو دونه. ولولا بُعْدُ عهد الناس بأول الإسلام وحال المهاجرين والأنصار، ونقص العلم وظهور الجهل، واشتباه الأمر علىٰ كثير من الناس؛ لكان هؤلاء المشركون والآمرون بالشرك مما يظهر كفرهم وضلالهم للخاصَّة والعامة، أعظم مما يظهر من ضلال الخوارج والرافضة».

---

(١) منهاج التأسيس (ص٩٨).

(٢) الإخنائية (ص١٤٤).

وقد قام أئمَّة الدَّعوة وولاة المسلمين الذين يُجاهد بهم لتحقيق التَّوحيد وإزالة مشاهد الشِّرك بالنَّصيحة للدِّين وللمسلمين؛ ليكون الدِّين لله، فقد قام الإمام محمَّد بن سعود وذريَّته من بعده في ذلك بما كان سببًا في اضمحلال الشِّرك وزواله، وقد أخذوا من سنَّة النَّبيِّ ﷺ وعمل الصَّحابة في ذلك ما كان سببًا في ظهور الحقِّ واستنقاذ المسلمين وديارهم من الشِّرك.

ومكَّة التي هي صفوة أرض الله قام فيها الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمَّد بن سعود - رحمهم الله جميعًا - بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد وإزالة أنواع الشِّرك، وخاطب الإمام سعود النَّاس مبيِّنًا اتِّباعه لهدي النَّبي ﷺ في ذلك؛ حيث ذكر نقلًا عن ابن القيم في فوائد غزوة الطَّائف في هدم اللَّات: «أنَّه لا يجوز إبقاء مواضع الشِّرك والطَّواغيت بعد القدرة علىٰ هدمها وإبطالها يومًا واحدًا»(١).

وذكر الإمام سعود بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كان في الحجاز من مشاهد وأبنية الشِّرك، وقد قام علماء مكَّة بمباركة جهاد الإمام سعود، والثَّناء علىٰ دعوة شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تجديد التَّوحيد.

قال علماء مكَّة: نشهد نحن علماء مكَّة أنَّ هذا الدِّين الذي قام به الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، ودعا إليه إمام المسلمين سعود بن عبد العزيز من توحيد الله، ونفي الشِّرك؛ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه ولا ريب.

علماء مكَّة: عبد الملك القلعي، محمَّد صالح بن إبراهيم، محمَّد البناني، محمَّد بن أحمد المالكي، محمَّد بن يحيىٰ، عبد الحفيظ العجيمي، زين

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١/ ٢٩٩).

العابدين جمل اللَّيل، عليُّ بن محمَّد البيتي، عبد الرَّحمن جمال، بشر بن هاشم[١].

وأما عن معاملتهم للنَّاس بمكَّة، فإنَّهم دخلوا متأدبين بأخلاق الإسلام التي أمر بها الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ في الجهاد؛ فلم يريقوا الدِّماء، وأعطوا الأمن والأمان لأشراف مكَّة وعلمائها وعامَّتها، ودعوا النَّاس لتوحيد الله ونبذ الشِّرك، وأعلمهم الإمام سعود بأنه منقاد للحق الذي يدلُّ عليه الكتاب والسنة لو نصحه فيه علماء وعامة أهل مكة[٢]. وقبل النَّاس بمكة دعوة التَّوحيد والنَّصيحة الخالصة لله التي أدَّاها إليهم الإمام سعود وأئمَّة الدَّعوة برفق.

قال الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله تعالىٰ[٣] -:

«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد الأمين، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين، وبعد:

فإنا معاشر غزو الموحدين، لما منَّ الله علينا - وله الحمد - بدخول مكة المشرفة نصف النهار، يوم السبت، في ثامن شهر محرم الحرام، سنة ١٢١٨ هـ، بعد أن طلب أشراف مكة، وعلماؤها وكافة العامة من أمير الغزو «سعود» الأمان؛ وقد كانوا تواطؤوا مع أمراء الحجيج، وأمير مكة علىٰ قتاله، أو الإقامة في الحرم؛ ليصدوه عن البيت، فلما زحفت أجناد الموحدين؛ ألقىٰ الله الرعب في قلوبهم، فتفرقوا شذر مذر، كل واحد يعد الإياب غنيمة، وبذل الأمير حينئذ

---

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١/ ٣١٤، ٣١٥).

(٢) من أعظم خصال الخير أن يُوطِّن المسلم نفسه علىٰ قبول الحقّ.

(٣) الدُّرر السنيَّة (١/ ٢٢٢-٢٢٥)

الأمان لمن بالحرم الشريف، ودخلنا وشعارنا التلبية، آمنين محلقين رؤوسنا ومقصرين، غير خائفين من أحد من المخلوقين، بل من مالك يوم الدين.

ومن حين دخل الجند الحرم، وهم علىٰ كثرتهم مضبوطون، متأدبون، لم يعضدوا به شجرًا، ولم ينفروا صيدًا، ولم يريقوا دمًا إلا دم الهدي، أو ما أحلَّ الله من بهيمة الأنعام علىٰ الوجه المشروع.

ولما تمت عمرتنا؛ جمعنا الناس ضحوة الأحد، وعرض الأمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ العلماء ما نطلب من الناس ونقاتلهم عليه؛ وهو إخلاص التوحيد لله تعالىٰ وحده؛ وعرَّفهم أنه لم يكن بيننا وبينهم خلاف له وقع، إلا في أمرين، **أحدهما**: إخلاص التوحيد لله تعالىٰ، ومعرفة أنواع العبادة، وأن الدعاء من جملتها، وتحقيق معنىٰ الشرك الذي قاتل الناس عليه نبينا محمد ﷺ، واستمر دعاؤه برهة من الزمان بعد النبوة إلىٰ ذلك التوحيد، وترك الإشراك، قبل أن تفرض عليه أركان الإسلام الأربعة. **والثاني**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي لم يبق عندهم إلا اسمه، وانمحىٰ أثره ورسمه.

فوافقونا علىٰ استحسان ما نحن عليه جملة وتفصيلًا، وبايعوا الأمير علىٰ الكتاب والسنَّة، وقبل منهم، وعفا عنهم كافة، فلم يحصل علىٰ أحد منهم أدنىٰ مشقة، ولم يزل يرفق بهم غاية الرفق، لا سيما العلماء؛ ونقرر لهم حال اجتماعهم وحال انفرادهم لدينا: أدلة ما نحن عليه، ونطلب منهم المناصحة، والمذاكرة، وبيان الحق.

وعرفناهم: بأن صرح لهم الأمير حال اجتماعهم، بأنا قابلون ما وضحوا

برهانه، من كتاب أو سنَّة أو أثر عن السلف الصالح، كالخلفاء الراشدين، المأمورين باتباعهم، بقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**»، أو عن الأئمة الأربعة المجتهدين، ومن تلقىٰ العلم عنهم، إلىٰ آخر القرن الثالث؛ لقوله ﷺ: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم** ».

وعرفناهم: أنا دايرون مع الحق أينما دار، وتابعون للدليل الجلي الواضح، ولا نبالي حينئذ بمخالفة ما سلف عليه من قبلنا. فلم ينقموا علينا أمرًا، فألحينا عليهم في مسألة طلب الحاجات من الأموات، إن بقي لديهم شبهة؟ فذكر بعضهم شبهة، أو شبهتين؛ فرددناها بالدلايل القاطعة، من الكتاب والسنَّة، حتىٰ أذعنوا، ولم يبق عند أحد منهم شك ولا ارتياب فيما قاتلنا الناس عليه، وأنه الحقُّ الجلي، الذي لا غبار عليه.

وحلفوا لنا الأيمان المغلظة، من دون استحلاف لهم، علىٰ انشراح صدورهم، وجزم ضمائرهم: أنه لم يبقَ لديهم شكٌّ في أنَّ من قال: يا رسول الله، أو يا بن عباس، أو يا عبد القادر. أو غيرهم من المخلوقين، طالبًا بذلك دفع شرٍّ، أو جلب خير، من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ؛ من شفاء المريض، والنصر علىٰ العدو، والحفظ من المكروه، ونحو ذلك: أنه مشرك شركًا أكبر يهدر دمه، ويبيح ماله. وإن كان يعتقد أن الفاعل المؤثر في تصريف الكون، هو الله تعالىٰ وحده، لكنه قصد المخلوقين بالدعاء، متشفعًا بهم، ومتقربًا بهم، لتقضىٰ حاجته من الله، بسرهم، وشفاعتهم له فيها، أيام البرزخ.

وأنَّ ما وُضع من البناء علىٰ قبور الصالحين؛ صارت في هذه الأزمان أصنامًا

تُقصد لطلب الحاجات، ويتضرع عندها، ويُهتف بأهلها في الشدائد، كما كانت تفعله الجاهلية الأولىٰ، وكان من جملتهم: مفتي الحنفية الشيخ عبد الملك القلعي، وحسين المغربي مفتي المالكية، وعقيل بن يحيىٰ العلوي؛ فبعد ذلك: أزلنا جميع ما كان يُعبد، بالتعظيم والاعتقاد فيه، ويرجىٰ النفع والضُّر بسببه، من جميع البناء علىٰ القبور، وغيرها، حتىٰ لم يبقَ في تلك البقعة المطهرة طاغوت يُعبد، فالحمد لله علىٰ ذلك.

ثم رفعت: المكوس، والرسوم، وكُسرت آلات التنباك، ونودي بتحريمه، وأُحرقت أماكن الحشاشين، والمشهورين بالفجور، ونودي بالمواظبة علىٰ الصلوات في الجماعات، وعدم التفرق في ذلك؛ بأن يجتمعوا في كل صلاة علىٰ إمام واحد، ويكون ذلك الإمام من أحد المقلدين للأربعة، رضوان الله عليهم؛ واجتمعت الكلمة حينئذ، وعُبد الله وحده، وحصلت الألفة، وسقطت الكلفة، وأُمر عليهم، واستتب الأمر من دون سفك دم، ولا هتك عرض، ولا مشقة علىٰ أحد، والحمد لله رب العالمين».

❁ ❁ ❁

التقليد للآباء والإجماع المكذوب

من أعظم شبهات المشركين في الإصرار علىٰ الشرك ومضادة التوحيد وردِّه وعدم الانقياد له؛ الاحتجاجُ بالآباء، فقد جعلوا ملَّة آبائهم واجبة الاتباع، وأصروا عليها واستكبروا عن التوحيد والحقِّ؛ انقيادًا لحمية الجاهلية، ونفورًا من مخالفة الآباء ولو كانوا غير مهتدين.

وهذه الضلالة والشُّبهة يصوغها بعض الأئمة المضلين كداود بن جرجيس بأسلوب آخر، فيقول: نحن موافقون للإجماع وأنتم مخالفون له، أتيتم بدين جديد. وهذا من ميراث حجج فرعون أكفر الخلق في محاجته لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ حيث قال له: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسألة السادسة من مسائل الجاهلية[1]: «الاحتجاج بالمتقدمين كقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]».

ورد الحق والتوحيد احتجاجًا بتقليد الآباء هو من ميراث شبهات المكذبين الكافرين بالرسل، والمشركون من بعدهم علىٰ آثارهم يُهرعون، قالت قوم عاد لرسولها هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا

(١) مسائل الجاهلية (ص١٣٥).

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

وحاجَّهم رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - بأنَّ الواجب اتباعه هو الحقُّ، وهو نور الوحي الذي بعث الله به رسله للدعوة إلىٰ توحيد الله وحده لا شريك له.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والذي منع بعض كفار قريش من قبول دعوة التوحيد مع علمهم بأنَّه الحقُّ؛ هو حميَّة الجاهلية، وما يستلزمه ذلك من تكفير المشركين من قومهم، أمَّا رسول الله ﷺ فقد أخلص توحيده لله، وعدل في حقِّ الله وخلقه، وقال عن عمه أبي طالب: «هو علىٰ ملة عبد المطلب».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هَذَا هُوَ الَّذِي منع أبا طَالب وأمثاله عَن الإسلام، استعظموا آبَاءَهُم وأجدادهم أن يشْهدُوا عَلَيْهِم بالْكُفْر والضلال، وأن يختاروا خلاف مَا اخْتَار أولئك لأنفسهم، وَرَأَوا أَنَّهم إن أسلموا سفَّهوا أحلام أولئك وضلَّلوا عُقُولهمْ، ورموهم بأقبح القبائح وَهُوَ الْكفْر والشرك؛ وَلِهَذَا قَالَ أعداء الله لأبي طَالب عِنْد الْمَوْت: أترغب عَن مِلَّة عبد الْمطلب؟! فَكَانَ آخر مَا كَلَّمهمْ بِهِ: «هُوَ علىٰ مِلَّة عبد الْمطلب»[2]، فَلم يَدْعُه أعداء الله إلَّا من هَذَا

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٨).

(٢) رواه مسلم.

الْبَاب؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبد الْمطلب، وأنَّه إنَّما حَازَ الْفَخر والشَّرف بِهِ، فَكيف يَأْتِي أمرًا يلْزم مِنْهُ غَايَة تنقيصه وذمه، وَلِهَذَا قَالَ: «لَوْلَا أن تكون سُبَّة علىٰ بني عبد الْمطلب لَأقررتُ بِهَا عَيْنك»».

وأما دعوىٰ داود بن جرجيس أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد وفاته مجمع عليه؛ فهذا إجماع مكذوب لا يُستغرب ممن كذب علىٰ الله بالشرك فأفك دعوىٰ الإجماع علىٰ ذلك.

وكل مسلم يعلم أنَّ الإجماع مستنده الوحي: القرآن والسنَّة، ومن ادَّعىٰ الإجماع علىٰ مخالفة القرآن؛ فقد كذَّب بالقرآن، وضلَّ عن فهمه، وأفك في إجماعه الكاذب.

قال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أما ما يزعمه هذا العراقي - داود بن جرجيس - من أنَّ طلب الشفاعة من النبيِّ ﷺ بعد وفاته مجمع عليه.

فالجواب أن نقول: الله أكبر! ما أعظمها من فرية علىٰ الله، وعلىٰ كتابه، وعلىٰ رسوله ﷺ، وعلىٰ السَّلف، وأئمَّة الدين، فانظر إلىٰ هذه الجرأة العظيمة؛ جعل ما أجمع عليه: الرسل، والكتب، والسلف، والمسلمون من تحريم دعوة غير الله والنهي عنها، واتخاذ الشفعاء؛ جعل ذلك المحرَّم الذي هو دين أهل الجاهلية مجمعًا عليه، ووضع الشرك موضع التوحيد، والباطل موضع الحقِّ، نعوذ بالله من زيغ القلوب، ومسخ العقول، فإن هذا لا يقوله إلا من زاغ قلبه، ومُسخ عقله.

كيف ينسب الأمَّة إلىٰ الإجماع علىٰ ما نفاه الكتاب والسنَّة، من الشِّرك

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص١٥٤).

الذي هو دين المشركين؟! وقد أخبر الله عنهم بأنهم اتخذوا الشفعاء في مواضع من كتابه، وأنكر ذلك عليهم غاية الإنكار، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] الآية».

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبطلًا إفك داود بن جرجيس في إجماعه المكذوب(١): «الإجماع إنَّما هو علىٰ ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، ويأمر به من دينه، والنهي عمَّا نهىٰ عنه من دين المشركين من أهل الجاهلية، ومن قبلهم من مشركي العرب، كما ورد عن مشركي قوم نوح أنهم قالوا: ما عظَّم أوَّلُنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله.

وقد أبلغ تعالىٰ في كتابه في البيان بقوله في حقِّ نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١- ٢٣]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] الآية.

فيقال لمدعي الإجماع: صحح لنا القول بجوازه عن واحد من سلف الأمة وأئمتها، ومن المحال أن يجد ذلك، والقرآن ينادي بالنهي عنه، وتكفير من فعله وظلمه وضلاله».

❁ ❁ ❁

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص١٥٦).

دفع الشرك بالتوحيد

ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد حديث ذات أنواط؛ أن الانتهاء عن إرادة الشرك توبة، فقال[١]: «تُفِيدُ - أَيْضًا -: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامِ كُفْرٍ، وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَنُبِّهَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ؛ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَالَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ.

وَتُفِيدُ - أَيْضًا -: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُكَفَّرْ؛ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

ودفع الشِّرك والبدع والذنوب بالتوحيد والسنَّة والطاعات؛ هو حفظ للتوحيد وتنمية له، وإزالة للأخلاط المفسدة للتوحيد والدين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إِنَّ الْبَدَنَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا إِلَّا بِغِذَاءٍ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِفْرَاغٍ يَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيئَةَ، الَّتِي مَتَىٰ غَلَبَتْ عليه أَفْسَدَتْهُ، وَحِمْيَةٍ يَمْتَنِعُ بِهَا مِنْ تَنَاوُلِ مَا يُؤْذِيهِ وَيَخْشَىٰ ضَرَرَهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ إِلَّا بِغِذَاءٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِفْرَاغٍ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، يَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيئَةَ مِنْهُ، وَحِمْيَةٍ تُوجِبُ

---

(١) كشف الشبهات (ص٤٩، ٥٠).

(٢) الجواب الكافي (ص٢٥٧).

لَهُ حِفْظَ الصِّحَّةِ وَتَجَنُّبَ مَا يُضَادُّهَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ اسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُّ الصِّحَّةَ.

وَالتَّقْوَىٰ: اسْمٌ مُتَنَاوِلٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَمَا فَاتَ مِنْهَا فَاتَ مِنَ التَّقْوَىٰ بِقَدْرِهِ».

والذنوب التي عفوها إلىٰ مشيئة الله هي ما دون الشرك، لمن لم يتب منها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، والذنوب التي يغفرها الله بالتوبة تعمُّ كل ذنب صغير وكبير، الشرك وما دونه، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وردَّ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ من غلط في فهم هذا المعنىٰ، وقال[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فَإِنَّ الشِّرْكَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ الذُّنُوبِ وَأَسَاسُهَا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي حَقِّ التَّائِبِينَ؛ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ لِلتَّائِبِ أَيَّ ذَنْبٍ كَانَ، وَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ فِي حَقِّ غَيْرِ التَّائِبِينَ لَبَطَلَتْ نُصُوصُ الْوَعِيدِ كُلُّهَا، وَأَحَادِيثُ إِخْرَاجِ قَوْمٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ.

وَهَذَا إِنَّمَا أُتِيَ صَاحِبُهُ مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هَاهُنَا عَمَّمَ وَأَطْلَقَ، **فَعُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ التَّائِبِينَ، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ خَصَّصَ وَقَيَّدَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾** [النساء: ٤٨]، **فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ**».

والتوبة من الشرك تكون بالانتهاء عنه وإقامة التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) الجواب الكافي (ص٤٠، ٤١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الانتهاء عن الذنب هو التوبة منه، من انتهىٰ عن ذنب غُفر له ما سلف منه».

ولابُدَّ مع الانتهاء من الشرك من إقامة التوحيد الذي يُذهب أثر الشرك ويمحوه، قال النبي ﷺ: «**من حلف باللات والعزىٰ فليقل: لا إله إلا الله**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهكذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يدفعون الشرك بالتوحيد، فابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ روىٰ قول النبي ﷺ: «**الطيرة شرك**»، ثم قال هو بعد ذلك: «وما منَّا إلَّا... ولكنَّ الله يُذْهِبُهُ بالتوكُّل»، رواه أبو داود والترمذي.

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سألوا النبيَّ ﷺ عن كفَّارة الطيرة، وقد كان الناس في الجاهلية يتطيرون؛ عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من ردَّتْه الطيرة عن حاجته فقد أشرك**»، قالوا: فما كفَّارةُ ذلك؟ قال: «**أن تقولوا: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرُك، ولا إله غيْرُك**»، رواه أحمد.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الذين يؤمنون بالرسول ﷺ إذا تبيَّن لأحدهم حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ، وتبين أنَّه مشرك؛ فإنَّه يتوب إلىٰ الله، ويجدِّد إسلامه، فيُسلم إسلامًا يتوب فيه من هذا الشرك».

والحسنات الماحية تدفع يسير الشرك الأصغر، أما الشرك الأكبر فلا بُدَّ له من توبة.

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (٣/ ٢٧٥).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشِّرك والنفاق (ص٧٠).

وما أحسن أن يصبح ويمسي المسلم علىٰ التوبة، وأن يستعيذ بالله من الشرك الذي يعلمه والذي لا يعلمه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الشرك نوعان: أكبر وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنَّة، ومن مات علىٰ الشرك الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة علىٰ ذنوبه؛ دخل الجنة، فإنَّ تلك الحسنات هي توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الشرك الأكبر ولكن كبر شركه الأصغر حتىٰ رجحت به سيئاته؛ دخل النار.

فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر، أو كان كثيرًا أصغر، فالأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به، والخلاص من الأكبر ومن أكثر الأصغر الذي يجعل السيئات راجحة علىٰ الحسنات؛ فصاحبه ناجٍ، ومن نجا من الشِّرك الأكبر الذي لا يغفره الله، ورجحت حسناته علىٰ سيئاته دخل الجنَّة».

وعلىٰ المسلم دائمًا تعاهد توحيده ودينه وإيمانه بالحفظ والتجديد والزيادة والصقل، والتنقية من أخلاط الشرك والمعاصي وأدرانه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]:«التوحيد ألطفُ شيء وأنزهه، وأنظفه وأصفاه، فأدنىٰ شيء يخدشه ويدنِّسه ويُؤثر فيه؛ فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنىٰ أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا أدنىٰ شيء يُؤثر فيها، ولهذا تشوِّشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفيَّة، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلَّا استحكم وصار

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (٣/ ١٢٥، ١٢٦).

(٢) الفوائد (ص٢٨٢، ٢٨٣).

طبعًا يتعسَّر عليه قلعُهُ.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه؛ منها ما يكون سريعَ الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال.

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا، يَنْغَمِرُ فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه، بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنىٰ نجاسة أو وسخ، فيغتَرُّ به صاحب التوحيد الذي هو دونه؛ فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده؛ فيظهر من تأثيره ما لم يظهر في التوحيد الكثير.

وأيضًا فإنَّ المحل الصافي جدًّا يظهر لصاحبه مما يُدنِّسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه، فيتداركه بالإزالة دون هذا، فإنَّه لا يشعر به. وأيضًا فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قويةً جدًّا أحالت المواد الرديئة وقهرتها، بخلاف القوة الضعيفة. وأيضًا فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات يُسامح بما لا يسامح به من أتىٰ مثل تلك السيئات وليست له تلك المحاسن».

والقلب ترد عليه واردات وخواطر تضاد التوحيد، فهذه الواردات إذا انتهىٰ عنها المسلم، واستعاذ بالله من شرِّها؛ لم تكن ذنبًا ولم تضرَّه، قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به نفسها ما لم تتكلم أو تعمل**»، رواه البخاريُّ.

والقلب هو حصن المسلم، فهو الأساس والأصل لعلم التوحيد واعتقاده المستلزم لعمل الجوارح، فيجب علىٰ المسلم في كل وقت صقله بالعلم النافع والعمل الصالح، وحمايته من واردات السوء وخواطر الضلال التي تُضعف

القلب أو تفسده، وذلك يكون بجمعية القلب علىٰ الله والإقبال عليه، وأن تكون خواطر الموحِّد وإراداته وأفكاره في عبوديَّة الله وما يرضيه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قَدْ ضَمِنَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا أَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً؛ فَهُوَ صَادِقُ الْوَعْدِ، الَّذِي لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ. وَأَيُّ حَيَاةٍ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ مَنِ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّهَا وَصَارَتْ هَمًّا وَاحِدًا فِي مَرْضَاةِ اللهِ؟ وَلَمَّ شَعَثَ قَلْبِهِ بالْإِقبالِ عَلَىٰ اللهِ، وَاجْتَمَعَتْ إِرَادَاتُهُ وَأَفْكَارُهُ الَّتِي كَانَتْ مُنْقَسِمَةً - بِكُلِّ وَادٍ مِنْهَا شُعْبَةٌ - عَلَىٰ اللهِ؛ فَصَارَ ذِكْرُ مَحْبُوبِهِ الْأَعْلَىٰ، وَحُبُّهُ، وَالشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالْأُنْسُ بِقُرْبِهِ هُوَ الْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ تَدُورُ هُمُومُهُ وَإِرَادَاتُهُ وَقُصُودُهُ بَلْ خَطَرَاتُ قَلْبِهِ؛ فَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِاللهِ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِاللهِ، وَإِنْ سَمِعَ فَبِهِ يَسْمَعُ، وَإِنْ أَبْصَرَ فَبِهِ يُبْصِرُ، وَبِهِ يَبْطِشُ، وَبِهِ يَمْشِي، وَبِهِ يَتَحَرَّكُ، وَبِهِ يَسْكُنُ، وَبِهِ يَحْيَا، وَبِهِ يَمُوتُ، وَبِهِ يُبْعَثُ».

والقلب حياته بذكر الله، وجمعيته علىٰ الله، وتجريد نياته وإراداته لله وحده في طاعته، وتعاهده بذكر الله هو حياته، وهو من أسباب حفظه، فإنه متىٰ غفل المسلم بادرت الوساوس والخطرات إلىٰ قلبه لإفساد دينه أو إضعافه.

فالقلب هو حياة الجوارح والبدن، متىٰ كان مشرقًا بنور الوحي مهتديًا به، عامرًا بذكر الله؛ كان حنيفًا مقبلًا علىٰ الله في مراضيه ملتفتًا عما سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

والتوحيد يَدفع الذنوبَ والمعاصي والبدع والضلال، ويكفِّر سيِّئاتها لمن

(١) الجواب الكافي (ص٤٢٩، ٤٣٠).

جرَّد توحيده بإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة لرسوله ﷺ.

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ التوحيد يُكفِّر السيِّئات: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم! إنَّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقُرابها مغفرة**»، رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فهذا التوحيد هو الذي يزيل آثار ما سلف من الذنوب، إذا أورث من تحقق به تجريد القلب إلا مما يرضي الله، واجتناب ما يسخطه، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من تحقَّق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كلَّ ما سوىٰ الله محبةً وتعظيمًا وإجلالًا ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً وتوكُّلًا، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلها، ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، كما سبق ذكره في تبديل السيِّئات حسنات؛ فإنَّ هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وُضع منه ذرَّة علىٰ جبال الذنوب والخطايا، لقلبها حسنات».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا مفهوم الحديث[2]: «لا يدل علىٰ أنَّ ما عدا الشرك كله صغائر، بَلْ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا فَذُنُوبُهُ مَغْفُورَةٌ كَائِنَةً مَا كَانَتْ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ ارْتِبَاطُ إِيمَانِ الْقُلُوبِ بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَتَعَلُّقُهَا بِهَا، وَإِلَّا لَمْ يُفْهَمْ مُرَادُ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَقَعُ الْخَلْطُ وَالتَّخْبِيطُ».

وقال ابن القيِّم أيضًا موضِّحًا[3]: «اعلم أنَّ هذا النفي العام للشِّرك - أن لا

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١٧).

(٢، ٣) مدارج السالكين (١/ ٢٦٧).

يُشرك بالله شيئًا الْبَتَّةَ - لَا يَصْدُرُ مِنْ مُصِرٍّ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ أَبَدًا، وَلَا يُمْكِنُ مُدْمِنُ الْكَبِيرَةِ وَالْمُصِرُّ عَلَىٰ الصَّغِيرَةِ أَنْ يَصْفُوَ لَهُ التَّوْحِيدُ، حَتَّىٰ لَا يُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالِ».

وختم ابن القيِّم توضيحه قائلًا[1]: «الْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، مُصِرًّا عَلَيْهَا، غَيْرَ تَائِبٍ مِنْهَا، مَعَ كَمَالِ تَوْحِيدِهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الْحُبِّ وَالْخُضُوعِ، وَالذُّلِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ لِلرَّبِّ تَعَالَىٰ».

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٦٨).

حديث أسامة لا يبطل نواقض الإسلام

من أعظم شبهات المشركين الذين قصدوا تبرير شركهم؛ استدلالهم بإنكار النبيِّ ﷺ علىٰ أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قتله المشرك بعد إعلانه الإسلام وجهره بالشهادة بالتوحيد، فصار هؤلاء يعتقدون أو يظنُّون أنهم ما داموا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ، ويصلُّون ويصومون؛ فهم مسلمون، ولو أتوا بالشرك.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَىٰ: يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَىٰ أُسَامَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَتْلَ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وَقَالَ لَهُ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**»، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وَأَحَادِيثُ أُخْرَىٰ فِي الْكَفِّ عَمَّنْ قَالَهَا، وَمُرَادُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا لَا يَكْفُرُ، وَلَا يُقْتَلُ وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ».

وهذا الاستدلال من عبَّاد القبور الضُّلَّال جهل وجهالة، ووضع للأدلَّة في غير مواضعها، فالكافر إذا أعلن وشهد بكلمة التوحيد وجب الكف عنه سواء كان في حال السلم أو حال الحرب، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر بجهاد الكافر حتىٰ يسلم،

(١) كشف الشبهات (ص٩٨).

فإذا أسلم وجب الكفُّ عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال النبيُّ ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله**»، فكان واجب أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الكفَّ عن الكافر الذي أعلن إسلامه، واعتذر أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأنَّ دلالة حال الكافر وهي إعلانه بالشهادة خشية السيف هي التي منعته من الكفِّ عن قتله، ولم يذكر أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قرينةً قوية تدلُّ علىٰ حال الكافر، فردَّهُ النبيُّ ﷺ إلىٰ الأصل، وهو أنَّ الكافر إذا أعلن الإسلام وجب الكفُّ عنه ومعاملته بالظاهر.

وإذا ارتاب مسلم في كافر أعلن إسلامه لا يبادر إلىٰ الحكم عليه ببقائه علىٰ الكفر، حتىٰ يظهر له ما يدلُّ علىٰ ذلك.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَىٰ الْإِسْلَامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ مَا ادَّعَىٰ الْإِسْلَامَ إِلَّا خَوْفًا عَلَىٰ دَمِهِ وَمَالِهِ، وَالرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]. أَيْ: فَتَثَبَّتُوا.

فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ الْكَفُّ عَنْهُ وَالتَّثَبُّتُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ قُتِلَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وَلَوْ كَانَ لَا يُقْتَلُ إِذَا قَالَهَا لَمْ يَكُنْ لِلتَّثَبُّتِ مَعْنًىٰ.

وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الْآخَرُ وَأَمْثَالُهُ، مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْنَاهُ: أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ

---

(١) كشف الشبهات (ص٥٢-٥٤).

وَالْإِسْلَامَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**». وَقَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**».

هُوَ الَّذِي قَالَ فِي الْخَوَارِجِ: «**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»، مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً وَتَهْلِيلًا وَتَسْبِيحًا، حَتَّىٰ إِنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ صَلَاتَهُمْ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَلَا كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ، وَلَا ادِّعَاءُ الإِسْلَامِ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ».

وقاعدة الشَّريعة في معاملة من أظهر الإسلام معاملته بموجب هذا الظَّاهر إذا لم يأت بنواقضه.

قال شيخُنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن أحكام الدنيا تجري علىٰ الظاهر، فنحن نكفِّر من أظهر الكفر وإن كان مؤمنًا بقلبه، ونسكت عمن أظهر الإسلام، ولو كان كافرًا بقلبه؛ لأنَّ هذه أحكام الدنيا الَّتي أوجبها الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ أننا لا نعلم ما في قلوب الناس، ومن ثمَّ أنكر النبيُّ ﷺ علىٰ أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث قتل المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله. واحتجَّ أسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بأنَّه قالها تعوُّذًا؛ أي: خوفًا من القتل، لا عن يقين، فقال له النبيُّ ﷺ: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله، أفلا شققت عن قلبه؟!**»، فأمور الدنيا علىٰ الظاهر لا علىٰ الباطن».

وقال العلَّامة المجدِّد المحدِّث محمَّد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا

---

(١) تفسير سورة الأنعام (ص١٧٥).

(٢) التوحيد أوَّلًا (ص١٥، ١٦).

قال المسلم: «لا إله إلا الله»، وعبد مع الله غيره؛ فهو والمشركون سواء - عقيدة -، وإن كان ظاهره الإسلام؛ لأنه يقول لفظة: «لا إله إلا الله»، فهو بهذه العبارة مسلم لفظيًّا ظاهرًا، وهذا مما يوجب علينا جميعًا - بصفتنا دعاة إلىٰ الإسلام - الدعوة إلىٰ التوحيد، وإقامة الحجة علىٰ من جهل معنىٰ «لا إله إلا الله»، وهو واقع في خلافها؛ بخلاف المشرك؛ لأنه يأبىٰ أن يقول: «لا إله إلا الله»؛ فهو ليس مسلمًا لا ظاهرًا ولا باطنًا».

وقال العلامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ينكرون علىٰ الشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب: لماذا تكفِّرنا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، ونصلي ونصوم، وتحتج علينا بالآيات التي نزلت في كفَّار قريش، وكفَّار قريش يعبدون الأصنام ولا يشهدون أن لا إله إلا الله، ولا يشهدون أنَّ محمَّدًا رسول الله، وكذَّبوه وقاتلوه، ما نحن مثلهم؟!

فالمؤلف بيَّن كما تقدم بالحجج الكثيرة التي تبيِّن كفرهم، وإن قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، كما أنَّ المنافقين يشهدون أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، ويصلون ويصومون، ومع هذا هم أكفر الناس في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم قالوا بالألسنة ما ليس في القلوب.

هم يقولون: نشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وهم في الباطن يكذِّبون ذلك، وهكذا كفَّر المسلمون اليهود وهم يقولون: لا إله إلا الله، وكذلك الذي قالها من المشركين الذين عبدوا عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أو استغاثوا بعليٍّ

(١) شرح كشف الشبهات (ص١٠٢، ١٠٣).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهم عبَّاد الشمس والقمر ونحو ذلك، لأنهم جعلوا آلهة مع الله، وإن صلُّوا وصاموا».

وقال سماحته مبيِّنًا حكم من أشرك بالله وإن صلىٰ وصام[1]: «إنَّه متىٰ أتىٰ بمكفِّر ناقض من نواقض الإسلام كفر؛ بطلت أعماله كلها؛ صلاته وصومه وحجّه، كلها تبطل؛ ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، هذا محل إجماع بين المسلمين، ولكنَّ أهل الشرك لا يفقهون، فعُبَّاد القبور وعبَّاد الأولياء في عَمًىٰ وفي ضلال، نسأل الله العافية.

هذه أشياء بيَّنها الشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُٱللَّهُ في زمانه للذين اعترضوا عليه، وقالوا: ابن عبد الوهَّاب يكفِّر المسلمين، وأنَّه جاء بدين جديد.

هذا لجهلهم وضلالهم وقلة بصيرتهم، ما أتىٰ بدين، إنَّما أتىٰ بما قاله الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وبما سار عليه الصحابة والمسلمون، رَحِمَهُٱللَّهُ وجزاه الله خيرًا».

❁ ❁ ❁

---

(١) شرح كشف الشبهات (ص١٠٥).

الاستغاثة المشروعة والممنوعة

ومن شبهات المشركين بالله التي كشف عنها الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأبطلها؛ تسويتهم بين الاستغاثة المشروعة والممنوعة.

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَىٰ: وَهِيَ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بِنُوحٍ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَىٰ، ثُمَّ بِعِيسَىٰ، فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُونَ، حَتَىٰ يَنْتَهُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالُوا: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الِاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللهِ لَيْسَتْ شِرْكًا.

وَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِ أَعْدَائِهِ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغَاثَةَ بِالْمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا نُنْكِرُهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

وَكَمَا يَسْتَغِيثُ الْإِنْسَانُ بِأَصْحَابِهِ فِي الْحَرْبِ أَوْ غَيْرِهِ فِي أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْمَخْلُوقُ، وَنَحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا عِنْدَ قُبُورِ الْأَوْلِيَاءِ، أَوْ فِي غَيْبَتِهِمْ، فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ.

إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ؛ فَاسْتِغَاثَتُهُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا اللهَ أَنْ

---

(١) كشف الشبهات (ص٥٤-٥٧).

يُحَاسِبَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ.

وَهَذَا جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْتِيَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ حَيٍّ يُجَالِسُكَ، وَيَسْمَعُ كَلَامَكَ، فَتَقُولَ لَهُ: ادْعُ اللهَ لِي، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ.

وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَىٰ مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللهِ عِنْدَ قَبْرِهِ؛ فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ نَفْسِهِ؟.

ولهم شبهة أخرىٰ: وهي قصَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أُلْقِي في النَّار، اعترض له جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الهواء، فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أمَّا إليك فلا.

فقالوا: فلو كانت الاستغاثة شركًا لم يعرضها جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فالجواب: أنَّ هذا من جنس الشبهة الأولىٰ، فإنَّ جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه».

الاستدلال بالاستغاثة المشروعة علىٰ الممنوعة؛ هو من لبس الحق بالباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

قال العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الاستغاثة الشِّركيَّة التي أنكرناها هي الاستغاثة: بالغائب، أو الميِّت، أو الحيّ الحاضر الذي لا يقدر.

وأمَّا الجائزة فهي طلب الحيّ الحاضر، وجنس سؤال النَّبي ﷺ موجود في

(١) شرح كشف الشبهات (ص١٤٩).

اليوم الآخر وإن كان قد انقطع العمل، موجود في النصوص أنَّ النَّبي ﷺ يشفع لمن أُذن له فيه. ففرق بين ما هو معلوم الجواز، وبين ما هو معلوم الحرمة والشِّرك».

ولم ينته تضليل المبطلين المشركين عند استعمال الألفاظ المجملة لترويج شرك الاستغاثة بالموتىٰ، بل زادوا عليه بالعدوان والاستطالة علىٰ الموحدين الناهين عن الشرك برميهم بالنهي عن زيارة القبور مطلقًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هؤلاء وأمثالهم كما وصف الله المشركين، وأشباههم؛ يجعلون قبر النبي ﷺ ترسًا، ويطلقون القول به مجملًا، ولا يختارون التفصيل بين الزيارة الشرعية، والبدعية؛ فإنه بالتفصيل يظهر ضلالهم، وشركهم، وكذبهم، فيظهرون ألفاظًا مجملةً، وينكرون التفصيل الفارق بين الزيارة الشرعية، والبدعية، ولكن يكذبون فيما يضيفونه إلىٰ الناهي عن الزيارة البدعية، فيضيفون إليه أنه منهي مطلقًا عن هذا الجنس، حتىٰ يروج بذلك تلبيسهم، وهذا من مشابهة أهل الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١]».

فعلماء أهل السنة لا ينهون عما شرع الله من زيارة القبور لتذكر الآخرة والدعاء للميت، وإنَّما ينهون عن الاستغاثة بالميت وسؤاله جلب النفع ودفع

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٤٥).

الضرِّ، أو الاستشفاع به إلىٰ الله في سؤال ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تستحبُّ زيارة أهل البقيع وأُحد وغيرهم من المؤمنين، فيُدعىٰ لهم، ويستغفر لهم، ولا يستحب أن تُقصد قبورهم لما تُقصد له المساجد من الصلاة والاعتكاف».

فلابُدَّ أن يعرف المسلمون ما يجوز وما لا يجوز من الاستغاثة،

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الاستغاثة المنفية نوعان: أحدهما: الاستغاثة بالميت مطلقًا في كلِّ شيء.

والثاني: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق.

فليس لأحد أن يسأل غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله لا نبيًّا ولا غيره، ولا يستغيث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق، وليس لأحد أن يسأل ميِّتًا، أو يستغيت به في شيء من الأشياء، سواء كان نبيًّا أو غيره».

وقياس طلب الاستغفار من الرسول ﷺ حال حياته علىٰ طلب ذلك بعد موته؛ قياس باطل؛ فالنبي ﷺ مات وليس له من ذلك شيء، والصحابة أنفسهم الذين كانوا يسألونه في حياته لم يفعلوا ذلك بعد موته.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «ومنهم من يتأوَّل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٦٠).

(٢) الرد علىٰ البكري (١/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) التوسل والوسيلة (ص٦٨).

لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤]، ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين؛ فإنَّ أحدًا منهم لم يطلب من النبيِّ ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئًا».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(١): «وكان أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يُبتلون بأنواع البلاء بعد موته، فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلىٰ قبر الرسول ﷺ ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول: نشكو إليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب، ولا يقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم».

وقال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الفرق بين سؤال النبي ﷺ والرجل الصالح في حياته، وبين سؤاله بعد موته وفي مغيبه؛ وذلك أنه في حياته لا يعبده أحد إذا كان في حضوره؛ فإن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - والصالحين لا يتركون أحدًا يتبرك بهم بحضورهم، بل ينهونهم عن ذلك، ويعاقبونهم عليه؛ ولهذا قال المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]. وقال النبي ﷺ لمن قال له: «ما شاء الله وشئت»: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»، وقال: «**لا تقولوا:**

---

(١) التوسل والوسيلة (ص٧١).

(٢) منهاج التأسيس (ص١٨٢، ١٨٣).

ما شاء الله وشاء محمَّد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمَّد». ولما قالت الجويرية: «وفينا رسول الله يعلم ما في غَدٍ». قال: «**دعي هذا، وقولي ما كنت تقولين**». وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم؛ فإنَّما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»، ولما صلوا خلفه قيامًا قال: «**لا تعظموني كما تعظِّم الأعاجم بعضها بعضًا**»، قال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهته لذلك». ولما سجد له معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نهاه، وقال: «**إنه لا يصلح السجود إلا لله تعالىٰ، ولو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها؛ من عظم حقه عليها**». ولما أتىٰ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالزنادقة الذين غلوا فيه واعتقدوا فيه الإلهية؛ أمر بتحريقهم بالنار.

فهذا شأن أنبياء الله تعالىٰ وأوليائه، وإنَّما يُقرُّ علىٰ الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علوًّا في الأرض وفسادًا؛ كفرعون ونحوه، ومشايخ الضلالة الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد، والفتنة بالأنبياء والصالحين، واتخاذهم أربابًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «فلما مات ﷺ لم يكن أصحابه يأتون قبره فيقولون: استغفر لنا. كما كانوا يأتونه في حياته، وكذلك لما أجدبوا لم يأتوا إلىٰ قبره فقالوا: ادع الله لنا. كما كانوا في حياته إذا أجدبوا أتوا إليه فقالوا: ادع الله لنا، بل كانوا هم يدعون الله، ويستسقون تارة بالعبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتارة بيزيد بن الأسود الجرشي، فيقولون له: ادع لنا، ويقولون: اللهم إنا نتوسل

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان أهل الشرك والنفاق (ص١١٤، ١١٥).

إليك به؛ أي بدعائه وشفاعته، وكثيرًا من الأوقات لا يستسقون الله بأحد، بل يدعون الله تعالىٰ.

وكذلك في الاستنصار، كانوا في حياته يقولون: يا رسول الله، ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا؟ وأمَّا بعد موته فلم يكونوا يفعلون ذلك، بل كانوا هم يدعون الله تعالىٰ، ويستنصرونه».

والسفر إلىٰ المدينة وشدُّ الرحال إليها تعبدًا؛ إنَّما هو لمسجد الرسول ﷺ لا لقبره.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المساجد الثلاثة لها فضل علىٰ ما سواها؛ فإنَّها بناها أنبياء، وَدَعَوُا النَّاسَ إِلَىٰ السَّفَرِ إِلَيْهَا؛ فَالْخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دَعَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دَعَا إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَنَبِيُّنَا ﷺ دَعَا إِلَىٰ الثَّلَاثَةِ: إِلَىٰ مَسْجِدِهِ، وَالْمَسْجِدَيْنِ، وَلَكِنْ جَعَلَ السَّفَرَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَرْضًا وَالْآخَرَيْنِ تَطَوُّعًا. وَإِبْرَاهِيمُ وَسُلَيْمَانُ لَمْ يُوجِبَا شَيْئًا، وَلَا أَوْجَبَ الْخَلِيلُ الْحَجَّ».

وحجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا هي من بيوت النبي ﷺ، وليست من المسجد الذي شُرع شدُّ الرحال إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قَدْ ذَكَرَ اللهُ «بُيُوتَ النَّبِيِّ» ﷺ فِي كِتَابِهِ، وَأَضَافَهَا تَارَةً إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَتَارَةً إِلَىٰ أَزْوَاجِهِ، وَلَيْسَ لِتِلْكَ الْبُيُوتِ حُرْمَةُ الْمَسْجِدِ وَفَضِيلَتُهُ وَفَضِيلَةُ الصَّلَاةِ فِيهِ، وَلَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَيْهَا».

وقال شيخ الإسلام[(٣)]: «الْفَرْقُ بَيْنَ الْبَيْتِ وَالْمَسْجِدِ مِمَّا يَعْرِفُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ؛

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٦٤).

(٢، ٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٥٩).

فَإِنَّ الْمَسْجِدَ يُعْتَكَفُ فِيهِ وَالْبَيْتَ لَا يُعْتَكَفُ فِيهِ، وَكَانَ إِذَا اعْتَكَفَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَلَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ، وَالْمَسْجِدُ لَا يَمْكُثُ فِيهِ جُنُبٌ وَلَا حَائِضٌ، وَبَيْتُهُ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْكُثُ فِيهِ وَهِيَ حَائِضٌ، وَكَذَلِكَ كُلُّ بَيْتٍ مَرْسُومٍ تَمْكُثُ فِيهِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ حَائِضٌ، وَكَانَتْ تُصِيبُهُ فِيهِ الْجَنَابَةُ فَيَمْكُثُ فِيهِ جُنُبًا حَتَّىٰ يَغْتَسِلَ».

ولفظ «الزيارة» مجمل، بالتبيين والتفصيل لأنواعه تتميَّز الزيارة الشرعية عن البدعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ لفظ (زيارة الْقَبْرِ) مُجْمَلٌ يَدْخُلُ فِيهَا الزِّيَارَةُ الْبِدْعِيَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ الشِّرْكِ؛ فَإِنَّ زِيَارَةَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ: زِيَارَةٌ شَرْعِيَّةٌ وَزِيَارَةٌ بِدْعِيَّةٌ.

فَالزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ: يُقْصَدُ بِهَا السَّلَامُ عَلَيْهِمْ وَالدُّعَاءُ لَهُمْ، كَمَا يُقْصَدُ الصَّلَاةُ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ إِذَا مَاتَ، فَيُصَلِّي عَلَيْهِ صَلَاةَ الْجِنَازَةِ؛ فَهَذِهِ الزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ. وَالثَّانِي: أَنْ يَزُورَهَا كَزِيَارَةِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْبِدَعِ لِدُعَاءِ الْمَوْتَىٰ وَطَلَبِ الْحَاجَاتِ مِنْهُمْ، أَوْ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِ أَحَدِهِمْ أَفْضَلُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ، أَوْ أَنَّ الْإِقْسَامَ بِهِمْ عَلَىٰ اللهِ وَسُؤَالَهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ أَمْرٌ مَشْرُوعٌ يَقْتَضِي إِجَابَةَ الدُّعَاءِ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ الزِّيَارَةِ بِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا».

فالزيارة المتضمنة للبدع والشركيات؛ يجب النهي عنها والتحذير منها، والزيارة المتضمنة للأعمال المشروعة والمباحة لا تحريم فيها.

---

(١) التوسل والوسيلة (ص١٩١، ١٩٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ زيارة القبور ثلاثة أنواع:

منها: ما هو منهيٌّ عنه باتفاق العلماء؛ كالزيارة التي تتضمَّن محرَّمًا؛ إما من الندب أو النياحة المحرّمة، وإما من الشرك والبدع المحرَّمة، فهذان النوعان حرام باتفاق العلماء.

ومنها: ما هو مباح؛ كزيارة القريب، وإن كان كافرًا؛ للرقة عليه، لا للدعاء له، فهذا مثل البكاء علىٰ الميت بغير ندب، ولا نياحة، ولا بأس به.

والثالث: أنه يزار ليُدعىٰ له، كما كان يزور ﷺ أهل البقيع، والشهداء، وهذا مستحب، لكن لم يقل أحدٌ من العلماء: إنه يُستحبُّ السَّفرُ إليها لزيارتها».

والسلف الصالح من القرون المفضَّلة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»، متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ زيارتهم للقبور شرعية لا شرك ولا ابتداع فيها، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لا كان السلف في القرون الثلاثة يأتون إلىٰ قبر أحدٍ من الأنبياء، والصالحين، يطلبون منه حاجة، ولا دعاءً، ولا غيره، ولا يسافرون إلىٰ قبره، بل إذا زاروا قبور المؤمنين كان مقصودهم الدعاء لهم كالصلاة علىٰ جنائزهم، لا دعاؤهم، ولا الدعاء بهم».

وعُبَّاد القبور عمدوا إلىٰ آيات القرآن الدالة علىٰ تجريد التوحيد، وحرَّفوا دلالتها عن ذلك إلىٰ نقيضها لاتخاذ الوسائط بينهم وبين الله في الدعاء.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص٦١).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشرك والنفاق (ص١٢٠).

تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

وسبب نزول الآية وألفاظها كلها دالة دلالة صريحة علىٰ أنَّ الوسيلة الشرعية المرادة بالآية هي تحقيق التوحيد ودعاء الله وحده لا شريك له، والرغبة إليه بالأعمال الصالحة، لا باتخاذ المخلوقين وسائط بين الله وخلقه.

فسبب نزول الآية؛ كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم النفر من الجن، واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، رواه مسلم.

وألفاظ الآية نفسها كلها دالة علىٰ أنَّ من سوىٰ الله لا يملك جلب المنفعة ولا دفع المضرة، وهذا تجده صريحًا في أول الآية: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، وهذا صريح في توحيد الله حيث لا يملك إلا هو كشف الضر أو تحويله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الوسيلة التي أمر الله أن تبتغىٰ إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه؛ هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات.

فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك، سواء كان محرمًا أو مكروهًا

(١) التوسل والوسيلة (ص١٢٥، ١٢٦).

أو مباحًا. فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول ﷺ فأمر به أمر إيجاب أو استحباب، وأصلُ ذلك الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها؛ هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ﷺ، لا وسيلة لأحد إلىٰ ذلك إلَّا ذلك».

وقال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «انظر إلىٰ هذه الآية الكريمة، وما دلَّت عليه، وما سيقت له، وانظر حقيقة دعوىٰ العراقي - داود بن جرجيس - وما يفعله الغلاة في الأولياء والصالحين؛ تعرف أنَّه استدلَّ بالآية الكريمة التي هي نص علىٰ إبطال دعاء الصالحين ومسألتهم، وتعظيمهم بشيء من العبادات كالذبح والنذر لهم، وعلىٰ إبطال دعواه أيضًا في التوسُّل الشركي بالصالحين، ودعائهم ومسألتهم؛ وبهذا تعرف أنَّه مشاق لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، ويَستدل بالآية الكريمة علىٰ نقيض ما دلَّت عليه، ويَفهم منها عكس ما دعت إليه، وهكذا حال القلوب المنكوسة تتصوَّر الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه».

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تلقوا معاني التوحيد عن النبي ﷺ مباشرة، وهم أعظم الخلق توقيرًا للنبيِّ ﷺ، فلما توفِّي رسول الله ﷺ، وأصابتهم شدة، ما استشفعوا به ولا توسلوا ولا استغاثوا به، بل قاموا يدعون الله بأنفسهم ويسألونه وحده.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «كَانُوا - الصحابة - فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ يَأْتُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ الدُّعَاءَ يَتَوَسَّلُونَ بِهِ وَيَسْتَشْفِعُونَ بِهِ إِلَىٰ اللهِ؛ كَمَا أَنَّ

---

(١) منهاج التأسيس (٣٥١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٥٣ - ١٥٥).

الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتُونَ إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ إِلَىٰ اللهِ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ وَأَصَابَهُمُ الْجَدْبُ عَامَ الرَّمَادَةِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ شِدَّةٌ عَظِيمَةٌ أَخَذُوا الْعَبَّاسَ فَتَوَسَّلُوا بِهِ وَاسْتَسْقَوْا بِهِ، بَدَلًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَأْتُوا إِلَىٰ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ يَدْعُونَ عِنْدَهُ، وَلَا اسْتَسْقَوْا بِهِ وَلَا تَوَسَّلُوا بِهِ. وَكَذَلِكَ فِي الشَّامِ لَمْ يَذْهَبُوا إِلَىٰ مَا فِيهَا مِنَ الْقُبُورِ؛ بَلِ اسْتَسْقَوْا بِمَنْ فِيهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الدُّعَاءُ عِنْدَ الْقُبُورِ وَالتَّوَسُّلُ بِالْأَمْوَاتِ مِمَّا يُسْتَحَبُّ لَهُمْ لَكَانَ التَّوَسُّلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلَ مِنَ التَّوَسُّلِ بِالْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ.

وَقَدْ كَانُوا يَسْتَسْقُونَ عَلَىٰ «ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ»: تَارَةً: يَدْعُونَ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ، وَتَارَةً: يَخْرُجُونَ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ فَيَدْعُونَ مِنْ غَيْرِ صَلَاةٍ، وَتَارَةً: يُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ. وَالْوَجْهَانِ الْأَوَّلَانِ مَشْرُوعَانِ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ مَشْرُوعٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ؛ كَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد، وَلَمْ يَعْرِفْهُ أَبُو حَنِيفَةَ. وَقَدْ أُمِرُوا فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِأَنْ يَسْتَسْقُوا بِأَهْلِ الصَّلَاحِ، لَا سِيَّمَا بِأَقَارِبِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا فَعَلَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَأُمِرُوا بِالصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ، وَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالِاسْتِسْقَاءِ عِنْدَ شَيْءٍ مِنْ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا الِاسْتِعَانَةِ بِمَيِّتٍ وَالتَّوَسُّلِ بِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ دِينًا وَقُرْبَةً. وَهَذَا فِيهِ دِلَالَةٌ لِلْمُؤْمِنِ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ مُحْدَثَاتٌ لَمْ تَكُنْ عِنْدَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمَعْرُوفِ بَلْ مِنَ الْمُنْكَرِ».

والتوسل بالنبي ﷺ ليس في معنىٰ الاستغاثة به من حيث الدلالة اللفظية، وإن كان في الواقع بحسب جهل المبتدعين أو تبرير الضالين لشرك الاستغاثة يجعلون مسماهما واحدًا، وإلا فالاستغاثة بالنبي ﷺ سؤال له، أما التوسل به فهو سؤال به.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لم يقل أحد: إنَّ التوسل بنبيٍّ هو استغاثة به، بَلِ الْعَامَّةُ الَّذِينَ يَتَوَسَّلُونَ فِي أَدْعِيَتِهِمْ بِأُمُورٍ كَقَوْلِ أَحَدِهِمْ: أَتَوَسَّلُ إِلَيْك بِحَقِّ الشَّيْخِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَتِهِ، أَوْ أَتَوَسَّلُ إِلَيْك بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، أَوْ بِالْكَعْبَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُونَهُ فِي أَدْعِيَتِهِمْ؛ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَغِيثُونَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ الْمُسْتَغِيثَ بِالنَّبِيِّ ﷺ طَالِبٌ مِنْهُ وَسَائِلَ لَهُ، وَالْمُتَوَسَّلَ بِهِ لَا يُدْعَىٰ وَلَا يُطْلَبُ مِنْهُ وَلَا يُسْأَلُ، وَإِنَّمَا يُطْلَبُ بِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَدْعُوِّ وَالْمَدْعُوِّ بِهِ. وَالِاسْتِغَاثَةُ طَلَبُ الْغَوْثِ؛ وَهُوَ إزَالَةُ الشِّدَّةِ، كَالِاسْتِنْصَارِ طَلَبُ النَّصْرِ، وَالِاسْتِعَانَةِ طَلَبُ الْعَوْنِ، وَالْمَخْلُوقُ يُطْلَبُ مِنْهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] وَكَمَا قَالَ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]. وَأَمَّا مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللهُ؛ فَلَا يُطْلَبُ إلَّا مِنَ اللهِ».

وبين التوسل والاستغاثة معنًىٰ مشترك جائز، وهو التوسل لأن يدعو النبيِّ ﷺ والصالحون حال حياتهم الله لمن سألهم ذلك، والتوسُّل بالأموات في اصطلاح القبوريين المشركين هو الاستغاثة بالموتىٰ فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا شرك أكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إما أن يتوسل المتوسل بما أمر الله به من الإيمان به ﷺ ومحبته وطاعته وموالاته والصلاة عليه والسلام ونحو

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٠٩).

ذلك، فهذه هي الوسيلة التي أمر الله بها في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

فالوسيلة تجمعها طاعة الرسول ﷺ؛ فكل وسيلة طاعة للرسول ﷺ، وكل طاعة للرسول ﷺ وسيلة، و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

الوجه الثاني: أن يدعو له الرسول ﷺ، فهذه أيضًا مما يتوسل به إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإن دعاءه وشفاعته عند الله من أعظم الوسائل، فأما إذا لم يتوسل العبد بفعل واجب ولا مستحبٍّ، ولا الرسول ﷺ دعا له؛ فليس في عظم قدر الرسول ﷺ ما ينفعه».

فالتمييز بين دلالة اللفظ ومقتضاه واستعمال المبتدعة؛ ضرورة لبيان أحكام الشرك والبدعة بما تقتضيه أدلَّة الشرع.

قال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ لفظ «التوسُّل» صار مشتركًا، فعُبَّاد القبور يُطلقون التوسل علىٰ الاستغاثة بغير الله ودعائه رغبًا ورهبًا، والذبح والنذر والتعظيم له بما لم يُشرع في حق مخلوق، وأهل العلم يُطلقونه علىٰ المتابعة والأخذ بالسُّنَّة، فيتوسلون إلىٰ الله بما شرعه لهم من العبادات، وبما جاء به عبده ورسوله ﷺ، وهذا التوسل في عرف القرآن والسنة».

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

---

(١) منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس (ص٣٣٩).

قال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الوسيلة: ما شرعه ورضيه من الأعمال الصالحة، والأقوال.

وأين في شرعه أن يسأل العبد ربه بعبد من عبيده، مخلوق من خلقه؟

ومن قاس هذا علىٰ ما صحَّ من التوسل بالأعمال الصالحة، فقد أبعد المرمىٰ، ولم يعرف مناط الأحكام.

والتوسُّل صار مشتركًا في عرف كثير، فبعض الناس يطلقه علىٰ: قصد الصالحين ودعائهم وعبادتهم مع الله، وهذا هو المراد بالتوسُّل في عرف عُبَّاد القبور وأنصارهم، وهو عند الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وعند أولي العلم من خلقه: الشرك الأكبر والكفر البواح، والأسماء لا تُغيِّر الحقائق.

ويُطلق أيضًا علىٰ: مسألة الله بجاه الصالحين والأنبياء وحقِّهم علىٰ الله.

ويُطلق أيضًا في: عرف السنَّة والقرآن وعُرْف أهل العلم بالله ودينه؛ علىٰ: التوسل والتقرُّب إلىٰ الله بما شرعه من الإيمان به وتوحيده وتصديق رسله - عليهم السلام -، وفعل ما شرعه من الأعمال الصالحة التي يحبُّها الربُّ ويرضاها، كما توسل أهل الغار الثلاثة بالبر والعفة وأداء الأمانة.

فإذا أُطلق التوسُّلُ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ وكلام أهل العلم من خلقه؛ فهذا هو المراد، لا ما اصطلح عليه المشركون الجاهلون بحدود ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ رسوله ﷺ، فلبَّسَ هذا المعترض بكلمة مشتركة؛ ترويجًا لباطله».

والمعتبر في أحكام الأفعال هو أدلَّة الشرع، لا تصرُّف المبتدعة بالألفاظ

(١) مصباح الظَّلام في الردِّ علىٰ من كذب علىٰ الشيخ الإمام (ص ٢٨٦، ٢٨٧).

حسب استعمالاتهم، فأحكام الشريعة هي المبيِّنة للجائز والمنهي عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لفظ التوسُّل يُراد به ثلاثة معان:

أحدها: التوسل بطاعته ﷺ، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به.

والثاني: التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته.

والثالث: التوسل به بمعنىٰ الإقسام علىٰ الله بذاته والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنَّما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عمن ليس قوله حجَّة».

ومع تلبيسات المشركين بتحريف دلالات الألفاظ علىٰ الأحكام؛ فإنهم أقاموا شركهم بالاستدلال بالروايات المكذوبة والموضوعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ما يرويه بعض العامَّة من أنه قال: «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عظيم»؛ فهو حديث كذب موضوع، لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الدين».

وبعد هذا التفصيل في بيان أحكام التوسل والاستغاثة نُلخص بيان أحكامها:

---

(١) التوسل والوسيلة (ص١٢٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٢٦).

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا معنىٰ التوسُّل وأنواعه[١]:

«التوسل اتخاذ الوسيلة؛ والوسيلة: «كل ما يوصل إلىٰ المقصود»، فهي من الوصل؛ لأن الصاد والسين يتناوبان؛ كما يقال: صراط، وسراط، وبصطة، وبسطة.

والتوسل في دعاء الله - تعالىٰ - أن يقرن الداعي بدعائه ما يكون سببًا في قبول دعائه، ولا بدَّ من دليل علىٰ كون هذا الشيء سببًا للقبول؛ ولا يُعلم ذلك إلَّا من طريق الشرع؛ فمن جعل شيئًا من الأمور وسيلة له في قبول دعائه بدون دليل من الشرع؛ فقد قال علىٰ الله ما لا يعلم؛ إذ كيف يدري أن ما جعله وسيلة مما يرضاه الله - تعالىٰ -، ويكون سببًا في قبول دعائه؟! والدعاء من العبادة، والعبادة موقوفة علىٰ مجيء الشرع بها. وقد أنكر الله - تعالىٰ - علىٰ من اتبع شرعًا بدون إذنه، وجعله من الشِّرك، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]، وقال - تعالىٰ -: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والتوسل في دعاء الله - تعالى - قسمان:

القسم الأول: أن يكون بوسيلة جاءت بها الشريعة؛ وهو أنواع:

النوع الأول: التوسل بأسماء الله تعالىٰ وصفاته، وأفعاله، فيتوسل إلىٰ الله - تعالىٰ - بالاسم المقتضي لمطلوبه، أو بالصفة المقتضية له، أو بالفعل المقتضي له، قال الله - تعالىٰ -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيقول:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٣٤٠ - ٣٤٣).

اللهم يا رحيم ارحمني، ويا غفور اغفر لي، ونحو ذلك؛ وفي الحديث عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**اللهمَّ بعلمك الغيب وقدرتك علىٰ الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي**». وعلَّم أمَّته أن يقولوا في الصلاة عليه: «**اللهم صلِّ علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد، كما صليت علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيم**».

النوع الثاني: التوسُّل إلىٰ الله - تعالىٰ - بالإيمان به وطاعته؛ كقوله - تعالىٰ - عن أولي الألباب: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقوله عن الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]

النوع الثالث: أن يتوسَّل إلىٰ الله بذكر حال الداعي المبينة لاضطراره، وحاجته، كقول موسىٰ - عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

النوع الرابع: أن يتوسل إلىٰ الله بدعاء من ترجىٰ إجابته؛ كطلب الصحابة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ - من النبي - ﷺ - أن يدعو الله لهم، مثل قول الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبيُّ - ﷺ - يخطب، فقال: «ادعُ الله أن يغيثنا». وقول عكاشة بن محصن للنبي - ﷺ -: «ادعُ الله أن يجعلني منهم».

وهذا إنَّما يكون في حياة الداعي، أما بعد موته فلا يجوز؛ لأنه لا عمل له؛ فقد انتقل إلىٰ دار الجزاء؛ ولذلك لما أجدب الناس في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ

لم يطلبوا من النبي - ﷺ - أن يستسقي لهم؛ بل استسقىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالعبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عم النبي - ﷺ - فقال له: «قمْ فاستسق»؛ فقام العباس فدعا.

وأما ما يروىٰ عن العتبي أن أعرابيًّا جاء إلىٰ قبر النبي - ﷺ - فقال: «السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وقد جئتك مستغفرًا من ذنوبي مستشفعًا بك إلىٰ ربي»، وذكر تمام القصة؛ فهذه كذب لا تصح، والآية ليس فيها دليل لذلك؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ولم يقل: «إذا ظلموا أنفسهم» و«إذ» لما مضىٰ لا للمستقبل؛ والآية في قوم تحاكموا، أو أرادوا التحاكم إلىٰ غير الله، ورسوله، كما يدلُّ علىٰ ذلك سياقها السابق، واللاحق.

القسم الثاني: أن يكون التوسُّل بوسيلة لم يأتِ بها الشرع، وهي نوعان:

أحدهما: أن يكون بوسيلة أبطلها الشرع؛ كتوسل المشركين بآلهتهم، وبطلان هذا ظاهر.

الثاني: أن يكون بوسيلة سكت عنها الشرع: وهذا محرَّم، وهو نوع من الشِّرْك، مثل أن يتوسَّل بجاه شخص ذي جاه عند الله، فيقول: «أسألك بجاه نبيك ﷺ»: فلا يجوز ذلك؛ لأنه إثبات لسبب لم يعتبره الشرع، ولأن جاه ذي الجاه ليس له أثر في قبول الدعاء؛ لأنه لا يتعلَّق بالداعي، ولا بالمدعو؛ وإنَّما هو من شأن ذي الجاه وحده؛ فليس بنافع لك في حصول مطلوبك، أو دفع مكروبك، ووسيلة الشيء ما كان موصلًا إليه؛ والتوسل بالشيء إلىٰ ما لا يوصل إليه نوع من العبث، فلا يليق أن تتخذه فيما بينك وبين ربِّك، والله الموفِّق».

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الاستغاثة: طلب الغوث والإنقاذ من الشدَّة والهلاك.

وهو أربعة أقسام:

الأوَّل: الاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من أفضل الأعمال وأكملها، وهو دأب الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم.

ودليله قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

الثاني: الاستغاثة بالأموات، أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين علىٰ الإغاثة؛ فهذا شرك لأنَّه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًّا في الكون، فيجعل لهم حظًّا من الربوبيَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

الثالث: الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين علىٰ الإغاثة؛ فهذا جائز كالاستعانة بهم، قال الله تعالىٰ في قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

الرابع: الاستغاثة بحيٍّ غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفيَّة، مثل أن يستغيث بمشلول علىٰ دفع عدو صائل؛ فهذا لغو وسخرية بالمستغاث به، فيمنع لهذه العلة، ولعلة أخرىٰ وهي أنه ربما اغتر بذلك غيره فتوهَّم أن لهذا المستغاث به وهو عاجز؛ أنَّ له قوة خفية ينقِذُ بها من الشدَّة».

---

(١) شرح كشف الشبهات (ص٣٨، ٣٩).

الصوارف عن الحق

ذكر الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة كتاب «كشف الشبهات» أسباب الضلال عن الحقِّ، وهذا من باب النصيحة للخلق؛ فإنَّهم إذا حسن قصدهم واستعانوا بالله في معرفة الحق؛ هداهم الله إذا تجرَّدوا للحقِّ وانقادوا له، وتركوا أسباب الضلال عنه.

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تَرَىٰ مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ بِهِ؛ لِخَوْفِ نَقْصِ دُنْيَا أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُدَارَاةٍ لِأَحَدٍ».

وكان قد ذكر قبل ذلك في الكتاب سببَ ضلال عامَّة المشركين والمبتدعين، وهو اتباع المتشابه؛ حيث قال(٢): «جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٍ، وَمُفَصَّلٍ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَهُوَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ، وَالْفَائِدَةُ الْكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ،

(١) كشف الشبهات (ص٦٠).

(٢) كشف الشبهات (ص١٥-١٧).

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ».

مِثَالُ ذَلِكَ: إِذَا قَالَ لَكَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢].

وَأَنَّ الشَّفَاعَةَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللهِ، أَوْ ذَكَرَ كَلَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ بَاطِلِهِ، وَأَنْتَ لَا تَفْهَمُ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ؛ فَجَاوِبْهُ بِقَوْلِكَ: إِنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ، وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ، وَمَا ذَكَرْتُهُ لَكَ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ بِتَعَلُّقِهِمْ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالْأَوْلِيَاءِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. وَهَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ بَيِّنٌ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَعْنَاهُ».

وقول الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَرَىٰ مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ بِهِ؛ لِخَوْفِ نَقْصِ دُنْيَا أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُدَارَاةٍ لِأَحَدٍ»، هو من أعظم أسباب ترك الحقِّ بل وعداوته، والحرب عليه، والشناعة ضده، وإلا فإن علىٰ الحقِّ نورًا يُعرف به، وتقبله النفوس الزكيَّة المفطورة علىٰ معرفة الحقِّ وإرادته.

فالمسلم لا يرتاب أنَّ التبرك بالشجر والحجر، وسؤال الموتىٰ من المخلوقين ما لا يقدر عليه إلا الله، من الرزق والنصر وكشف الضرِّ أو تحويله؛ من الشِّرك، وكذلك دعاء الله بالمخلوقين، وكُلُّ من اغتذىٰ من معاني القرآن وحقائقه من التوحيد لا يسأل إلا الله، فهو وحده الذي يملك كشف الضر والنصر والرزق، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقول **الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَرَىٰ مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ بِهِ؛ لِخَوْفِ نَقْصِ دُنْيَا أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُدَارَاةٍ لِأَحَدٍ»، وقع ما تفرَّسه من المضادِّين لدعوة التوحيد، سواء من كان منهم يظهر المخالفة، أو من كان يتكتمها، فبعد أن كتب الله للدعوة القبول والظهور العلمي والجهاد، وامتدت دولة الموحِّدين إلىٰ العراق والشام وعمان وأطراف الساحل الشرقي من جهة فارس، وقصد الأتراك العثمانيون الدرعية وهدموها؛ اجتمع دعاة الضلال علىٰ حرب الدعوة علميًّا، وكتبوا في ذلك الكتب والمصنَّفات، وجهدوا أنفسهم لإعادة الشرك الذي كان عليه الناس قبل الدعوة التجديدية لشيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما خوف من ردَّ الحق خشية فوات المال أو الجاه إلا من جنس خشية من كفر بما بُعث به محمَّد ﷺ خشية العَيْلَةِ، وهذا كله من فساد التوحيد، أما من أخلص لله، وحقَّق التوحيد فيتولاه الله حفظًا ونصرًا ورزقًا.

قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال ابن إسحاق: وذلك أنَّ الناس قالوا: لتنقطعنَّ عنَّا الأسواق، ولَتَهلكنَّ التجارة، ولَيَذهبنَّ ما كنَّا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٢٨]».

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٠٩).

ومن أعظم أسباب ضلال المبطلين إعراضهم عن اتباع الحق أو طلبه ومعرفته.

وكيف يهتدي للحق من لا يعرفه، أو من هو معرض عن طلب معرفته؟! فالدين كله في العلم النافع والعمل الصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العلم النافع هو أصل الهدىٰ، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغي.

فالضلال: العمل بغير علم، والغي: اتباع الهوىٰ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الهداية هي: العلمُ بالحقِّ، مع قصده وإيثاره علىٰ غيره، فالمهتدي هو العالم بالحقِّ المريد له، وهي أعظم نعمة لله علىٰ العبد، ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصِّراط المستقيم كلَّ يوم وليلة في صلواتنا الخمس».

ومن ظهر له الحقُّ ولم يتبعه صرف الله قلبه عن الحقِّ لإعراضه عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «من أعرض عَنِ اتِّبَاع الْحقِّ الَّذِي يَعلمهُ تبعًا لهواه؛ فَإِنَّ ذَلِك يورثه الْجَهْل والضلال حَتَّىٰ يعمي قلبه عَن الْحقِّ الْوَاضِح، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠]، وَقَالَ

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٥٥).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٣٠).

(٣) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٢٩٩).

تَعالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]، وَهَذَا اسْتِفْهَام نفي وإنكار؛ أَي: وَمَا يدريكم أَنَّهَا إِذا جَاءَت لَا يُؤمنُونَ، وَإِنَّا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كَمَا لم يُؤمنُوا بِهِ أول مرّة».

ودلالة نصوص القرآن علىٰ معاني التوحيد واضحة البيان، من أعرض عنها أو حرَّف معانيها؛ فهذا من سوء قصده الذي حرمه الانتفاع من البيان القرآني للحقِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المبتدعين[1]: «أمَّا عدم الفهم، فإنَّ النصوص التي يخالفونها، تارة يحرِّفونها بالتأويل، وتارة يعرضون عن تدبُّرها وفهم معانيها؛ فيصيرون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانِيَّ؛ ولهذا تجد هؤلاء معرضين عن القرآن والحديث، فمنهم طوائف لا يقرءون القرآن، مثل كثير من الرافضة والجهمية، ولا تحفظ أئمَّتهم القرآن، وسواء حفظوه أم لم يحفظوه لا يطلبون الهدىٰ منه، بل إما أن يعرضوا عن فهمه وتدبُّره، كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وإما أن يحرِّفوه بالتأويلات الفاسدة.

وأما الحديث: فمنهم من لا يعرفه ولم يسمعه، وكثير منهم لا يُصدِّق به، ثم إذا صدَّقوا به كان تحريفهم له وإعراضهم عنه؛ أعظمَ من تحريف القرآن والإعراض عنه، حتىٰ إن منهم طوائف يقرُّون بما أخبر به القرآن من الصفات، وأما الحديث إذا صدقوا به فهم لا يقرون بما أخبر به».

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (١/ ٢٤٦).

والذي يحول بين تدبُّر القلوب معاني القرآن أقفالُها من الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الذي يغشىٰ القلوب يسمىٰ رينًا، وطبعًا، وختمًا، وقفلًا، ونحو ذلك».

والتقليد للآباء أو الشيوخ والحزبية من أعظم أسباب الإصرار علىٰ الباطل والإعراض عن الحقِّ وردِّه، وهو داء اليهود، ومن تشبَّه بهم، وهو شأن من حصر الخير في نفسه كالخوارج.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، بعد أن قال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وصف اليهود: أنَّهم كانوا يعرفون الحقَّ قبل ظهور الناطق به، والداعي إليه، فلمَّا جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له؛ فإنهم لا يقبلون الحقَّ إلَّا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنَّهم لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم».

ومن أعظم أسباب ضلال المشركين أنَّهم حبسوا أنفسهم علىٰ شبهات الشِّرك التي اعتقدوها، وصاروا يخوضون بالباطل ويجادلون عنه، وينصرون الشِّرك ويحاربون التَّوحيد، وهذا من غرور الكفر والشِّرك، قال تعالىٰ: ﴿إِنِ

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (١/ ٢٦٠).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (١/ ٢٨٠).

ﭐلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الملك: ٢٠]، ومن أعظم الغرور الفرح بالجهل؛ فإنَّ الشِّرك سببه الجهل، فمن اغترَّ بجهله استروح إلىٰ ضلال شركه.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ القول بلا علم من أعظم المختلقات، وإنَّ ذلك من الجهالات والضَّلالات، خصوصًا في أعظم المسائل وأهمِّها، وهي مسألة التَّوحيد».

فالمقصود: أنَّ المشركين قد منعوا أنفسهم أسباب الهداية، ولو أرادوا الهداية لنظروا في معاني ما دعتهم إليه رسل الله - عليهم السلام - وورثتهم من توحيد الله، ومَن رُزق العدل والإنصاف وأقبل علىٰ تفُّهم التَّوحيد؛ هُدي إليه، ومن أعرض عنه فاستكباره لا يزيده إلَّا ضلالًا.

فالمشركون والكافرون حبسوا قلوبهم وعقولهم علىٰ شبهاتهم الشِّركيَّة والكفريَّة، فاختاروا لقلوبهم أن تكون مظلمةً بشبهات الشِّرك، فانسلخوا ممَّا فطرهم الله عليه من التَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال النَّبي ﷺ: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»، متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

واختاروا لعقولهم أن تكون معرضة عن التدبُّر في دلائل التَّوحيد، فصاروا مشركين بالإعراض والبغي وهو عدم إرادة أو طلب الحق.

قال تعالىٰ: ﴿**أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ**

---

(١) المواهب الربَّانيَّة من الآيات القرآنية (ص٧٣٣).

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الكفر والشِّرك كلُّه ظلمة، ومآله إلىٰ الظُّلمات، ومستقرُّه في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة».

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال العلَّامة عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لم يزل الشَّيطان يحسِّن لهم أعمالهم، ويزيِّنها في قلوبهم، حتىٰ استحسنوها ورأوها حقًّا، وصار ذلك عقيدةً في قلوبهم، وصفةً راسخة ملازمة لهم؛ فلذلك رضوا بما هم عليه من الشرِّ والقبائح».

والضَّالُّون لا عذر لهم، فهم الذين ضلُّوا وآثروا الضَّلال واكتسبوه بإعراضهم عن الحقّ، وبذلك يستحقُّون عقوبة الله في الدَّار الآخرة(٣).

وتدبُّر أصناف المائلين عن الصِّراط المستقيم يدلُّك علىٰ أنَّه لا عذر لهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فالمشركون والكافرون أدركوا من معاني القرآن ما قامت به عليهم الحجَّة، ولكنَّهم تولَّوا عن الحقِّ الذي دلَّ عليه من توحيد الله، وما يوجبه عليهم من

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٢٧٦).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٣١)، ط: دار النَّفائس، ط: الأولىٰ.

تحقيقه، وصاروا بسبب تولِّيهم عنه كأنَّهم لا يفهمون ولا يعقلون.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أخبر سبحانه بأنه منعهم فقه كلامه، وهو الإدراك الذي يَنتفعُ به مَن فَقِهَه، ولم يكن ذلك مانعًا لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجَّةُ عليهم؛ فإنهم لو لم يفهموه جملةً ما وَلَّوا علىٰ أدبارهم نفورًا عند ذكر توحيد الله، فلمَّا ولوا عند ذكر التوحيد؛ دلَّ علىٰ أنهم كانوا يفهمون الخطاب، وأن الذي غَشِي قلوبَهم كالذي غشيَ آذانهم.

ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملةً ويصيروا كالأصمِّ، ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارةً، ويثبته أخرىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن، وأُمِرَ الرسول ﷺ بإسماعهم إياه، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، فهذا السمع المنفيُّ عنهم سمع الفهم والفقه، والمعنىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٢٣] سمعًا ينتفعون به، وهو فقه المعنىٰ وعَقْلُه وإلَّا فقد سمعوه سمعًا تقوم به عليهم الحجَّة، ولكن لمَّا سمعوه مع شدَّة بغضه وكراهته ونُفْرتهم عنه؛ لم يفهموه ولم يعقلوه. والرجل إذا اشتدَّتْ كراهته للكلام ونُفْرته عنه؛ لم يفهم ما يُراد به، فينزَّلُ منزلة من لم يسمعه؛ قال الله

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، نفىٰ عنهم استطاعة السمع مع صحَّة حواسِّهم وسلامتها، وإنَّما لفَرْط بُغْضِهم ونُفْرتهم عنه وعن كلامه؛ صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه».

❁ ❁ ❁

لا إكراه
في اعتقاد القلب

في خاتمة كتاب «كشف الشبهات» أوصىٰ شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتدبُّر آيتين من كتاب الله، الأولىٰ سبق التعليق عليها في الصوارف عن الحق، وهنا أذكر وصيَّته وما علَّقه علىٰ الآية الثانية، ثم أشرح ما يحصل به الإفادة من معاني الآية وأحكامها.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ:

أُولَاهُمَا: ...

وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧].

فَلَمْ يَعْذُرِ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، سَوَاءٌ فَعَلَهُ خَوْفًا، أَوْ طَمَعًا، أَوْ مُدَارَاةً، أَوْ مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ عَشِيرَتِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ فَعَلَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَزْحِ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَغْرَاضِ؛ إِلَّا الْمُكْرَهَ.

---

(١) كشف الشبهات (ص٦١-٦٣).

فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَىٰ: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾. فَلَمْ يَسْتَثْنِ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَّا الْمُكْرَهَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُكْرَهُ إِلَّا عَلَىٰ الْكَلَامِ أَوِ الْفِعْلِ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ الْقَلْبِ فَلَا يُكْرَهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

وَالثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾. فَصَرَّحَ أَنَّ هَذَا الْكُفْرَ وَالْعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الِاعْتِقَادِ، أَوِ الْجَهْلِ، أَوِ الْبُغْضِ لِلدِّينِ، أَوْ مَحَبَّةِ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا، فَآثَرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ.

وَاللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ. وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ».

قصد شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة الكتاب بيان أنَّ ضلال وكفر المشركين في النواحي التي بلغتها دعوته الإصلاحيَّة ليس عن جهل بالتوحيد، بل عن إعراض عنه؛ فرحًا بما عندهم من الجهل، وما انطوت عليه قلوبهم من تعظيم الشرك، ومن إيثار الدنيا علىٰ الآخرة، بما غرَّهم به دعاة الشرك، ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣]، وما أهون التوحيد والآخرة في نفوس المشركين الذين آثروا الدنيا والشِّرك علىٰ التوحيد والآخرة، فهذا من سفه عقولهم وفساد توحيدهم، وإلا فالله عنده ثواب الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ولم يكن كفر وشرك أولئك عن إكراه، بل كان عن اختيار للأسباب التي ذكرها عنهم شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأفادنا شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة من متن

«كشف الشبهات» أنَّ اعتقاد القلب لا يقع عليه إكراه، حيث قال: «معلوم أنَّ الإنسان لا يُكره إلَّا علىٰ الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحد عليها»، ومن هذه الجملة نستفيد أنَّ الذي قرَّب ذُبابًا فدخل النار؛ أنَّه وقع من قلبه ميل إلىٰ تقريبه، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدِّمة	٣
أهمية كشف الشبهات	٧
تشابهت شبهاتهم	١٧
تصحيح العقيدة بإبطال الشبهات	٢٠
فرض كفاية	٣٠
القرآن كُلُّه في التوحيد لا تُبطل معانيه الشبهات	٣٤
الشرك والباطل لا يقوم عليه دليل صحيح	٤٨
وضوح البيان القرآني لا تقوم له شُبَهُ المشركين	٧٧
جدال بالباطل عن الباطل	٨٩
إبطال الشبه لا إثارتها	٩٨
التوحيد	١٠٢
الدَّعوة للتَّوحيد	١١١
من أعظم شبهات المشركين	١١٨
محمد ﷺ جدَّد ملَّة إبراهيم	١٢٣

شرك العبوديَّة والرُّبوبيَّة ١٣٠
توحيد الربوبيَّة لم يدخل كفَّار قريش في الإسلام ١٣٦
تحقيق التَّوحيد ١٤٠
علم الكفار الأولين بحقيقة التوحيد منعهم من الإسلام ١٥٩
الفرح بالهداية للتوحيد والخوف من الشرك ١٦٥
التسلح بالعلم لنصرة التوحيد ١٧٤
العامِّي من الموحِّدين يغلب الألف من علماء المشركين ١٨٣
القرآن حُجَّتنا ١٨٩
عامة ضلال المشركين من اتباع المتشابه ١٩٧
سؤال الله بجاه الصالحين واتخاذهم شفعاء عند الله ٢٠٣
المحاجة في تجريد العبادة لله ٢١١
حقيقة الشِّرك ومعناه ٢٣١
موالاة الصَّالحين بلا غلو ٢٦٣
المقارنة بين شرك الأوَّلين والمعاصرين ٢٧٧
أعظم الشُّبهات ٢٨٦
جعلوا لله أندادًا وقالوا: لسنا مشركين ٢٩٢
اختلاف الندِّ لا ينفي الشِّرك ٢٩٩
كفر العبيديين ٣٠٧
الكفر يكون بالاعتقاد والقول والعمل ٣١٢

مضاهاة قوم موسىٰ في الشرك ٣٢١

تغرير الشيطان الناس بفهم التوحيد ٣٢٩

معاملة المشركين ٣٤١

التقليد للآباء والإجماع المكذوب ٣٥٦

دفع الشرك بالتوحيد ٣٦٠

حديث أسامة لا يبطل نواقض الإسلام ٣٦٨

الاستغاثة المشروعة والممنوعة ٣٧٣

الصوارف عن الحق ٣٩٣

لا إكراه في اعتقاد القلب ٤٠٣

الفهرس ٤٠٦

❁ ❁ ❁